

جيلبرت سينويه

# دِلمون

مملكة ببحرين



FIFA WORLD CUP  
RUSSIA 2018

ترجمة: محمد مذكور

منشورات الجمل

رواية

جیلبرت سینویہ

# دِلْمون

مملکة ببحرین

روایة

ترجمة: محمد مدکور

مراجعة وتدقیق: صالح الأشمر وإیلی فلوطی

منشورات الجمیل

جیلبرت سینویہ: دلمون: مملکہ ببحرین، رواۃ

جيلبرت سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر ثم أكمل دراسته الموسيقية بباريس حيث تحصل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان، رواية (١٩٩٩)؛ المصرية، رواية (٢٠٠٥)؛ ابنة النيل، رواية (٢٠٠٧)؛ اللوح الأزرق، رواية (٢٠٠٨)؛ أختاتون - الإله اللعين، رواية (٢٠١١)؛ الفرعون الأخير، رواية (٢٠١٢)؛ أنا، يسوع، رواية (٢٠١٢)؛ يريفان، رواية (٢٠١٢)؛ صمت الآلهة، رواية (٢٠١٥)؛ البكباشي والملك - الطفل، رواية (٢٠١٥)؛ الملكة المصلوبة، رواية (٢٠١٦)؛ أريج الياسمين، رواية (٢٠١٦)؛ صرخة الحجارة، رواية (٢٠١٦).

جيلبرت سينويه: يلمون: مملكة ببحرين، رواية، الطبعة الاولى

ترجمة: محمد مدكور

مراجعة وتدقيق: صالح الأشمر وإيلي فلوطي

كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية

محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٨

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان

Gilbert Sinoué: *Le royaume des deux-mers*

© Éditions DENÖL, 2018

© Al-Kamel Verlag 2018

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: [www.al-kamel.de](http://www.al-kamel.de)

E-Mail: [alkamel.verlag@gmail.com](mailto:alkamel.verlag@gmail.com)

## شكر وعرّفان

ما كان لهذه الرواية أن ترى النور دون الدعم غير المشروط الذي قدمته رئيسة هيئة البحرين للثقافة والآثار، الشيخة ميّ بنت محمد آل خليفة. لولا تشجيعها، وحماسها، لكان التصدي لهذا التحدي ضرباً من المستحيل، فخلال تجربتي الطويلة في الكتابة قابلت في عالم الثقافة قلة من الشخصيات القادرة على تحقيق الإنجازات التي حققتها الشيخة ميّ لبلادها البحرين غير أنني، والحق يقال، لم أجد لها مثيلاً.

عندما أذكر اسم الشيخة ميّ لا يسعني إلا أن أذكر «مركز الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة للثقافة والبحوث» الذي قامت بتأسيسه.

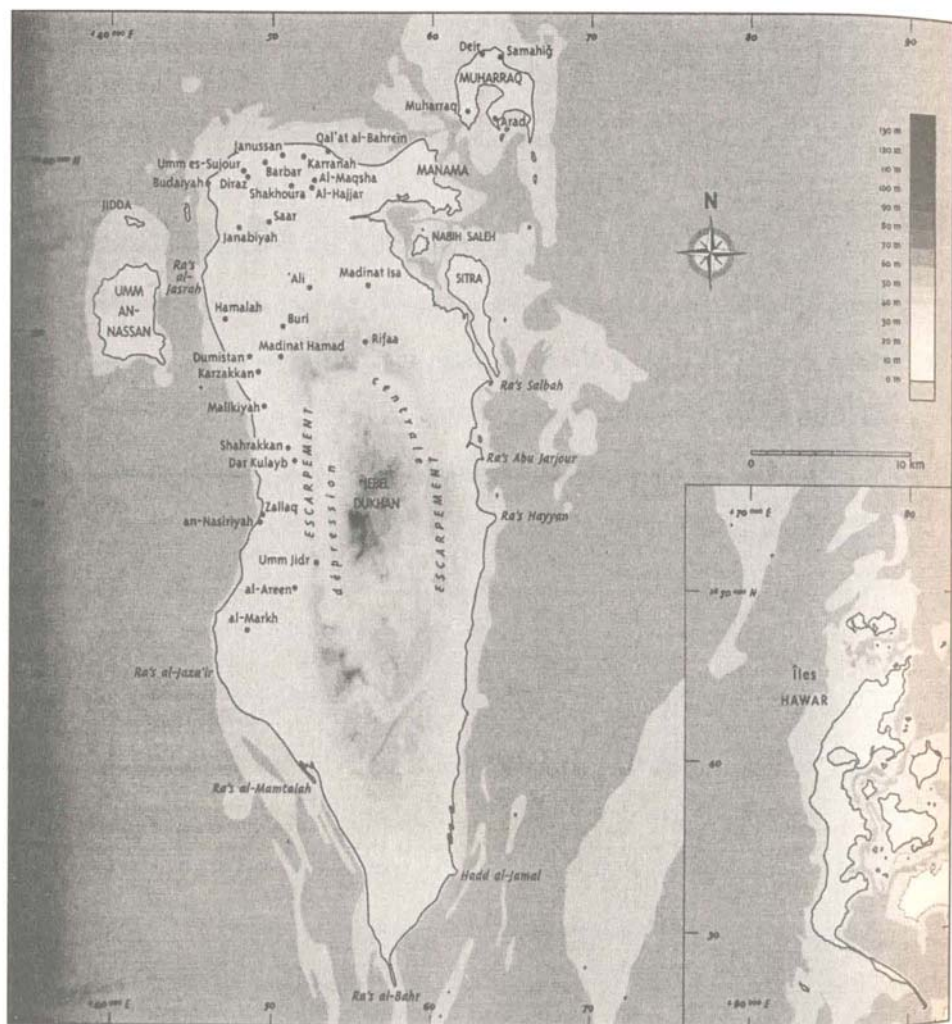
أود أيضاً تسجيل الإعراب عن شكري للمسؤولين عن «بيت التمويل الخليجي»، على دعمهم لهذا المشروع.

كما أشكر نادين بقسماتي - فُتُوح، المستشارة الإستراتيجية، التي أدين لها باكتشاف حضارة دلمون خلال زيارة لمتحف «قلعة البحرين»، وهي حضارة أعترف أنني كنت أجهل كل شيء عنها.

أذكر أيضاً بمودة إيلي فلوطي، المستشار الإعلامي لدى «هيئة البحرين للثقافة والآثار»، وأزميرلدا قبّاني مساعدة الشيخة ميّ.

ولا يسعني في هذا المجال إلا أن أذكر الاستقبال الحافل الذي اختصّني به السيد إبراهيم خليفة مطر الذي كرّست عائلته جهودها، منذ أكثر من ١٥٠ عاماً، لصيد وتجارة اللؤلؤ، وإني ما زلت منبهراً بجمال أعماله.

أخيراً، أشكر بوجه خاص بيار لومبار رئيس بعثة الآثار الفرنسية الذي يستكشف، منذ عام ١٩٨٨، من دون كلل آثار البحرين التي ظلت منسية لفترة طويلة والذي أثار بعلمه الطريق الوعر (جداً) الذي سَلَكَتُهُ، فأنا مدين له بكل ما عرفته عن دلمون. كما لا يسعني إلا أن أنوّه بما يتمتع به هذا الخبير المتمرس من سعة أفقٍ قلما نجدها في وسط ينظر فيه المختصون من عليّ إلى الغرباء عن المهنة. وآمل أن يتغاضى عما قد يكون الروائي سمح لنفسه به من تحرر من صرامة التاريخ.







مَن رأى كلَّ شيء، مَن عرف تُخوم البلاد، الحكيم، العالم  
الذي لا يخفى عن علمه شيء، والذي عرف من مَعين المعرفة  
الكثير، عالمُ الأسرار وكاشفُ المستور، هو الذي عرفنا بما حدث  
قبل الطوفان.  
لقد قطع طريقاً طويلة، وعاد مُنهكاً، لكن بذهن صاف، فنقش  
على الحجر قصة رحلته.



## المقدمة

قد يُفاجأ القارئ بأن دلمون بلاد حقيقية وليست من نسج الخيال. وهي موطن حضارة نشأت في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية وبلغت أوجها في البحرين حيث أقامت عاصمتها. ورد ذكر دلمون منذ العام ٣٠٠٠ ق.م. في نصوص بلاد ما بين النهرين القديمة وحتى منتصف الألفية الأولى ق.م. إلا أن ذكر أول القادمين إلى تلك الجزيرة لم يرد إلا ابتداء من عام ٢٢٠٠ ق.م. تقريباً.

ورغم أن هذه الحضارة انهارت قرابة عام ١٦٥٠ ق.م. لأسباب غامضة، إلا أن ذكر اسمها استمر حتى القرن الخامس ق.م. وتحديدًا على لوحة من العصر البابلي الحديث تعود لعام ٥٤٤ ق.م. دلمون في الحقبة التي نتحدث عنها لم تكن صحراء جرداء، بل على العكس كانت تُروى بالمئات من ينابيع المياه العذبة والآبار الأرتوازية وكانت أراضيها شديدة الخضرة، محققة بذلك معجزة في منطقة من العالم مشهورة بجفافها.

كانت تلك الجزيرة غنية بالأزهار والأشجار لدرجة اعتبارها جنة عدن. وأكثر ما يشير الفضول الاعتقاد الذي كان سائداً بأن «شجرة الحياة» الغامضة المذكورة في سفر التكوين موجودة في هذه البلاد.

وهي ترتفع في قلب الصحراء قرب «جبل الدخان» على مسافة كيلومترات من أقرب مصدر مياه وأي حياة نباتية. على أننا نعلم بالتأكيد أن عُمر «شجرة الحياة» هذه لا يتعدى أربع مئة سنة، ولكن هذا ليس بالأمر المهم.

في دلمون تتلاقى الأساطير مع الواقع، والحياة الأبدية مع الموت، والتاريخ العظيم مع حكايات الحُقب. كل ذلك يُختصر في كلمة واحدة: الحلم.

## تمهيد

كانت دلمون بلاداً رائعة . كانت بلاد دلمون متألقة .  
غير أن بلاد دلمون كانت عذراء ، وطاهرة وساكنة .  
في مواجهة البحر ، وقف إنكي إله المياه الجوفية بجوار زوجته  
ننهرساج الإلهة الأم .

في دلمون ما من غراب ينثق ، وما من عصفور يغرد همساً ، وما  
من أسد ينقضّ على فريسته ، وما من ذئب يفتك بحمل .  
لم تعرف البلاد الكلاب البرية التي تفترس الأيائل ، ولا الخنازير  
أكلة الحَبِّ . وإن بسطت أرملة حبوب القمح على سقف بيتها فما من  
عصفور طائر يحط ليلتقطها بمنقاره . وما من مريض يصرخ : «عيناى  
تؤلماننى» ، وما من عليل يشتكي : «رأسى يؤلمنى» ، ما من امرأة  
عجوز تنوح : «أنا عجوز!» وما من شيخ يتحسر : «لقد هرمت» .  
لم يكن في دلمون صبي أو صببية يستحمّان ويسكبان المياه غير  
النقية في الطرقات . وما من حارس يطوف في المناطق الحدودية  
المكلّف بحراستها ، وما من إنسان يندب حظه في ضواحي المدينة .

بلاد دلمون كانت عذراء ، بلاد دلمون كانت طاهرة .

التفتت ننهرساج نحو إنكي وقالت :

- حبيبي، لقد أهديتني بلداً ولكن بَمَ تفيدني هديتك؟ فهذا البلد يفتقد المياه العذبة وهي سر الحياة للحيوانات والبشر والنباتات. لا يوجد مرفأ ولا نهر، فماذا أفعل بهديتك؟

ابتسم إنكي ورفع رأسه نحو السماء وهتف بصوت جهوري :

- أمر أن تتحول مياه الآبار الأجاج إلى مياه عذبة، وأن ترتوي الأراضي الجافة من الينابيع الغزيرة، وأن تُنتج الأثلام الشعير. ولتكن دلمون ميناء البلاد، ولتغدق عليها بلاد «تكريس» بذهب «هارالي» وأحجار اللازورد، ولتبحر إليها من بلاد «الملوحة» سفن ضخمة محملة بالعقيق الأحمر، والخشب، والأشجار الجميلة، وتمنحها بلاد «موهاسي» الأحجار الكريمة والفيروز، وتقدم لها بلاد «ماجان» النحاس الصلب المقاوم والبلور الصخري ومطارق وسنادين حجرية.

وأن ترسل إليها بلاد عيلاّم الصوف الفاخر، ويصلها من «مقبرة أور» - المقر الملكي - القمح وزيت السمسم، وأثواب من الأقمشة الجميلة والفضفاضة. ولتفض وفرة البحار على دلمون، وتهديها «أراضي الخيمة» أصوفاً رفيعة مزركشة.

هكذا ستكون بيوت دلمون مساكن مبهجة، وشعيورها ممتازاً، وتمرّها كبيراً، ومواسم حصاها ثلاثة كل عام.

ما إن نطق إنكي بهذه العبارات حتى انبجست تحت شمس ساطعة، شمس بداية العالم، من باطن الأرض ينابيع ارتوت منها دلمون العطشى، فتحولت الأراضي القاحلة إلى حديقة غناء، زاهية، مهيبة وملكية... هكذا ولدت دلمون.

# القسم الأول





## (١)

كانت آتاراك<sup>(١)</sup> ميناء وعاصمة دلمون حوالي عام ١٧٤٠ ق.م.

كان الرجل الممدد على الأرض يصدر نخير حيوان متوحش تختلجه صرخات مدوية. كان زائغ العينين، نظراته مجنونة، وعضلات فكه متقلصة ومتصلبة كالحجر. كان جسمه يرتعد من التشنجات ويسيل من شفثيه زبد أبيض تشوبه حُمرة، وتنبعث من بوله رائحة كريهة. وأخيراً انتفض مصدراً صرخة طويلة مدوية ثم فقد الوعي.

تشبثت زوجته، وهي امرأة في العقد الثالث، هزيلة كساق نبتة القصب، في يأس بذراع آسو الطيب.

- لن يموت . . . أليس كذلك؟ قل لي إنه لن يموت.

- اهدئي يا آنام لن يموت أحد.

واستدار ياكين- وهذا اسم الطيب - تجاه فتى في الثالثة عشرة

---

(١) تسمى اليوم «قلعة البحرين» وتقع على الساحل الشمالي لأكبر جزر المملكة. بطبيعة الحال، لما كانت أسماء المدن أيام «دلمون» خافية علينا حتى يومنا هذا فقد اضطررنا لاختراعها. إلا أن جميع الباحثين يؤكدون أن «قلعة البحرين» كانت عاصمة البلاد حينذاك.

من عمره وفتاة في العاشرة كانا يراقبان المشهد وأمرهما :

- اخرجنا .

أنزل الطبيب حقيته المعلقة على كتفه وأخرج منها ملعقة خشبية وجثا على ركبتيه بجوار المريض، وبتؤدة ويد ثابتة فتح فكّي الرجل المتألم وأدخل المعلقة بين أسنانه . كانت اللحظة المناسبة، فمن شدة ضغط المريض على لسانه بأسنانه أوشك أن يختنق بدمه .

ثم أعطى الطبيبُ المرأةَ كيساً صغيراً :

- اغلي هذه الأعشاب . سنسقيه من نقيعها حين يفيق .

- ما هذا . . ؟

- إنه نبات الناردين<sup>(١)</sup>، له فوائد مهدئة و . . . . .

في هذه الأثناء فُتِحَ باب المنزل بعنف محدثاً دويماً عالياً قطع حديث ياكين ودلفَ منه شخص في العقد السادس من العمر طويل اللحية أشعث الشعر يرتدي جلباباً أسود طويلاً .

قال ياكين :

- أنت مجدداً يا حورابي! لا شك أنك تلاحقني .

تجاهل المدعو حورابي الملاطفة بازدراء، واقترب من المريض الفاقد الوعي ودار حوله وهو يتشممه كما يتشمم حيوان مفترس فريسته . ثم قال :

- حالة خطيرة . ميثوس منه .

حبست أنام تنهيدة :

- ميثوس منه ؟

---

(١) نبات الناردين معروف منذ الأزل بقدرته على تسكين الآلام .

- كفى هُراء! قال ياكين منزعجاً. كل ما في الأمر أن يد سين<sup>(١)</sup> لامسته. وسوف يبرأ عن قريب.

زمجر حورابي:

- قلت لك إنه ميت لا محالة!

- من أين لك هذا اليقين يا صديقي؟

- في طريقي إليكم شاهدت كلباً أسود.

تمالك ياكين نفسه بصعوبة عن الضحك وسأل:

- و...؟

- إنها علامة الآلهة.

- وإن كنت صادفت كلباً أبيض؟

- يشفى المريض.

- وإن كان الكلب أخضر؟

احتقن وجه حورابي وحذر الطيب بإصبعه.

- خُذ حذرك يا آسو وإلا مآلك سيئ!...

- وأنت أيها الآشيبو<sup>(٢)</sup> توقف عن هذا الهراء.

- أكرر لك أن هذا الرجل دَنَس! لقد أهان الآلهة. والشياطين

تسكنه. يجب أن أطردها. ثم تقدم خطوة إلى الأمام وأمرآنام:

- أيتها المرأة! أحضري ملحاً وبخوراً وقنديلاً و... .

لم يكمل جملته...

قاطعته صوت المريض:

- ما هذا...؟ ماذا يجري؟

---

(١) أي أصيب بنوبة صرع. كان يطلق على الأمراض «يد» هذا الإله أو تلك

الآلهة، وكان «سن» إله القمر.

(٢) طارد الأرواح الشريرة.

انحنى ياكين نحوه .

- كل شيء على ما يُرام يا تسورا . انتهى الأمر . ولكن في المستقبل يتحتم عليك اتباع وصفاتي لتفادي الانتكاس قدر الإمكان .  
ثم أخذ طارد الشياطين كشاهد إثبات وسأله ساخراً :  
- أترى؟ لم تكن الآلهة غاضبة بالقدر الذي وصفته .  
فردّ حواربي ضاماً قبضتيه :  
- لقد أندرتك . نهايتك سيئة . فما من كاهن في دلمون لا يعلم أنك زنديق .

ثم غادر المنزل ، منحني الظهر صائحاً :

- أيها المُجَدِّف !

- فليباركك إنزارك ومسكيلاك ، تمتت آنام وهي تنحني لتقيل يد الطيب ، لقد أنقذت زوجي .  
- لا ، مرضه لم يكن بهذا القدر من الخطورة .  
كان تسورا قد نهض واقترب منه .

- إذن لِمَ تحدث الآشيبو عن إهانة للآلهة؟

- تعرف حق المعرفة أننا في أرض يعتبر كثيرون فيها أن الأمراض عقاب تفرضه الآلهة على الذين يرتكبون فعلاً آثماً ، أو يقتربون عن قصد أو غير قصد أحد الممنوعات : هذه الفكرة جاءتنا من قبل جيراننا في «شوميرو»<sup>(١)</sup> . لقد تحدثنا سوياً عن ذلك من قبل . إن الآلهة منشغولون بأمور أهم بكثير من عقاب البشر . ولكن لنعدّ إلى النوبة التي ألمّت بك . ليكن في علمك أن مرضك ليس خطيراً رغم أعراضه المخيفة . لقد أعطيت زوجتك أعشاباً لتعدّ لك نقيعاً مغلياً .

---

(١) سومر الاسم القديم للبلاد الممتدة ما بين بابل والخليج العربي .

وسوف أحضر لكم أعشاباً أخرى. يجب أن تشرب من نقيعها مرتين كل يوم صباحاً ومساءً طوال حياتك. هذا العلاج لن يشفيك نهائياً، ولكنه سيؤدي إلى تباعد النوبات. هل فهمت؟  
أوماً تسورا برأسه.

- هذا ليس كل ما في الأمر.

أضف ياكين بصوت خفيض وهو يعيد الملعقة الخشبية إلى حقيبتة.

- يجب أن تمتنع عن الغوص لاصطياد اللؤلؤ!<sup>(١)</sup>

- ماذا؟ صاح تسورا. مستحيل! كيف لي أن أوفر العيش لعائتي؟ لديّ زوجة وطفلان، أنا... .

- أعلم ذلك ولكن الغوص خطير جداً عليك، أنت تخرج لأيام في عرض البحر لتغوص إلى أعماقه. تخيّل ما الذي سيحدث إذا عاودتك هذه النوبة وأنت في قاع البحر؟ لن تتمكن من النجاة ويجب... .

- أنت مخطئ يا آسو. يمكنني أن أجذب الحبل الذي يصلني بالمركب<sup>(٢)</sup> مثلما أفعل حينما ينقطع النفس وسيقوم رفاقي بسحبي إلى أعلى، فلا خطر على الإطلاق.  
هز ياكين رأسه عدة مرات.

- إذا داهمك الألم فلن تستطيع مجرد الحركة. رأيت حالتك منذ لحظات. لقد سقطت كالنخلة التي نُشِرَ جذعها. ما زلت شاباً يا

---

(١) كان اللؤلؤ يسمى عيون السمك.

(٢) الدماذاش كما كان يسمى وهو مركب كان يصنع من حزم القصب أو سُعف النخيل، مطوية بالقار والكلس. وكان الشراع يصنع من جلد الماعز.

تسورا، فلم تبلغ الخامسة والعشرين بعد، ويمكنك احترام مهنة أخرى، كن عاقلاً.

صمت تسورا للحظة ثم قال:  
- آسف. طلبك أنت غير عاقل.

ثم كرر:

- لديّ زوجة وطفلان.

تنهد الطبيب والتفت نحو آنام التي ترقرت الدموع في مقلتيها

قائلاً:

- القرار قراركم من الآن فصاعداً.

ثم توجه نحو الباب ملقياً التحية على الزوجين.

(٢)

تكاثرت المراكب في الميناء لدرجة أن أشرعتها المصنوعة من جلد الماعز غطت خط الأفق. وفي جوّ عابق بروائح العطور والبهارات كانت حشود متعددة الأعراق تروح وتجيء على امتداد الأرصفة، بينما لاح في السوق القريبة عدد كبير من الحمّالين الذين يتصبّبون عرقاً وهم يحمّلون وينزلون الزكائب والصناديق من المراكب. مشهد يوحي بأن قلب العالم المعروف آنذاك كان يخفق هنا في «آتاراك»، الموقع المفضل للتبادل التجاري، حيث اعتاد التجار القادمون من «أدينو»<sup>(١)</sup> و«أور»<sup>(٢)</sup> و«إنينكمار»<sup>(٣)</sup>، ومن أماكن أخرى، أن يلتقوا لبيع وشراء أو مبادلة منتجاتهم من الصمغ والقار والأحجار شبه الكريمة إلى العاج وخشب الورد المجلوب من ملوحة<sup>(٤)</sup>. ورغم عدم وجود مناجم نحاس في دلمون إلا أن تجار الجزيرة بسطوا سيطرتهم المطلقة على تلك التجارة فكانوا يستوردون

---

(١) عَدَنُ. واللفظ العربي مشتق من «إدينو».

(٢) حالياً «تل المُقَيَّبِر» إحدى أهم وأقدم المدن في بلاد ما بين النهرين التي أصبحت فيما بعد العراق.

(٣) مدينة جنوب لاجش.

(٤) وادي نهر «الإندوس» قلب حضارة «الهاربان».

المعدن النفيس من جبال ماكان<sup>(١)</sup> ويبيعونه في المنطقة كلها .  
وشيثاً فشيئاً ، فرضت دلمون ، البلاد التي تشرق منها الشمس  
نفسها لتصبح نقطة تلاقي التُّجَّار من كافة الجهات . إلا أن ثراء  
الجزيرة كان مردهُ أيضاً براعة سكانها الذين نجحوا على مر السنين  
في إقناع الجميع بأنهم يمتلكون على أرضهم كل السلع والمنتجات  
التي يفتقر إليها جيرانهم .

نخز ياكين بغلته بضربات خفيفة بالعصا واتجه بها نحو المقبرة ،  
وهي واحدة من المقابر العديدة المنتشرة على الجزيرة والمكوّنة من  
مئات القباب المخروطية ، حتى ليظنّ المرء أن سكان العالم كلهم  
سعدوا ليدفنوا في دلمون . ولربما كانوا يأملون أن دفنهم في جوف هذه  
الأرض المخضوضرة وسط آلاف الينابيع مانحة الحياة قد يمنحهم  
فرصة البعث من جديد . ولكن حقيقة الأمر أن تحت كل قبر من هذه  
القبور يرقد أحد سكان دلمون ، وليس بينهم أي غريب .<sup>(٢)</sup>

سار الطيب بجوار صف من المنازل البيضاء متوجهاً نحو المعبد  
المنيف المكرس لـ نابو رب أيكارا إله المعرفة والكتابة .

وكان ياكين قد سرح ذات يوم في محاولة لحصر عدد الآلهة التي  
يعبدها سكان المنطقة ، إلا أنه سرعان ما تراجع مشبهاً تلك المهمة

---

(١) عَمَانُ .

(٢) يوجد «بالبحرين» أعلى نسبة في العالم من المقابر ذات القباب . وهي  
موزعة ما بين عشرة مدافن متباينة: شمال مدينة عيسى ، جنوب مدينة  
عيسى ، سار ، الجنبية ، عالي ، بوري ، كرزكان ، مالكية ، دار كُليب ، أم  
جدر . وقد تم إثبات أنه بلغ متوسط عدد سكان الجزيرة ١٠,٠٠٠ نسمة على  
مدى خمسة قرون ، مفترضين متوسط أعمارهم ٤٠ سنة ، أن عدد الموتى  
كافي لملء جميع المقابر الموجودة على الجزيرة .



بمحاولة عدّ النجوم في السماء، إذ كلما ظن أنه أتم الحصر يظهر غريب دار أتى من حيث لا يدري ليمجد إلهاً جديداً لم يسمع به أحد من قبل.

كانت الشمس في كبد السماء، إذ كان هذا اليوم هو العشرين من شهر «سيوانو»<sup>(١)</sup> والحرارة تبسط غطاءً كثيفاً فوق الجزيرة.

مسح ياكين العرق عن جبينه بكمّه ومضى مسرعاً إلى أن وصل أمام منزل تحيط به حديقة غناء مقامة على مستويين، وتظللها سقيفة من أخشاب الأرز، فتقدم من باب الدخول وطرقة طرقة قوية، ففتح الباب وظهر على عتبه عبد شديد السُمرة انفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة:

- أحييك يا شاباكا، هل سيدك موجود؟

- نعم سيدي، وطيب لي أن أبلغكم أنه أمضى ليلة هادئة.

تفضل بالدخول.

دخل الطيب ماراً برواق صغير إلى صالة فسيحة جدرانها بيضاء سميكة تحتفظ ببرودة الجو، قائمة على صفائح من الأخشاب الحمراء والسوداء، وازدانت الواجهة الخارجية بفتحات بارزة رأسية تقتنص ضوء النهار، فيما غطت السجاجيد والحُصر أرضية القاعة. أما الأثاث فكان بسيطاً يتكون من مقاعد حجرية وجرّة كبيرة مصنوعة من خزف أصفر اللون. وازدان الحائط الخلفي برفوف تراصت عليها بعض التماثيل الصغيرة وكؤوس من النحاس، إضافة إلى خزنتين من الخشب المرصع ملاصقتين للحائط.

كان في القاعة رجل عجوز، يجلس إلى منضدة خشبية منهمكاً

(١) ما بين شهري آيار وحزيران - مايو ويونيو.

في القراءة. جبهته عريضة صلعاء تعلو وجهاً غليظاً، جافياً، يعطي الانطباع بأنه ذو شخصية قوية على الرغم من تقدمه في السن. ولو لم يلق عليه ياكين التحية لما شعر بوجوده.

- ما زلت منهمكاً في دراساتك يا شاكروماش.

ما كاد الرجل يرفع عينيه.

- صدقت يا آسو. قَرَّبْ! انظر! إنه لأمر مثير.

اقترب ياكين.

- أنظر! كرر العجوز واضعاً سبّابته على حجر صغير مستطيل

الشكل أمامه. أنظر!

قَطَب الطيب جيئه:

- ما هذا؟

- إلى اليمين، نرى امرأة مرسومة رأساً على عقب. وإن أمعنت

النظر لاحظت شيئاً يخرج من قَرَجِهَا. وهو ليس بجنين أو نبتة ولكنه

طاقة. طاقة الحياة. وفي كلمة واحدة: إنها الحياة. إلى اليسار يظهر

أشخاص برؤوس حيوانات. ولكن هناك ما هو أهم: الحروف في

المنتصف...

- فيها أوجه شبه بحروفنا.

- تماماً<sup>(١)</sup>. لكن هناك ما هو أكثر أهمية.

وترك شاكروماش الطاولة ليتجه نحو إحدى الخزنتين أسفل

الرفوف ففتحها وأخرج منها علبة صغيرة من الجلد.

---

(١) نظراً لتنوع اقتصاد دلمون، واختلاف مشارب زائريها، تداولت الجزيرة

لغات وكتابات مختلفة، من بينها الكتابة المسمارية لأهل بلاد ما بين

النهرين والاندوس.

- تعال، قال لياكين، لنجلس.

جلس الرجلان جنباً إلى جنب على إحدى الأرائك. ثم أخرج شاكروماش من العلبة بضعة رقوق جلدية قدمها للطبيب، وكانت مغطاة بذات الخط الذي لاحظاه على قطعة الحجر. كما ظهرت آثار حريق على جوانب الرقوق وبدا النص باهتاً في بعضها.

- أين وجدت هذه الرقوق؟ سأل ياكين.

- تعرف شغفي بالقصص سواء كان مصدرها حقيقة أو خيالاً.

فكلما متاح لي الفرصة لا أتردد في اقتنائها. والفرصة، لعلك تعلم، نادرة مثل ندرة عين سمكة سوداء! لقد اشتريت تلك الرقوق من تاجر جائل أصله من ملوحة.

- موضوع مثير للاهتمام. لكن ما فائدتك من هذا المشتري؟

لأننا نجهل اللغة المكتوبة عليها وإن وجدنا بها بعض جوانب التشابه مع لغتنا.

هز شاكروماش كتفيه وقال:

- لا فائدة منها . . .

إلا أنه استطرده سريعاً:

- لا فائدة حتى الآن، لكنني مصرّ على فك طلاسمها في يوم

من الأيام، ولكن دعك من هذا الأمر. . . كم مريضاً قتلت اليوم؟

- تعلم جيداً أنني لا أقتلهم، هم يموتون من الضجر مثل كل

البشر.

نهض شاكروماش مقهقهاً، وتعانق الرجلان.

- سعيد برؤيتك، كيف أصبحت؟

- أعيد عليك السؤال. لقد أخبرني شاباكا أنك أمضيت ليلة

هادئة، هل هذا صحيح؟

- فعلاً إن علاجك سحر .

ثم استدار إلى العبد الواقف عن بعد على استحياء .

- قدّم لنا قدحين من عصير التمر .

فتساءل ياكين :

- ألا ترى أن الوقت مبكر للسُّكر؟

- من دعا إلى السُّكر أيها الآسو؟ في دراستك لفن الطب ألم

تتعلم أن التمر ملك الفواكه، كما أن دلمون فاكهة الملوك؟ فالتمر يمنح القوة، ويشفي من الإمساك والأهم أنه لا يسبب السمّنة .

أنظر إليّ: (يربّت على بطنه) ما من أثر للسمّنة، ما من شيكيل<sup>(١)</sup>

من السمّنة رغم أن شاباكا يضيف إلى العصير حليب اللوز . مذاقه عجيب!

- حليب اللوز؟

- نعم - وصفة مصدرها بلاد كوش<sup>(٢)</sup> مسقط رأسه .

أشار شاكروماش إلى أريكة :

- تفضل وأخبرني عن سبب تشريفي بزيارتك؟ فكما يبدو لي من

هيتك فأنت لم تأت لمجرد الاستفسار عن أخباري .

جلس ياكين ومرّ بيده على رأسه الأجرد .

على عكس مضيفه كان الطبيب شاباً، في الثلاثين من العمر،

طويل القامة، نحيفاً، لوّحت وجهه الشمس وبدا وكأنه منحوت

بسكين .

وضع حقيبته وتنهّد قبل أن يتمم :

---

(١) وحدة قياس للوزن . حيث ٦٠ شيكيل = ٥٠٠ جرام تقريباً .

(٢) الإسم القديم لبلاد النوبة التي يطلق عليها أثيوبيا الآن (الحبشة) .

- لا أخفي عنك شيئاً، أنا قلق.

- أفصح...

- الأمر يخص إيشا زوجتي... أنا...

خنقت زفرة صوته.

- تكلم... شجعه شاكروماش، لا يصح عدم مشاركة

الأحزان.

- هي مريضة وأنا غير قادر على علاجها.

- أنت؟ غير قادر؟ أنت الآسو أكبر أطباء دلمون. لا قرين لك.

- جسم الإنسان بذات درجة تعقيد البوتقة السماوية، ومثلها كل

عضو من أعضائه يمثل كياناً متكاملًا، إلا أنه وحدة ذات أجزاء متعددة، وعلمي جد محدود.

ثم كرر:

- أنا عاجز عن علاجها.

- هل تتألم إيشا؟

- الغريب أنها لا تتألم، إلا أنها مثل الشمعة تذوب ببطء، في

سكون، يوماً بعد يوم.

وأضاف زافراً:

- إن ماتت، مُتُّ أنا أيضاً.

فصاح شاكروماش رافعاً ذراعيه إلى السماء.

- أنت تهذي...

- هذه ثاني مرة يقال لي ذلك اليوم. ولكنني لم أكن يوماً جاداً

مثل اليوم.

- وابنك؟ هل نسيت أن لك ابناً؟ إن لم تخني ذاكرتي فهو يناهز

الثلاثة عشر عاماً.

دقق يا كين الرقم .

- اثنا عشر .

- وتريد أن تيتّمه؟ لماذا لا تقذف به من الآن في بئر؟ يشهد عليّ إنكي، أبدأ لن أسامحك أبداً .

نهض شاكرو ماش فجأة وتوجه ببطء نحو النافذة المطلّة على الخليج .

هناك كانت المراكب تتمايل مع الرياح ، وبدا وجه شاكرو ماش في ضوء النهار أكثر تغضّباً ، وأكثر تعبيراً عن السنين .

عمره؟ لم يكن شاكرو ماش يتذكر كم عمره؟ مئة شاتو<sup>(١)</sup>؟ ألف؟ كان يرجح أنه ثمانون . ولكثرة الخطوب التي مرت بحياته المدينة ومن كثرة الحوادث التي عايشها كانت ذاكرته تتشوش أحياناً . وتابع للحظات بعينه مركباً رفع شراعه ثم عاد إلى مقعده .

- اسمع يا بُنيّ . . . يحق لي أن أناديك يا بُنيّ . . فأول ما وقعت عليك عيناى كنت مولوداً لتوك . وكان والدك يقدمك للعالم كمن يقدم كنزاً ثميناً . ولما فارقتنا والدك ليسبحا في مياه الموت ، كان من الطبيعي أن أحلّ محلّهما . وأصبحت أنت الابن الذي لم أرزق به . إني أعرفك حق المعرفة ، لست بالرجل الذي يستسلم . أنت شجاع ، تمالك! أرجوك .

كان العبد قد عاد ، وقدم العصير ، ثم سأل :

- هل تأمرني بشيء آخر يا سيدي؟

---

(١) سنة . وكانت السنة مقسمة إلى اثني عشر شهراً قمرياً (وارهو) متتالية . والأشهر إلى ثلاثين يوماً «أومو» . كانت الأيام تمتد لنفس الفترة الزمنية التي تمتد لها الآن ، وكانت مُقسّمة إلى اثني عشر جزءاً متساوياً .

- لا يا شابا كما أشكرك .

ثم رفع كأساً وقدمها للطيب .

- اشرب! هذا سوف يساعدك على عودة الصفاء إلى ذهنك .

شرب ياكين رشفة، ثم ارتشف جرعة أكبر واستطرد بصوت

مخنوق:

- في الحقيقة يا شاكروماش لقد تعبت من محاربة هذا العدو

الخفيّ ومع ذلك فهو قويّ الحضور .

إن بلادنا تسمى أرض الخلود . فالبحر الأعلى والبحر الأسفل لا

يلتقيان في أي مكان من العالم إلا عندنا<sup>(١)</sup>، وعلى الرغم من ذلك

فإن أهلها يموتون مثلهم مثل أهل كل البلاد الأخرى التي عرفتها .

مقابل كل مريض أنقذه عشرة يموتون .

ومقابل كل طفل أبقيه حياً هناك عشرة يفارقون الحياة . وقريباً

سيأتي الدور على أيشا محبوبتي .

لماذا؟ لماذا وجب علينا الموت؟ ما هي تلك النكبة الغريبة التي

تضرب البشر، فقراء أو أغنياء، أمراء أو عامّة .

لماذا لا نعيش إلى الأبد؟ هناك أشياء كثيرة يجب أن ننجزها،

وهناك الكثير لتتعلمه . إلا أن حياتنا تمر كلمح البصر .

هزّ شاكروماش رأسه:

- صديقي المسكين، إنك تعرض هنا أقدم أحلام البشرية:

الحياة الأبدية . لكن من يستطيع أن يتفوق على الموت؟ الآلهة فقط

---

(١) وفقاً للأسطورة فإن الإله إنكي هو من طرح الحياة في «دلمون» من خلال

تواصل المياه الأبلية التي كانت تسبح أعلى الكون: البحر المالح والبحر

العذب في هذا المكان . وقد ساد الاعتقاد طويلاً - عن خطأ - أن الأنهار

الجوفية العذبة التي تتدفق تحت البحار هي التي تضيف على اللؤلؤ رونقه .

باقون مع شاماش<sup>(١)</sup> أما أيام البشر فهي معدودة. كل أفعالهم تذهب  
أدراج الرياح. نكران الموت هو نكران الخير والشر، النهار والليل،  
وجود النجوم. نكران الموت هو نكران للحياة.  
ويسط العجوز ذراعيه:

- انظر حولك. أليست بلادنا معجزة. نحن محاطون بآراض  
قاحلة. جيراننا يحفرون التراب بأظفارهم على أمل العثور على بضع  
قطرات من الماء. أينما يقع نظرهم لا شيء غير الفراغ والحرارة. ما  
من ظلال سوى تلك التي تسدلها أجنحة الجوارح. أما هنا فالمناظر  
الطبيعية خضراء، والمياه غزيرة. كيف تظن أن هذه المعجزة صارت  
حقيقة.

تمتم ياكين:

- إنكي...

- نعم، بإرادته، أغدق إله المياه الجوفية بركاته على دلمون.  
نحن محاطون بالخمائل، والنباتات، والزهور، والأشجار المثمرة.  
هذا ما يمكننا من تقديم قرابين مهيبة باهرة للآلهة. العنب، والتمر،  
والتين تنتشر على المذابح وعلى المناضد. وقد فاتني ذكر الكمثرى  
والرمان...

- إلامَ ترمي يا شاكروماش؟

- أريد فقط أن أرفع الغشاوة عن عينيك. لا تحاول التغلب على  
الموت، آمن فقط بمعجزات الحياة. إن من خلق دلمون هو شافي  
زوجتك ولكن بشرط واحد: الإيمان. الإيمان بالمعجزات. الأمل  
هو القوة الوحيدة التي تتيح للبشر البقاء. الأمل هو التواضع

---

(١) إله الشمس.



والخشوع. التواضع والخشوع يا ياكين . هل تساءلت يوماً لماذا لا نكتب نحن الدلمونيين إلا على وسائط مآلها الزوال؟ سُعف النخيل، الخشب وما شابه ذلك.

لماذا لا نبني صروحاً شامخة أو معابد عملاقة أو جدراناً منيعة أو أبراجاً أو تماثيل مثل ما يفعله جيراننا؟ لماذا ليس لدينا جيشٌ سوى حفنة رجال يحرسون الملك؟

ثم بسط الكهل ذراعيه وكرر:

- التواضع والخشوع. تذكر أن نابو إله الكتابة، حامل لوحة الخبز وقلم المصائر، هو من يمدّ في الأعمار ويحيي الموتى. هو الوحيد المخوّل نفس الكلمات في شكل نهائي. وما نحن إلا مؤتمنون على الكتابة. أما الرغبة في ترك الآثار، والسعي لتحدي الخلود، فدلّيل على الغرور.

وارتسمت على شفّتي شاكروماش ابتسامة خفيفة:

- تعرّفت ذات يوم إلى قبطان مركب أسرّلي أنه لم يشأ يوماً أن يتعلم العوم.

سألته: «لماذا؟» هل تعرف بماذا أجاب؟ «كي لا أتحدّى

البحر!»

وأنهى العجوز كلامه قائلاً:

- لا تحاول تحدي البحر.

وضع الطيب يده على كتف صديقه ونظر إليه بحنان.

- أحبك يا شاكروماش. وأحترمك كثيراً. ولكنني لا أوّمن

بالمعجزات كما لا أوّمن بالخرافات وبطاردي الأرواح الشريرة.

حاول العجوز الاعتراض، إلا أن ياكين أوقفه بإشارة من يده.

- انتظر . دعني أتكلم . الأشييو مقتنعون أن الرجل إذا مرض فبسبب إثم اقترفه، ويرون أن المرض انتقام من الآلهة، أو أنه سيحترق أسود صادر عن ساحرة يتحتم ربطها بالحبال، أو حبسها في قفص أو إحكام الشباك حولها!

لقد علمونا أن الرجل إذا ما أصيب بالحمى الصفراء علينا أن ننقع جذر العرقسوس في الحليب، ثم نترك المزيج تحت ضوء النجوم قبل أن نضيف إليه الزيت المطهر ثم نعطيه للمريض لكي يشربه .

أمس تحديداً، أكد لي زميل أننا بالكشف على مريض إن وجدنا عموده الفقري أصفر، سيطول مرضه، وإن كان لونه أسود فسوف يموت!

لكن كيف لي أن أصدق مثل هذه السخافات؟  
هز شاكرو ماش كتفيه .

- أعلم كل ذلك . ولكن هذه معتقداتنا منذ قديم الأزل . وعندما أديت اليمين في اليوم السادس عشر من آيارو<sup>(١)</sup> كنت تعلم كل شيء عن هذه المعتقدات، كما كان والدك يعلمها .

- حقاً كنت أعلمها، ولكنني فكّرت فيها كثيراً منذ ذلك الحين . ولم أكف عن التساؤل . وقد وصلت إلى قناعة مفادها أن ما من إنسان يستطيع أن يتجه نحو الحقيقة ما دام محبوساً في منزل الماضي . فلا يبدو لي منطقياً أن نطالب المريض بالبحث عما يكون قد اقترفه ليغضب الآلهة، هل زنى مع زوجة جاره؟ وهل يستطيع في

---

(١) باللغة الأكادية يقابل شهري نيسان وآيار- أبريل ومايو . حيث يرجح أن الأكادية كانت اللغة المستعملة في «دلمون» .

خضمّ المرض وهذيانه أن يتذكر اليوم الذي خاض فيه في مياه قدرة  
أو أهان الإله ماردوك. (١)

- ومحضلة ذلك؟ سأل شاكروماش شابكاً ذراعيه على صدره،  
- لا تطالبي بالابتهاج للإلهة جولاً السيدة التي تعيد الموتى إلى  
الحياة أو لزوجها نينورتا ليسامحا أيشا. فزوجتي لن تنقذ بمعجزة!  
ساد الصمت القاعة.

انسدل غشاء سوداوي على مقلي شاكروماش.  
- أنت حر فيما تؤمن به. لكن حذار، فبعض المعتقدات قد  
تتحول إلى سجن.

---

(١) ابن «إنكي». أحد أهم الآلهة ويلقب بالإله الذي يقيس مسار الشمس، أمير  
الفيالق الكوكبية.

(٣)

قرية ماشماهيح<sup>(١)</sup>.

وقف تسورا وقدماه في الماء، عاري الصدر كأنه يتحدى الشمس. وعلى مرمى البصر بدا البحر الفيروزي هادئاً ومسالماً. إلا أن تسورا لم يكن مخدوعاً. فسنوات من الغوص علمته أن البحر خَدَّاع مليء بالمخاطر والرعب، فمنذ أكثر من شهر أخذ هو ورفاقه في الاستعداد للإبحار الكبير، إذ إن صيد اللؤلؤ لم يكن متاحاً في أي وقت من العام، إلا في شهري سيوانو وتشيريتو<sup>(٢)</sup>، حينما تدفأ مياه البحار ويظهر الحُبار على السطح، وتعلو أصوات الجراد المزعج وتنشط الرياح الشمالية الغربية<sup>(٣)</sup>. وكانت تتخلل الموسم أوقات لراحة الرجال، ولصيانة هياكل المراكب ضد تسرب المياه، أو

---

(١) هي اليوم سماهيح، شمال جزيرة المُحَرَّق، على بعد أربعة كيلومترات من العاصمة، المنامة.

(٢) ما بين شهري آيار وحزيران - مايو ويونيو وشهري أيلول وتشيرين الأول - سبتمبر وأكتوبر.

في العصر الحديث بداية موسم الصيد تسمى «الرُكْبَة» ونهايته تسمى «الكوفال».

(٣) البهير.

لإجراء الإصلاحات اللازمة، وإعادة التزود بالماء والغذاء.

وضع تسورا يده على كتف ابنه أوسر وهمس في أذنه:

- إنه يوم مهم. يوم غطستك الأولى. ما هو إحساسك؟

نظر أوسر إلى أبيه نظرة كلها فخر واعتزاز وقال:

- أحس أنني جاهز ومستعد وسعيد جداً أنك وافقت أخيراً على

أن أتعلم مهنتك.

- من قبل كنت صغير السن. وأمس أتممت الثالثة عشرة

وأصبحت رجلاً. وقد حان الوقت لأنقل إليك ما علّمني إياه أبي

وتعلمه هو عن أبيه. وهكذا على مر الأجيال سوف تكتشف أن مهنة

صائد اللؤلؤ ليست كسائر المهن. إنها شغف وحب، كما إنها تتطلب

الكثير من العرق والدموع. فبدلاً من القلب تخفق في صدرنا عين

سمكة. وإن كنا نبني السفن، ونخيظ القلاع من جلود الماعز، وننشئ

محطات تجارية، ونبحر بعيداً لنعود إلى الأرض، فمن أجل اللؤلؤ

دائماً وأبدأ. اللؤلؤ مليكنا. خدمه أسلافنا وسوف تخدمه بدورك.

أوما الفتى برأسه، فأردف أبوه.

- تذكر أيضاً أنك لن تستطيع القيام بهذا العمل لفترة طويلة.

فالغوص المتتالي يهدّ الرجال. كل من يمارسه يعاني من آلام في

أذنيه، إن لم يصبه الصمم. وعلى الرغم من عدم بقائهم تحت الماء

أكثر من المعتاد، فكثيرون هم الذين يصعدون والدماء تسيل من

أنوفهم.

السّمك النّجّار، السّمك ذو الأجنحة، السّمك المفترس، كلها

مخاطر تربص بك تحت الماء. اعلم أيضاً، أننا نحن الصيادين نظل

مديونين حتى نهاية حياتنا لينتقل الدين، بعد موتنا، ميراثاً لعوائلنا،

إنه الواقع القاسي. ولكنه واقعنا.

كان يهَمّ بمتابعة حديثه عندما بلغ مسامعه فجأة غناء غريب أشبه بالترتيل ينطلق من حنجرة رجل قصير القامة في العقد الرابع من العمر كان ينطق وعينه نصف مغمضتين كلمات الأغنية وكأنها أقوال مقدسة.

بينما أخذ رفاقه يجاوبونه، بنغم متباطئ رتيب كأنه تمايل مركب على الأمواج، مصاحبين غناءهم بصقفة من أيديهم فيما تولّى أحدهم ضبط الإيقاع ضارباً على جرة فارغة كمن يضرب على طبل<sup>(١)</sup>.

كانت الكلمات تحكي الحياة اليومية للصيادين، والمخاطر والابتهالات إلى الآلهة لتشملهم برعايتها. وكانت الأغاني ذات القدرة التي تفوق قدرة البشر تشجّع البحارة على أداء مهامهم المختلفة: عندما يجب التجديف لركود الهواء، أو رفع الشراع الكبير، أو سحب المرساة.

كانت الأناشيد خلاصة أسرة لدرجة أن السماء في علاها لم تكن لتبقى متبلّدة الشعور.

اقترب صاحب المركب من تسورا، وكان أعرج يتمايل على عصاه، يؤكد البعض أنه كان صياداً في ماضٍ غابر، وقابل، خلال إحدى غطساته، سمكة قرش اقتلعت عضلة ساقه وحتى أن مجرد بقائه على قيد الحياة بعد هذا اللقاء الدامي كان ضرباً من المعجزات.

- حانت الساعة، وليرافقك إنزاك سيد دلمون.

- أشكرك يا جودور. ولكنني أذكرك باتفاقنا: حُمْسُ ناتج البيع للرجال والعشرُ لي.

---

(١) تعرف هذه الأغاني التقليدية باسم «فجري».

- أنت شديد المراس في التفاوض. تعلم جيداً أنه بعد سداد المصاريف لن يتبقى لي الكثير وأن المشتري...  
- جودور. الكلمة وعد.

- ليكن. الخُمس. اذهبوا وعودوا أغنياء.  
أصدر تسورا أمراً، فتحرك البحارة - حوالي خمسة عشر رجلاً -  
وصعدوا على ظهر المركب. وتبعهم تسورا وأوسر.

وسرعان ما لاحظ أوسر أن جدران المركب من الداخل وأعلى سطحها مدهونة بالقطران<sup>(١)</sup>. ورأى أن ذلك يمنع تسرب المياه تماماً.  
رُفِعَ الشراع وتفرقت الأمواج أمام مقدمة المركب محدثة منمنمات من الزغب. وتتابع البحر أمام عيني أوسر المنبهر.

البحر وأسراره. ماذا يختبئ تحت السطح؟

أي وحش؟ أي كنز؟ لماذا المياه مالحة؟

من أين تهب الرياح؟

حتى أكبر البحارة سناً وخبرة لم يعرفوا الإجابة عن هذه التساؤلات.

صعد أوسر إلى سطح المركب وارتكن إلى الدرايزين.

كان لا بد من الصبر، فالرحلة ستكون طويلة ولكنه سيجد في النهاية حقول اللؤلؤ.

فجأة تذكّر كلمات الطبيب لوالده: «يجب أن تقلع عن صيد عيون السمك. فإن داهمك المرض لن تستطيع التصرف».  
وانقبض قلب أوسر.

\* \* \*

---

(١) كان يسمى «زيت الحجر».

رفع ياكين ملعقة من نقيع الزعفران إلى شفتيه، وتوقف قليلاً  
مستطعماً المذاق اللذيذ ذا الرائحة المميزة.

ثم رمق زوجته قائلاً:

- سلّمت يداك، إنها السعادة بعينها.

- الحمد لله، فقد تعبت كثيراً بحثاً عن الزعفران في السوق،

كما أن الأسعار زادت كثيراً.

مالت على ابنها ذي الاثني عشر ربيعاً سائلة:

- وأنت يا حبيبي؟ هل يعجبك؟

هز وارك كتفيه:

- نعم، لكنني أفضل السمك، والموجود منه قليل.

تنهدت إيشا:

- أنت دائم الشكوى.

تدخل ياكين في الحديث، قائلاً:

- أتعرفين أنني أستخدم الزعفران كثيراً لعلاج مرضاي الذين

يعانون من الشجن؟ محللول الزعفران يعدّل مزاجهم ويجعلهم أقل

تبرماً عند سداد أتعابي.

- خيراً، ولكن - أشارت بأصبعها إلى ابنها وارك - أذكر

الساعات الطوال التي أمضيتها في دهن لثته بأوراق الزعفران لتخفيف

آلامه.

ابتسم ياكين متفحصاً وجه امرأته بنظرة كلها حنان. فعلى الرغم

من أنهما متزوجان منذ ثلاثة عشر عاماً لم يسأم أبداً من إطالة النظر

إليها.

- كيف حالك اليوم؟ هل تناولت الدواء الذي أعددته لك؟

- أنا بخير، كُفّ عن القلق على صحتي.



- كأنك تطلبين مني أن أتوقف عن التنفس، أنت حياتي. نحن واحد، أنت أنا، وأنا أنت، هل نسيت؟ هذه هي الكلمات التي قلتها في ليلتنا الأولى. وهي محفورة في قلبي.

داعب ياكين خد زوجته بأنامله، وبدا كأن ابنهما في انتظار هذه اللحظة، إذ تدخل سائلاً:

- هل أستطيع أن أذهب إلى خارج المنزل لألعب مع كودار؟  
أوما الأب موافقاً.

فور خروجه، همست إيشا:

- لا يجب أن تخاف عليّ حبيبي. ألسنا في دلمون أرض الخلود؟

نهض ياكين متفادياً الرد على السؤال.

- تعالي، أود أن أفحصك.

- مرة أخرى! لقد فحصتني الأسبوع الماضي.

- أرجوك، تعالي.

وسحب زوجته نحو سرير من أوراق النخيل المضفر، وجعلها تتمدد ثم بدأ بتفحص أسنانها. وكانت في معظمها مغطاة ببقع بنية اللون وفيها ثقب متعددة، بينما تلاشت طبقة المينا تماماً.  
ثم رفع ثوبها وتفحص عظام الذراعين والرجلين وشعر بقلق شديد.

فقد ازداد تدهور الأطراف، حيث تقوست العظام قليلاً، وخاصة عظام القدمين، وإذا استمر هذا المرض في الانتشار فإن إيشا لن تقدر على المشي.

طلب منها أن تستلقي على بطنها ليتفحص ظهرها، وكان ما

اكتشفه أكثر مدعاة للقلق، حيث شكلت سلسلة الظهر خطأ متعرجاً كأنها ثعبان يتلوى.

ما هي تلك العلة التي تفشت، يوماً بعد يوم، في هيكل زوجته العظمي؟

ما مصدرها؟ كيف القضاء عليها؟

أسئلة باتت كلها من دون إجابة.

شيء واحد مؤكد ومحزن: حالة إيشا الصحية تمنعها من إنجاب طفل ثان.

ليس بسبب المرض، ولكن لقناعة ياكين بأن حملاً جديداً يمثل خطراً مميتاً بالنسبة لها، لذلك اتخذ كافة الاحتياطات كي لا يحدث حمل.

لكن الآلهة تعلم كم كان يحلم بأن تكون له ذرية كثيرة. وكان يري نفسه، في أحلامه محاطاً بالعديد من الأولاد والبنات.

لعله كان يعتقد أنه بذلك يضمن بقاء ذكراه. إذ في النهاية ما هو الموت؟ الموت الفعلي؟ سوى أن ينساک من أحببتهم؟

- كيف وجدتي؟ سألت المرأة.

- حالك أفضل. كذب الأسو.

ابتسمت المرأة:

- إذن يمكنك أن تأخذني بين ذراعيك دون خوف من أن

تحطمني؟

أوما موافقاً واحتضنها.

وارتجف صوته حين همس: «أجِبْكَ».

\*\*\*

كان القصر بأسواره الجيرية يبدو كتلةً داكنة ساعة الغروب . وهو مجمع يتألف من سلسلة من الأجنحة تلتف حول فناءين رئيسيين : أحدهما لاستقبال الرجال، والآخر للمعيشة الخاصة . وأجنحة المجمع الأكثر أهمية كانت لكل منها سقيفة أعلى المبنى تقيها من الحرارة .

في القاعة الرسمية كانت صفوف من المشاعل على طول الجدران تضيء المكان إضاءة حمراء باهتة . وكان خمسة من الحراس مسلحون برماح برونزية يشكلون نصف دائرة حول رأس ثور منحوت في الخشب . وكان رجل في العقد الرابع من العمر يرتدي زياً مزركشاً ، وتزيّن ذقنه لحية مدبّبة ، جالساً على مقعد عالٍ .

- رفع الرجل صوته :

- اقتربا !

تقدم رجل يتوكأ على عصا بمنتهى الخضوع ثم ركع :

- السلام عليكم ، مولاي .

وحذا حذوه الرجل الثاني ، الأصغر سناً .

- ما سبب سعادتي باستقبال مستشاري وصاحب بيت مالي معاً ؟

وجّه الملك سبّابته نحو الشخص صاحب العكّاز :

- تكلم يا نازيل .

- مولاي ، إن كُنّا التمسنا هذا اللقاء ، هاميلال وأنا ، فلكي

نحيطكم علماً بتوجّساتنا .

بدا الملك مسلماً بالقدر .

- صفاء وتوجس . قلما نهرب من إحدى هاتين الحالتين . لكن

ماذا بعد . ؟

استطرد نازيل :

- أنت ساريل ابن هاميل الكبير، ملك دلمون منذ ما يربو على

عشرين عاماً . وغداً سوف يأتي دور ابنك إليام لـ . . . . .

قاطعته الملك :

- نازيل أنت مستشاري وكنت بجواري منذ صباي وتعلم جيداً

كرهي للثرثرة .

- سامحني سيدي، سوف أحاول الإيجاز . منذ قديم الأزل

ومعاملاتنا التجارية مصدر رخاء ومجد دلمون . وأعز وأفضل عملائنا

هم أهل بلاد ما بين النهرين وملوحة . لكن، منذ وفاة حمورابي

العظيم تجتاح بلاد ما بين النهرين اضطرابات خطيرة ويبدو أن سامو

إلونا، ابن حمورابي، غير قادر على السيطرة على الأوضاع . ومع

ذلك فإن هذا الملك، وفقاً لما تناقله الزوار، يتمتع بشجاعة والده،

وإن لم تكن له ذات الهالة، وهو يحارب بجسارة تلك القوى التي

تحاول تفتيت إرثه .

- ما هي تلك القوى؟

- لا أعلم يا مولاي . لا يصلنا من هنا أو هناك إلا مقتطفات

ومعلومات متضاربة ومُلتبسة . البعض يتحدث عن غزاة ظهوروا من

داخل الأراضي، أو عن مجهول أعلن نفسه ملك بلاد البحر،

وخاصة عن جيش من الكاسو<sup>(١)</sup> لا يقف شيء في طريقه .

---

(١) لفظ أكادي، يصف «الكاسيون»، وهم شعب مجهول الأصل ظهوروا في

القرن الثامن عشر قبل العصر الحديث عند حدود بلاد ما بين النهرين وبلاد

الفرس .

سأل الملك مقطباً حاجيه :

- من هم هؤلاء الكاسو؟

- مع الأسف، لا أعلم، لعلهم بربر!

مال الملك برأسه :

- وفي رأيك، تلك المواجهات هي السبب في تدهور أحوالنا؟

- نعم يا سيدي. حين تصاب أرض النهرين بالبرد فإن دلمون

ترتجف. لكن ليس هذا كل ما في الأمر. زبائننا الآخرون أهل  
ملوحة في تناقص مطرد لأسباب غامضة، فمنذ فترة تفرغ مُدْنهم،  
وهي مدن عظيمة كما يقال، من سكانها شيئاً فشيئاً.

البعض يعزو ذلك للجفاف والبعض الآخر يعزوه للفيضانات!  
والأمر المؤكد أن وادي ملوحة يحتضر.

- على الرغم من ذلك، هناك غير هاتين المنطقتين! إننا نتاجر

أيضاً مع العديد من جيراننا الذين يبعدون عنا ذات المسافة التي  
تفصل بيننا وبين أهالي «أراضي اليد اليسرى»<sup>(١)</sup>.

هنا قرر هاميلال، صاحب بيت المال، التدخل.

- مولاي، بكل تواضع، اسمحوا لي أن أرفع إليكم بياناً عن

اقتصاد دلمون. وأستميحكم الصبر إذ قد يستغرق الأمر بعض الوقت.

من دون تعليق أشار إليه ساريل بالاستمرار.

- من الصعب، بطبيعة الحال، تقويم أحوال الأفراد المستقلين

مادياً، الذين يعيشون من إيراد أراضيهم، إذ يتوقف ذلك على مدى

اتساع ممتلكاتهم. أما هؤلاء الذين يقعون تحت إمرتكم، وأعني

بذلك الكهنة وموظفي القصر، فهم يتلقون قطعة أرض ومعاشاً عينياً

(١) سوريا ولبنان وفلسطين.

تكملهما عطاياكم المختلفة التي توزعونها بمناسبة الأعياد، مثل العيد السنوي لإلهنا أنكي، سيد المياه الجوفية. وتمثل المخصصات الغذائية مُكَمَّلاً لا غنى عنه لهؤلاء. وهي تتراوح ما بين ٢٠ و ١٢٠ سيلا<sup>(١)</sup> من البقول شهرياً. علماً بأن الحد الأدنى لسد رمق أي عامل هو ٦٠٠ سيلا في العام. أما مزارعونا فيتعين عليهم دفع رسوم ثقيلة، من ضمنها أجره الأرض الزراعية، إضافة إلى مصاريفهم الشخصية. أجره الأرض الزراعية تربو على ثلث المحصول، وأحياناً على نصف المحصول. أما المصاريف الشخصية، أي نفقة قوت يومهم، فمهما ضُغِطت إلى حدّها الأدنى تظل مورداً لمصروف كبير.

أخذ هاميلال نفساً قصيراً، ومستغلاً صمت الملك، استطرد:

- تعلمون أيضاً، يا مولاي، أن الشعب لا يأكل اللحم إلا نادراً وبصفة استثنائية بمناسبة الأعياد. ويقتات على البقول ومنتجات الألبان والجمعة وبعض التوابل والتمر طبعاً. حيث تمثل هذه الفاكهة - وهي نعمة حقيقية - السلعة الرئيسيّة. فإن أضفنا رسوم شراء البذور، وتحديث المعدات، وهي ثقيلة بدورها، وأخذنا بعين الاعتبار حالة اضطرار مزارع مفلس إلى الحصول على قرض، لا يفوتنا أن نسب الفوائد المعمول بها عالية، حيث تبلغ الثلث للقروض المقدمة في صورة شعيير و٢٠٪ للقروض النقدية. وفوق كل ذلك فمزارعونا تحت رحمة موجة جفاف أو أمطار مفاجئة. أنا . . . .

هنا قاطعه الملك:

- إلامَ ترمي يا هاميلال؟ فعلى حدّ علمي ما من أحد يشتكي الجوع أو العطش في دلمون! هل تلمّح إلى أن شعبي يعيش في بؤس؟

(١) وحدة قياس للحبوب، تمثل (بشكل تقريبي) ٠,٨٤ لتر.

- أوه لا! إن كنت استعرضت كل ذلك فالهدف هو تأكيد مخاوف مستشارك. لأننا إذا ما فقدنا عملاءنا يصبح اقتصادنا مهدداً بالانهيار.

- لن يحدث ذلك! هل تناسيتم أننا نمتلك ثروة لا تقدر بـشمن: لآلئنا. فهي كنز فريد لا مثيل لها، ولا يستطيع أحد أن يستغني عنها. حتى لو تقاتل جيراننا، لا يهم!

إن مات ملك، سيحل محله ملك آخر. وأياً من يكن سوف يرغب أن تزدان زوجاته بعقودنا ولا تنسيا ثروة أخرى من ثرواتنا: زيت الحجرنا علينا تطوير استثمارها، فبدونها لا تبطين للمراكب ولا عزل لحوائط وأسقف المنازل.

لكن لنعد إلى هذا اللغز، فهو وحده مصدر قلقي. لماذا يغادر أهالي ملحوة مدنهم؟ هل صب الإله نامتار<sup>(١)</sup> جام غضبه عليهم؟  
- لا أعلم يا مولاي. فالمعلومات الوحيدة المتوفرة لدينا تصلنا عادةً من التجار والمسافرين الذين يمرون بناً.

شيك الملك يديه بعصية واستغرق في التفكير برهة:

- الأمر خطير يا نازيل فهذه لعنة، قد تصيبنا نحن أيضاً فتكون نهاية دلمون. التهديد أشد خطورة من تدهور اقتصادنا؟ لا بد من أن نقف على حقيقة الأمر.

- كيف؟

- يجب أن نوفد أحد أطبائنا. أفضلهم بالطبع، وأكثرهم خبرة. انتفض نازيل.

---

(١) إله الأوبئة. من المفترض أن الألهة كانوا مصدر نشر الأمراض، خاصة «رجال»، إله جهنم.

- مولاي! هل ترون ذلك فعلاً؟ إنها سَفْرَةٌ طويلة تستغرق أياماً وأياماً، ليالي وليالي! لن يقبل أحد القيام بمهمة على هذا القدر من الخطورة. ولا ننس أنه في حالة إصابة ملوحة بلعنة فإن موفدنا معرّض للإصابة بها هو أيضاً.

- ما قيمة مصير رجل واحد مقارنة بمصير الجميع؟ وعلاوة على ذلك فالأسوأ ليس مؤكداً. قد لا يكون السبب مرضاً أو وباءً، بل سبب آخر يدفع أهل ملوحة لترك مدنهم. علينا أن نقف على حقيقة الأمر لتطمئن قلوبنا. آتني بهذا الآسويا نازيل. وعدّه بمكافأة على قدر جهده.

ارتسم الإحباط على وجه المستشار. فما من طبيب في دلمون قادر على القيام بهذه المهمة سوى واحد، وهو الطبيب الذي أنقذ حياة زوجته. وهو لا يتصور أن يُبعث به إلى موت محقق، وهو المآل المؤكد لرحلة كهذه.

تقوّست كتفا نازيل وحيّاً الملك ثم انسحب متراجعاً وانسحب معه صاحب بيت المال. وبدا كما لو أن السماء سقطت على رأسه.



## المنامة، البحرين

بعد مرور ٣٠٠٠ عام، شباط / فبراير عام ١٨٧٨

ضم الرائد إدوارد دوران طرفي معطفه على صدره وأجال نظره حول الشاطئ. لم يكن يتصور أن هذه المنطقة من الخليج العربي على هذه الدرجة من برودة الجو. لقد كلفته الحكومة البريطانية بالتوجه إلى البحرين منذ فترة ليست بالقليلة لإعداد تقرير حول الآثار الموجودة فيها وحول البحرين بشكل عام. وهي البلاد التي تحكمها، منذ عام ١٧٨٣، عائلة آل خليفة التي نشأت في نجد، في قلب الجزيرة العربية (الهدار)، ثم انتقلت إلى قطر حيث أقامت مدينة الزيارة على الساحل الغربي لشبه الجزيرة، ثم توسعت حدودها إلى باقي جزر الأرخبيل.

سيكون التقرير المكلف دوران بإعداده أول تقرير من نوعه يُعد منذ إيفاد ضابط إغريقي إلى الأرخبيل بتكليف من الإسكندر الأكبر. وكان رؤساء دوران قد أطلقوا عليه لقب «المساعد الأول الملحق للطاقم السياسي لجلالة الملكة فيكتوريا». وكانت عبارة «الطاقم السياسي» أحد تلك المصطلحات المتحفظة المستخدمة عند الإنجليز لتفادي استخدام كلمة «جاسوس». وفي ذلك الحين كانت السلطات البريطانية قلقة جداً من فكرة أن البحرين (التي أصبحت محمية تتبع

التاج البريطاني منذ نصف قرن تقريباً) قد تجتاحها الجيوش العثمانية. وما جاء الرائد دوران إلى الجزيرة إلا استكمالاً لمهمة الميجور سيدني سميث والميجور شارلي جرانت اللذين حظيا أيضاً بلقب «عضو الطاقم السياسي».

لو كُلف أي شخص آخر، غير إدوارد، بالمهمة نفسها لكان تضرع إلى الله - بكل قوته - أن يزول التهديد التركي في أسرع وقت، كي يتمكن من العودة إلى داره في إنجلترا قبل حلول موسم الصيف بما يحمله من حرارة شديدة. إلا أن الرائد دوران، على عكس كل التوقعات، لم يبد أي تسرع، لا بل بدا سعيداً! رغم أن نشأته تتعارض كلياً مع هذا البلد، ومع المشرق كله. فهو نجل السير هنري دوران- الذي خدم في أفغانستان - أما هو فقد تعلم في باث ثم في مدرسة ربتون وغيلفورد والتحق بفيلق المشاة ٩٦ في عام ١٨٦٥، لينقل عام ١٨٦٨ إلى الإدارة السياسية المعنية. وفي عام ١٨٧٠ رُقّي إلى منصب «السكرتير الخاص لحاكم البنجاب» لتكون حياته - منذ ذلك الحين - مكرّسة لخدمة إنجلترا. وبين عامي ١٨٧١ و١٨٧٧ شغل عدة مراكز في راجبوتانا والهند الوسطى قبل أن يخدم لفترة قصيرة، في عام ١٨٧٧ بصفة «عميل سياسي بالإنبابة» في مانپور وفي العام التالي، خدم في بوشهر. حيث قام رئيسه العقيد روس بنقله إلى البحرين للتحري.

حقاً، من شأن ذلك كله أن يدفعه إلى النفور من هذا البلد، إلا أن شغفه به كان يتزايد يوماً بعد يوم. وقد بهرته بوجه خاص هذه الآلاف من القباب التي كانت تخرجه من حالة الضجر التي تسيطر عليه. إذ وجب الاعتراف أن الضجر سيد الموقف على هذه الجزيرة. وكان قد لاحظ مع مرور الوقت أن تلك القباب، في مواقع شتى، ما

هي إلا مدافن شكّلت تجمعات من الدوائر المتراسة من الأصغر إلى الأكبر. فهل من الجائز - نظراً لعددتها - أن تحتوي رفات من عاشوا على تلك الجزيرة من آلاف السنين؟ وهذا أمر بعيد الاحتمال في رأي دوران. لسبب بسيط: إذ لم يظهر حتى اليوم أي أثر لبيوت قديمة، ما يحملنا على أن نفترض أن الأفراد المدفونين هنا قد آتوا بهم من أماكن أخرى خارج الجزيرة.

ولم لا، ألم تكن سمعة هذه البقعة أنها مباركة من الآلهة؟ ألم تُحك بشأنها العديد من الأساطير؟ يمكننا بالتأكيد أن نتصور أن أهالي منطقة الخليج العربي اختاروا هذه الجزيرة ليدفنوا فيها رفات ذويهم. مجمل القول إن البحرين لا يمكن أن تكون سوى «جزيرة الموتى». فمنذ أسبوع فضّ دوران قبراً قريباً من قرية العالي، ولم يكن ذلك أول قبر يكتشفه، إذ كان يتبع ذات الأسلوب في فضّ تلك القبور: لقد أطلق عدداً من قذائف المدفعية على القبة التي تحتوي القبر! وهو أسلوب سيعتبره أي عالم آثار يحترم تخصصه رجساً مطلقاً! إلا أن دوران لم يكن عالم آثار!

كان القبر عبارة عن بناء صغير من الأحجار، جدرانها جيرية، وسقفه وأرضيته مدهونان بخليط من الجير والرمل والرماد والماء، الأرجح أنها خُلِطت في الموقع ذاته. وغرفة الدفن مغطاة ببلاطتين من الحجر. وعمق القبر لا يزيد عن متر ونصف. وكانت نوعية الملاط المستخدم لعزل القبر ممتازة إلا أن دوران فوجئ بوجود قنوات صغيرة محفورة عند قدمي الميت. ما الغرض من تلك القنوات؟ لإراقة الخمر؟ للقرابين؟

بالنظر إلى بقايا من قطع القماش، ورؤوس الدبابيس، وعقد، وسوار، وخاتم من الفضة يلبس في إصبع القدم، أيقن دوران أنه قبر

امرأة تم إلباسها وتزيينها قبل الدفن. كانت الجثة راقدة على جنبها، رأسها نحو الشمال، ورجلاها مثنيتان على بطنها، ويدها حول وجهها. أي في وضع الجنين. لكن الأغرب وجود بقايا هيكل ثعبان مودعة في طاسة من الخزف.

لم يكن دوران، على الإطلاق، متخصصاً في علم الأساطير. إلا أنه حفظ خلال متابعته دروس الدين أن العهد القديم يذكر ثعباناً كان يعيش بالقرب من شجرة الحياة ومن شجرة معرفة الخير والشرّ وكلتاهاما توجدان في جنة عدن. فهل من رابط بين تلك القصة وبقايا الثعبان الذي وجده داخل القبر؟ وإن وجد رابط فما هو؟

مالت الشمس نحو الغروب، وازدادت برودة الجو. نهض دوران وتقدم في الطريق المؤدي إلى سكن «العملاء». وبعد ثلاثين دقيقة كان جالساً إلى مكتبه. ألقى نظرة على الرسم الذي يمثل القبة التي تفقدها منذ أسبوع. وإذ بدت عليه علامات الرضى أمسك ريشته وغمسها في المخبرة واستأنف كتابة التقرير الذي كان قد بدأ صياغته منذ اليوم التالي لوصوله:

هذه الجزر التي وصفها أحد السكان منذ بضعة أيام بأنها «من الفضة وبحرها من اللؤلؤ» تقع عند الدرجة ٢٦ من خطوط العرض، وما بين الدرجتين ٥٠ و ٥١ من خطوط الطول. وهي محاطة بمياه ضحلة مما يضيف إلى جمال المكان. فبالنظر إلى البحر في الصباح، تحت السماء الصافية، والنسمة المنعشة التي تهب من الشمال الغربي، يجد المرء أن الطبيعة، ذلك المعين الذي لا ينضب من المعجزات، بعد استهلاكها لكافة أطياف الخُصرة من جعبة ألوانها، تضيء على المنظر زخات من اللون القرمزي.

الماء صافٍ جداً لدرجة تتيح رؤية الشُعَب المرجانية في الأعماق. ينابيع من المياه العذبة تنفجر قرب مدخل الميناء، وفي بقاع عدة من الساحل. هذه البحار، على الرغم من جمالها المؤكد، خطيرة! إذ لم يتم - حتى اليوم - تحديد أعماقها.

في الواقع، وفيما عدا شمال وشمال شرق الجزيرة، تكاد أعماق البحر تكون مجهولة، ويجمع ربابنة السفن على أن الإبحار فيها لا يخلو من مخاطر.

ونظراً لكونها محاطة في ثلاثة من أضلعها بالقارة ذاتها على مسافة تتراوح ما بين ٣٠ و ٤٠ ميلاً، يصعب حماية البحرين حال تعرضها لهجوم مباغت. وتحسباً لذلك يمكننا إقامة نقطة حراسة أعلى «جبل الدخان» الذي يقع في منتصف الجزيرة، حيث تتاح الرؤية في جميع الاتجاهات دون عائق. ولعل خريطة ميناء البحرين المرفقة، رغم كونها لا تدّعي إتاحة طوبوغرافيا دقيقة، أدق من الخريطة الصغيرة المعدة بمعرفة السيد تومسون والتي أعطت أهمية مبالغ فيها للصخور المجاورة.

في الجنوب والشرق، الطبيعة جرداء، بينما في الغرب، تمتد بمحاذاة الشاطئ مجموعات من أشجار النخيل على طول المنطقة الوسطى من الساحل الشمالي. والأشجار تروى بكثافة حيث تنعم البحرين بمياه عذبة وفيرة تتلألأ بأطياف خضراء. وأهم عيون الماء التي حصرتها: جسر التي تقع على الطريق الذي يصل بين المنامة وبلاد القديم. ثم أم الشعوم على بعد ميل شرق المنامة ثم أبو غيضان في بلاد القديم وعذارى التي تروي مجموعات النخيل على مدى كيلومترات طويلة بواسطة قناة قديمة.

يظن البعض أن هذه المياه مصدرها ترعة جوفية. وهو أمر وارد.

وهي على أي حال، تروي كيلومترات عدة من أشجار النخيل بواسطة ترعة عرضها عشرة أقدام وعمقها قدمان. العين ذاتها تبلغ ما بين ٣٠ و ٣٥ قدماً عمقاً وترتفع المياه فيها من القاع إلى السطح دافعة إلى أعلى أيّ غطاس يقترب من القاع. تتوزع المياه عبر شبكة من القنوات من خلال تيار طبيعي مستمر. أما مياه الآبار فهي تُسحب إلى أعلى بواسطة دلو مربوط في بكرة رافعة.

أما الثروة الحيوانية على الجزيرة فتتكوّن أساساً من جمال وخيول وأبقار وحمير. نشأت غالبية الجمال في الجزيرة العربية لتربّي هنا. والحمير البيضاء تتميز بشهرة عريضة، وإن كان عددها قليلاً، مما يزيد الإقبال عليها. (١)

من بين الحيوانات البرية أذكر الغزال والأرانب البرية والنمس، وهو فصيلة من إبن عرس. للأرانب البرية ذات حجم الأرانب الإنجليزية وذات الأعين الجاحظة وهي سهلة الترويض. وقد اقتنيت إثنين منها أنقذتهما من مخالبا صقر، وبلغتا من الألفة درجة جعلتهما تمرحان في غرفتي بعد أربعة أيام فقط متقافزة هنا وهناك لمتابعة تحركاتي. ولا تهرع لمخبأ إلا عند وصول شخص غريب.

وضع دوران ريشته. فقد ألحّ عليه سؤال فجأة: سكان هذه البقاع، هل كانوا يعتبرون الموت انتقالاً إلى شيء آخر؟ أم أنه نهاية مطلقة للحياة؟

---

(١) مقتطفات من تقرير حول «جزر البحرين والآثار» إعداد الرائد «ا.ل. دوران»، في أغسطس - آب ١٨٧٩.

(٤)

دلمون، مكان ما في عُرض البحر.

كان الشراع مطويًا والمرساة مُلقاة، والمركب ساكنًا فوق المياه الراكدة.

وكان البحّارة جميعاً في مواقعهم وسط صمت مهيب. فهم يصطادون منذ أسبوعين إلا أن الحصيد مؤسفة، مما زاد من مخاوف تسورا.

كان مالك المركب - كالعادة - قد صرف لهم دفعة مقدمة، مستقطعة من نفقات المأكل وصيانة المركب، وكان الريح المحقق من بيع اللؤلؤ نادراً ما يغطي تلك الدفعات المقدمة، فما من غطّاس يُحصّل خلال عام مكسباً يسمح له بتغطية دينه. وكان يترتب على ذلك استمرار الدين وتفاقمه مدى الحياة، لينتقل إلى ذرية الصياد، ويجبر على أن يبقى في خدمة الرّبّان نفسه الذي هو بدوره مدين للتاجر صاحب المعاملة. وفي غياب أي محاسبة دقيقة فما من غطّاس يعرف قدر مديونيته حقاً.

انتزع صوت أوسر أباه من أفكاره المُخِطة.

- أبي، هل نعلم من أين تأتي اللّالي؟

رد تسورا مبتسماً:

- الشمس تُخِصَّبُ المحارات المنفتحة.

- الشمس؟

- تماماً.

- ولون اللآلئ؟

- السماء أيضاً تحدّد لونها. فهي غامقة أو رائقة وفقاً لحالة

الطقس. فإن قامت زوبعة تغلق المحارة جزأها فزعاً.

ولتعلم أيضاً أن اللآلئ تعيش في جماعة تحت إمرة ملكة، شأنها

شأن النحل. فإن تمكّنا من القبض على الملكة يستسلم رعاياها

بالتبعية.

جحظت عينا أوسر مشدوهاً.

- لستَ جاداً يا أبي!

- لا يا بنيّ لست جاداً. هذه بالطبع خُرافات، فالبعض يؤكد أن

اللؤلؤ يتكون إن تسَلَّت حَبَّة رمل داخل المحارة فتقوم هذه بمقاومة

هذا الجسم الغريب، وذلك بإفراز مادة تصدر ومضات متقزحة اللون

وتتراكم تلك المادة في طبقات متتالية حول حبة الرمل لتصبح لؤلؤة

في نهاية الأمر. وتشكل الطبيعة قوامها فتكون مستديرة أو شبه

مستديرة، أو مفلطحة أو على شاكلة قطرة ماء، ويُعمَل من أجملها

وأكثرها كمالاً أحلى العقود.

والمحار أصناف عديدة تقتصر عندنا على صنفين: الصغير

والعريض والمحارات العريضة أقل إنتاجاً من الصغيرة لأسباب

أجملها.

وقد أقسم لي تاجر وافد من بلاد ما بين النهرين أنه شاهد أميرة



ترتدي عقداً مكوّناً من ثلاثة أطواق في كل طوق اثنتان وسبعون لؤلؤة.

- اثنتان وسبعون!

- نعم، لكنني أظن أنه كان يغالي كما يفعل التجار عادة.

قدّم تسورا لابنه مِلْقَطاً من العاج وواقياً للأصابع.

- هل أنت مستعد؟

أوماً أوسر وأمسك بالمِلْقَط ووضعه على أنفه ليسد منخريه وأدخل يديه في واقِي الأصابع.

كذلك فعل والده.

- الآن خُذ هذا الجِرَاب الجلدي لتضع فيه المحارات التي ستجنيها. وأضاف: سوف أربط حجراً في كاحلك ليساعدك على أن تغوص إلى القاع.

بعد قيامه بهذه المهمة، أخذ تسورا حبلاً وعقده حول خصر ابنه.

قال أوسر معترضاً:

- لكنني أجيد السباحة.

- أنا أيضاً. لكن هذا من دواعي الحذر. ففي حالة إحساسك بالتعب ورغبتك في الصعود إلى السطح ما عليك إلا أن تجذب الحبل الذي يمسك بطرفه الآخر أحد زملائنا الذي سيقوم بجذبك لأعلى على الفور.

هنا تذكر أوسر الحوار الذي دار بين والده والطبيب:

« - يمكنني دائماً أن أسحب الحبل الذي يربطني بسطح المركب مثلما أفعل حين يضيق نفسي. وسيقوم زملائي بسحبي إلى أعلى. لا خطر على الإطلاق.

هز ياكين رأسه وقال :

- إن داهمك الألم لن تتمكن من الحركة».

سأل أوسر في خجل :

- أبي، هل أنت واثق من رغبتك في الغوص؟

- أكثر من أي يوم مضى. فهذا يوم مشهود. للمرة الأولى

أغطس بصحبة ابني. لماذا هذا السؤال؟

- الآسو قال إن... .

قهقه تسورا :

- حينما تكبر سوف تعلم أن الطبيب ما هو إلا شخص يسليك

بينما تقوم الطبيعة بشفائك. تعال!

قبض تسورا على يد ابنه واقترب من حافة المركب.

- هيا بنا!

- هيا بنا! ردد أوسر بابتسامة عريضة.

وبفعل الحجرين المثبتين في كاحليهما اختفى تسورا وأوسر

تحت الموج محدثين سحابة من الزبد.

\* \* \*

آتارك

كان نازيل وياكين جالسين على سجادتين صغيرتين في الفناء

المستطيل خلف المنزل وكانت فوقهما سحب ثقيلة تندفع في اتجاه

الجنوب منبثة بقدوم عاصفة.

للمرة الثانية، تناول مستشار الملك شطيرة بالسكر قدمتها له

زوجة ياكين .

- تباركت يداك إيشا، مذاقها رائع قال محنياً رأسه

وأضاف مُشهداً الطيب:

- يا لها من طباحة ماهرة!

اكتفى ياكين بهز رأسه بينما عادت إيشا إلى المطبخ، وهو كناية عن موقد نصف دائري على مستوى الأرض.

استطرد نازيل:

- أراك متردداً. لكن عليك أن تفكر في العطايا التي سيمنحها لك الملك عند عودتك. فجميع من يخدمونه بأمانة يشهدون بكرمه.

- لا أشك في ذلك. لكن ما تطلبه مني غير ممكن التنفيذ. فضلاً عن أن الأمر عبارة عن أوكولتو.

- أوكولتو؟<sup>(١)</sup>

- مرض ينتقل من شخص إلى آخر.

اتسعت عينا نازيل

- ما هذا؟ سحراً! ماذا تستطيع أن تفعل لإيقافه؟

- إتباع الطريقة ذاتها بحذافيرها التي طبقها أحد زملائي في أور على إحدى المريضات، وكانت فيما يبدو امرأة لعبواً، تقيم علاقات مشينة مع صنف الرجال، فضلاً عن استقبال العديد من النساء في منزلها. وقد نهى زميلي الجميع عن الشرب من الكأس التي كانت تشرب منها تلك المرأة، وعن الجلوس على مقعدها والنوم في سريرها. وطوال فترة مرضها أُجبرت على البقاء وحيدة في دارها<sup>(٢)</sup>.

---

(١) منذ هذا التاريخ، عرف أطباء ما بين النهرين، وبالضرورة أطباء دلمون، الأوبئة، وكان لزاماً عليهم إخطار الملك بانتشارها.

(٢) ١. «فينيه»، «الأطباء بمملكة ماري»، دليل معهد علم فقه اللغة التاريخ الشرقي والسلافي، بروكسل، ١٥، ١٩٥٤-١٩٥٧.

صمت ياكين برهة ثم أضاف :

- ولذلك، فإن كان غالبية سكان ملوحة ضحايا أو كولتو فلن

أقدر على علاجهم بأي شكل كان.

- أفهم تماماً. لكن مولانا لا ينتظر منك علاجهم. لكنه يريد أن

يقف على حقيقة الوضع فإن كان كما تصف يمكننا قطع أي تعامل أو احتكاك مع أهل هذا البلد.

- هُراء! كيف لكم التفرقة بين مسافرين أو تجار قادمين من بلاد

ما بين النهرين والقادمين من جهة أخرى؟

بدت الحيرة على وجه مستشار الملك.

- على أي حال، أكمل ياكين، لن أذهب.

- بسبب بُعد المسافة، على ما أعتقد. لقد ناقشت الأمر مع

الملك، واستقيت معلومات عن البحارة. من هنا إلى «جبل

الموتى»<sup>(١)</sup> مع رياح مواتية، تستغرق الرحلة حوالي أسبوعين أو ثلاثة

و...

- الأمر لا يتعلق بمدة الرحلة، بل بزوجتي.

نظر إليه نازيل مستفهماً.

- نعم. حالة إيشا الصحية لا تسمح لي بتركها مدة بهذا الطول.

عليك إذن أن تبلغ جلالته اعتذارى. ودلمون لا تفتقر إلى الأطباء،

سوف تجدون حتماً شخصاً آخر.

بدت أمارات الأسى على وجه المستشار.

- ما من طبيب يطاول خبرتك. في كل مكان، على كل لسان،

لا يتردد إلا اسمك. ثم إنني، إكراماً لما قمت به ذات يوم لإنقاذ

---

(١) اسم اشترك فيه، على ما يبدو، ميناء «لوثال» ومدينة «مونهيچو-دارو».

زوجتي، أدين لك بالصرامة. لقد تواصلت مع كل أطباء شبه الجزيرة، وعددهم كما تعرف قليل، وقابلني الجميع بالرفض.  
- آسف يا نازيل، الأمر محسوم.

رفع مستشار الملك ذراعيه إلى السماء وألقى بهما إلى أسفل.  
- كما تشاء. سوف أبلغ مليكننا بالأمر. لكنني أحذرك، لمصلحتك. تذكر القول المأثور: «إن قال لك ملك إن الليل قد خَيَّم ظهراً فلا خيار لديك سوى عد النجوم».

- هل عليّ أن آخذ قولك على محل التهديد؟

- أبدأ! فأنا مدين لك.

ثم أردف متمماً:

- أما مليكننا فلا.

حين غادر المنزل، خيّم السكون على الفناء إلا من زقزقة العصافير وصوت أولى قطرات المطر المتساقطة على النخيل.

(٥)

حَيِّمَ الليل على منازل سيرام<sup>(١)</sup>. توقف المطر وبعد انقشاع السحب نشر القمر نوره اللبني على معبد شامخ قائم عند تقاطع شارعين ومجموعتين من المنازل. وكانت الحجارة المصنوعة من الجير الخام تضيء على الجميع بياضاً شبيحياً. وعن يسار ويمين المدخل الوحيد تماثلان لحيوانين منحوتين في الجير كأنهما مكلّفان بالحراسة، تخالهما كبشين لولا أن لكل منهما لحية طويلة رفيعة.

تبدّت في الضوء الخافت مناظير لتقديم القرابين منصوبة فوق الرمال لاستقبال تلك العطايا، أو في المناسبات الخاصة لعرض تماثيل الآلهة أمام الجمهور. في مؤخرة المبنى، يُستخدم المكان الأبعد عن المدخل لحفظ الأواني والخزائن التي تودع فيها الأغذية والمواد الأخرى اللازمة للطقوس. بينما خُصّصت غرفة صغيرة، في الزاوية الغربية من المبنى، لممتلكات الكهنة النفيسة. ومن بعيد يسمع الخريز الخفيف لتبع قريب يغذي البئر المقدسة<sup>(٢)</sup>.

---

(١) حالياً، بلدة «سار» التي تقع شرق العاصمة «المنامة».

(٢) «عين أم سبور». لا يتبقى منها إلا آثار.

فجأة، اخترق صوت الصمت المخيم، إذ ظهر فارس<sup>(١)</sup> من خلف تل قريب، قطع المسافة التي تفصله عن المعبد مسرعاً وترجلاً. وبعد أن ألقى نظرة حوله، ليتأكد من أن لا أحد يتبعه، توجه نحو المدخل وعبر مسلكاً منحدرأ ثم توقف أمام باب يعلوه ثعبانان متشابكان. وطرق طرقة، ثم طرفتين وهمس:

- هذا أنا حورابي.

انفرج الباب عن شخص قصير ممتلئ في يده شعلة وقد علق سيفاً من البرونز بحزامه.

- أهلاً بك، حورابي، أنت الأخير، تفضل.

دلف طارد الشياطين من خلال دَرَج ضيق لا يسمح بتقابل شخصين عليه. تقدمه الرجل الذي استقبله. ونزلا الدرجات تباعاً إلى أن وصلا إلى مدخل قاعة مربعة في وسطها حوض ممتلئ بالماء حوله مباخر تنشر روائح عطرة وعلى طول الأرضية المغطاة بحُصر من بوص تهتز أضواء خافتة تنبعث من عدد من المشاعل. والجدران مطلية بدهان أرجواني. وإلى يمين الحوض مجموعة من المقاعد الحجرية يُصعد إليها بدرجتين صغيرتين. والسقف مكوّن من طبقات من سُعف النخيل موضوعة على عوارض خشبية مثبتة بطلاء طيني تسندها ثلاثة أعمدة رئيسية. وفي القاعة مذبحان متماثلان، أحدهما

---

(١) أكاد أسمع صديقي بيير لومبار، أكثر المتخصصين في تاريخ «دلمون»، وهو يعترض صائحاً: «ما من أثر لخليل في دلمون في هذه الحقبة التاريخية!» وهو طبعاً على حق. إذ للغرابة، لم يكتشف أحد، حتى يومنا هذا، أي هيكل عظمي لهذا الحيوان الرشيق. إلا أن الروائي لم يستطع أن يقاوم: فوصول الشخصية في الرواية ممتطية حصاناً، أوقع وأكثر رومانسية من ظهوره على ظهر حمار! أستمحك عذراً يا بيير.

أمام العمود المركزي للقاعة والآخر أمام الحائط الجنوبي فوق مصطبة من الحجر. مع جزء خلفي على شكل هلال، وهما مخصصان لعبادة إنزك وزوجته الإلهة مسكيلاك.

اصطفَ أمام المذبحين ستة أشخاص يبدو أنهم يحرسونهما. وأكثر ما يثير الانتباه في مظهرهم لباسهم المغطى بحراشف السمك<sup>(١)</sup>.

اصطف حورابي إلى جوار رفاقه، بينما وقف من أدخله في إحدى زوايا القاعة.

فجأة استدار أحد الأشخاص تجاه طارد الشياطين وانحنى أمامه احتراماً داعياً إياه للتحدث.

استهل حورابي كلامه قائلاً:

- إخواني، تذكروا، عندما لم يكن للأرض أو السماء أسماء بعد، ولم تكن المراعي أو المزارع قد ظهرت. ولم يكن أي إله قد تجلّى.

عندما كان الأبسو - بحر المياه العذبة - وتيامات - بحر المياه المالحة - عنصراً واحداً، خلق إنكي الحكماء السبعة. مستودعاً فيهم الأسرار الدفينة، ونحن السبعة، المجتمعين هذا المساء، خلفاؤهم. تذكروا يا إخواني!

صمت برهة، ثم مدّ إبهامه نحو التمثال:

- إلهتنا، تيامات، أمنا، وأم كافة المخلوقات، تطالب بالثأر. فبعد أن اغتيلت غدرًا، وخانها الجميع، تنتظر منا إعادة الفوضى، فمن الفوضى وحدها يولد التجديد!

---

(١) اللباس على شكل السمك كان مقصوداً على الكهنة طاردي الأرواح الشريرة.



دلمون يجب أن تختفي، لتولد دلمون من جديد.

ما كاد يتفوّه بهذه الكلمات حتى أمسك الرجل الواقف في الخلف مطرقة من خشب وطرق بها، ثلاث مرات، محارة كبيرة الحجم، ثم دلف إلى ممر وعاد بعد قليل ممسكاً بحبل مربوط بعنق خروف.

وما إن وصل أمام المذبح حتى هتف:

- يا تيامات، إلهة السماء والأرض، أمّ كل الكائنات، سيّدة المياه المالحة!

تيامات، يا تيامات، لقد جئنا إليك! أبعدنا عن المصيبة التي ألّمت بك، احميننا منها لنباركك يوماً بعد يوم، ولنحیی ذكراك بالمديح في عالم جديد على صورتك.

ثم قدّم السيف لهورابي وأرقد الضحية على جنبها الأيسر مثبتاً إياها بقوة على الأرض. وضع طارد الشياطين قدمه على رقبة الخروف وبضربة واحدة على القصبة الهوائية والمريء تدفق الدم. لكن، فيما يبدو، لم يكن القطع عميقاً بالقدر الكافي إذ انتابت الضحية، التي ما زالت على قيد الحياة، تقلصات عنيفة بينما أصابت أطرافها رجفات مفرّعة.

هنا، كرر حورابي ضربه مؤكداً هذه المرة على غرس سيفه إلى أقصى درجة حتى ارتطم بعظمة العنق.

بعد أن اطمأن إلى نفوق الخروف، انحنى وغمس كفيه في الدماء الغزيرة.

ثم قام رفاقه بذات الطقس. وتوجه السبعة نحو الحوض حيث تجرّدوا من ملابسهم ونزلوا في المياه حتى الوسط. ثم غطّسوا أكفهم تحت السطح. وأحنوا رؤوسهم في خشوع وصمت مهيب.

أخيراً، بعد فترة طالت، خرج حورابي أولاً من الحوض وتبعه الستة الآخرون.

جلسوا حول الحوض للحظات ثم استطرد حورابي:

- أنا دعوتكم لهذا الاجتماع يا إخواني بسبب الأحداث الراهنة. فالوقت طال، واستمرأ بعض البشر تداول أقوال كافرة الغرض منها تقويض سلطتنا، سلطة طاردي الشياطين، أي سلطتكم، سلطتنا.

إلا أننا نعلم جميعاً أن طقوس طرد الشياطين هي السبيل الوحيد لإنقاذ وإبراء المرضى، لأن المرض ما هو إلا وصمة معنوية تلوّث من يصاب بها.

ويعود للبارو - المُنَجِّم - أن يحدد مصدر الإصابة، إلا أن الأثيبو هو المخوّل طرد الشيطان المقيم عن طريق ترديد الابتهالات السحرية التي لا يعرفها غيره، والتي انتقلت إلينا منذ غابر الأزمان من الحكماء السبعة. نحن فقط القادرون على تهدئة غضب الآلهة، وحين يسخر بعض الأطباء، مثل ذلك الشخص اللعين ياكين، من قدراتنا فهم يهينون الآلهة.

انتشرت مهمة مؤيدة في القاعة مصحوبة بإيماءات من الرؤوس.

- ماذا تقترح يا حورابي؟ تسأل صوت من الحضور.

أغمض طارد الشياطين عينيه وتكلم بتؤدة:

- الصبر، عن قريب سوف يحين الوقت المناسب. على غرار تيامات إلهتنا الحبيبة، سوف نخلق ثعابين جبّارة بأسنان حادة، وبفكوك لا ترحم، أجسامها ممتلئة بالسموم، وحيوانات مفترسة، وكلاباً مسعورة، وعفاريت كالأعاصير، وسوف نضع أحد أبنائنا على رأس هذا الجيش الرهيب وتصبح دلمون في خبر كان.

وكرر:

- سوف يحين الوقت.

مرر الرجل الذي أحضر الخروف يده على جبينه المتصبب

عرقاً:

- مستحيل، قال في سرّه، هذا الحورايي مجنون!

\*\*\*

آتارك بعد عشرة أيام

- شاكروماش؟ ذهلت إيشا حينما رأت الرجل العجوز على

عتبتها. أنت، هنا؟

- هل تظنين أنني غير قادر على القيام بهذا العمل البطولي؟ قطع

المسافة بين منزلينا؟ تذكرني أن الجدي كلما كبر اشتد قرنه!

ردت إيشا ضاحكة.

- وقرنك لا مثيل له! أهلاً بك! لعلك أتيت للقاء زوجي؟

- تماماً. أرجو أن يكون هنا. عندي له مفاجأة.

أضاف، ملوحاً بجراب من الجلد في يده:

- معي ما يُقوّضُ قناعاته.

- حظاً سعيداً! هو مع ابنه، اتبع الموسيقى...

- الموسيقى؟

قالت إيشا مازحة:

- لعلّ القرن ضعيف السمع؟

عندئذ انتبه شاكروماش إلى بعض الجمل الموسيقية المتصاعدة

من الفناء خلف المنزل فتوجه نحو مصدر الصوت وهو يعرج فوجد

واراك وبين شفثيه آلة تشبه الناي، ويجتهد لأداء نغم.

انحنى العجوز نحو الفتى قائلاً:

- سامحني يا بني لمقاطعتك. لكنني في حاجة لمحادثة أبيك.

هل تتركنا لبرهة؟

مطّ الولد شفّتيه، وألقى نظرة على ياكين كما لو أنه يلتبس

موافقته.

- اتركنا يا بُنيّ. فلن نطيل.

حالما انفرد الرجلان اندفع شاكروماش قائلاً:

- يا صديقي! أنصت إليّ جيداً. هل تذكر الأوراق القديمة التي

أطلعتك عليها منذ فترة والكتابة المدوّنة عليها؟

- تماماً، بل أذكر أنني لفتّ نظرك لكونها قريبة شيئاً ما من

خطنا.

- بالضبط، تصوّر أنني تمكنت من فك طلاسمها.

واستدرك في عُجالة: جزئياً على الأقل.

- وبعد؟

- أنا على ثقة أنه نص مكتوب بلغة أهالي جبل الموتى في

ملوحة.

فتح شاكروماش الجراب الممسك به في يده، وأخرج منه ورقة

نخيل تسودها كلمات متراسة.

- أنصت إليّ جيداً. ولا تلتفت إلى ما فيها من ثغرات. ركّز

على المعنى العام فقط.

أخذ نفساً قصيراً وقرأ:

« بفقده [ . . . ] لم يفقد صديقاً فقط [ . . . ] بل أيقن بحقيقة لا

نقاش فيها: الإنسان ليس خالداً [ . . . ] الإنسان فانٍ [ . . . ] تلك

حقيقة كان جلجامش يعرفها مع ذلك [ . . . ] لعله لم يكن يريد أن

يؤمن بها [...] كانت ترعبه. الآن سمع صوتاً يهتف به: «سوف تموت. سوف تموت يا جلعامش».

توقف شاكروماش.

- النص التالي غير مقروء، ولكن إليك فقرة أخرى:  
«لماذا أتيت إلى هنا؟ عمّ تبحث؟ [...]»  
أفصح جلعامش:

الخلود. أريد أن أفق على سر الخلود. يجب أن أجد [...] من نجا من طوفان الأمواج، [...] الذي دمّر البشرية، [...] لماذا يجب أن نموت؟ لماذا لا نعيش إلى الأبد؟ ما هذا القدر الغامض الذي يضرب البشر؟ أريد أن أفق على سر الحياة والموت».

سكت العجوز مرة أخرى قبل أن يوضح:

«هنا أيضاً تغيب عني بقية النص. لكنني ترجمت ما يلي: «الآن [...]، أفصح لي كيف تمكنت من اختراق سر الحياة الأبدية [...]»: أجب: يا جلعامش، تأمل جيداً في كلماتي لأنني سأكشف لك المستور. نعم، سوف أطلعك على سر الآلهة، سر الخلود».

أنهى شاكروماش قراءته بابتسامة عريضة:

- هذا ما كان! ما رأيك؟

- ماذا تريدني أن أقول لك؟ فعلى أقل تقدير النص غامض.

ارتسمت علامات الحزن على وجه العجوز:

- هذا كل ما لديك من تعليق؟ ثم تلا:

- لماذا يجب أن نموت؟ لماذا لا نعيش إلى الأبد؟ إنها كلماتك يا صديقي! كلماتك أنت! الكلمات نفسها التي نطق بها جلعامش.

ظل ياكين صامتاً لبرهة قبل أن يعترف:

- ليكن. لكن ما هو غرضك؟ أنا...

- ومن هو جلجامش هذا؟

كان ذلك صوت إيشا مقاطعاً. عبرت الفناء، ووضعت على

منضدة صغيرة ثلاثة أكواب قدمت أحدها للرجل العجوز:

- لعلك تحتسي قدحاً من الجعة يا شاكروماش؟

- أهي مخمّرة جيداً؟ فأنا أريد أن أحتفظ بكامل رأسي قبالة

زوجك.

- اطمئن. لم أترك الشعير منقوعاً إلا بضعة أيام.

قدمت للعجوز كوباً من الفخار يعلوه ثقب برزت منه قسبة رفيعة

ثم قدمت كوباً آخر لزوجها مكررة استفسارها:

- إذن؟ من هو هذا الجلجامش؟

- أحد أصدقاء شاكروماش، قال ياكين مازحاً.

أطلق الرجل العجوز صرخة استياء.

- لا أعرف كيف احتملت هذا الشخص كل تلك السنين!

ردت إيشا على الفور:

- دون شك، لعزوفه، على عكس سائر الرجال، عن أن يكون

سيدي، بل زوج ورب عائلة فقط.

- إليك يا عزيزي رداً مفحماً، قال ياكين، ولكن فلنكن جادّين،

فسر لي اهتمامك بهذا النص، ألأني تفوّت بذات الكلمات؟ فما هي

إلا صدقة.

- هل تتكرمان بإحاطتي علماً بما تتحدّثان؟ قالت إيشا بصبر

نافذ.

- بكل تأكيد، رد شاكروماش.

في كلمتين شرح العجوز اكتشافه للمرأة: التطابق الغريب بين

كلمات المخطوطة التي فككت رموزها وتلك التي تفوّه بها ياكين.

وكرر: «لماذا يجب أن نموت؟ لماذا لا نعيش إلى الأبد؟ ما هذا القدر الغامض الذي يضرب البشر؟» أليس هذا محيراً؟  
- حقاً، أكدت إيشا. لكن من هو مؤلف هذا النص؟ متى كُتِب؟  
وأعود للسؤال: من هو جليجامش؟  
- لا أعلم، اعترف شاكروماش، ولكنني مازلت في بداية بحثي،  
وسوف أهندي إلى حقيقة الأمر.  
هنا قرر ياكين التدخل:

- دونما رغبة في إحباطك، يبدو لي أن غالبية البشر، عبر الأجيال، قد طرحوا نفس التساؤلات: لماذا الموت؟ لماذا لسنا مخلدين؟ عن نفسي لا أرى شيئاً خارقاً للعادة فيما تقدم.  
- وهذه الفقرة، قال شاكروماش. ألا تدعوك للتأمل؟  
قرأ:

«يا جليجامش أنصت جيداً لكلماتي، لأنني سأكشف المستور.  
سوف أكشف لك سر الآلهة. سر الخلود.»  
هنا ردّت إيشا:

- هذه الكلمات تتوجّه إلي، دون شك.  
حملت عباراتها نبرة حزن لم تفت ياكين. فقد غاب عنه للحظات أن زوجته يمكن أن تضطرب لسماع موضوع حوارهما.  
لذلك حوّل دقة الحوار بلهجة اتسمت بالاستخفاف:  
- هل لاحظتم عدد المراكب التي يكتظ بها الميناء اليوم؟ كأن كل تجار العالم تواعدوا للقاء في دلمون.  
وإذ همّ شاكروماش بالردّة استأنف ياكين حديثه بسرعة مسدداً نظرة ذات مغزى إلى صديقه:

أخرى .

أضاف مستديراً نحو إيشا :

- هلا قَدَمْتِ لنا المزيد؟

أومات المرأة وحملت الكويين وفور انسحابها قال ياكين بصوت

خفيض :

- لتغيّر الموضوع رجاءً. إيشا مريضة كما قلت لك . ولا أظن

أن حديث الموت مناسب في حضرتها .

شحب وجه العجوز، وانبرى معتذراً :

- سامحني يا صديقي، سامحني . . . . . يا لغبائي!

- انس الموضوع . طمئنني بالأخرى . . . كيف أصبحت حالتك

الصحية؟ هل زال قلقك؟ هل عاودت النوم؟

- النوم! هذا أمر آخر. لم أستطع أبداً ترويضه، ومع السنين

أواسي نفسي بالقول إن الساعات التي لا أنام خلالها هي ساعات

أقتنصها من الحياة. إن نمت لم تحتسب من عمري. من جانب

آخر . . .

إلا أنه لم يتمكن من إتمام جملته إذ صدرت صرخة رعب من

داخل المنزل. صرخة حيوان جريح .

صرخة أخرى، ثم صوت إيشا مذعورة :

- وارك . . . وارك . . . خطفوا وارك خطفوا ابنتنا .



(٦)

كان باب المنزل مفتوحاً على مصراعيه، ولا أثر لإيشا .  
قبل قليل رآها ياكين عن بُعد تجري بكل قوتها على غير هدى  
وتصرخ باسم ابنها .  
- ماذا جرى؟ صاح شاكروماش وكان قد وصل إلى الباب  
بدوره .

لم يرد عليه الطبيب - هل كان قد سمع السؤال؟ - وانطلق في  
ملاحظة زوجته مبعداً بعنف، كل من اعترض طريقه من المارة. فرغم  
حرارة الجو الجائمة على المدينة كان الشارع يَعْجُجُ بالمارة. وخلال  
جريه كان ياكين يلمح إيشا، على هُزالها، من آن لآخر، إلا أنه لا  
يستطيع أن يحدّد الشخص أو الأشخاص الذين تطاردهم.

رأى إيشا تسرع داخل سوق آتاراك الكبير حيث ابتلعها الزحام .  
وفي ما يشبه الضباب كان يتراءى له الحانوت يلي الحانوت، والباعة  
يختلطون بالرواد، والخزافون ببائعي السمك، والنساء بالرجال،  
والأطفال في سعيهم للحصول على القليل من قطع النقود مع  
الشحاذين . كأن شعب دلمون بكامله قد اجتمع في هذه اللحظة، في  
هذا المكان .

فجأة، وحين صار على مقربةٍ من سوق النخاسة، رأى إيشا تنهار

على الطريق كأنما أصابها سهم من السماء. صاح باسمها بأعلى  
صوته كالمجنون، وأسقط أرضاً بائع فاكهة كان يعترض طريقه، غير  
مكثرث باعتراضاته، وارتدى على ركبتيه إلى جوار زوجته مردداً:  
- إيشا، إيشا.

ظلت عيناها مغمضتين، وبدا أنها لم تسمعه.  
جس نبضها بحركة تلقائية، كاد يفقد صوابه. تحسّس خدها. لم  
تبد حراكاً.

- ماء! أحضروا لي ماء، صاح في الجمع حوله.  
كالمعجزة، اخترقت الجَمْعُ امرأة وناولته إبريقاً ودون تردد سكب  
ياكين بعض السائل على وجه إيشا.

فطرف جفناها، وانفرجت شفتاها.

- أنتِ بخير، همس ياكين. أنتِ بخير.

تمتت بكلمات غير مفهومة، وحاولت أن تنهض، إلا أن  
الحركة انتزعت منها صرخة ألم.

- إني أتألم!

أشارت بضعف إلى كاحلها الأيمن وسألت:

- ماذا عن وارك! هل وجدته؟

هز ياكين رأسه نائفاً.

- ماذا حدث؟

- رجلان... لعلهما تسللا إلى المنزل خلال نقاشنا مع  
شاكروماش.

تلاحقت أنفاسها، ثم أخذت نفساً قصيراً قبل أن تُكْمِلَ:

- بينما كنت أسكب الجعة سمعت وارك يصيح، ولما هرعت

إلى الخارج، لمحتُ أحد الرجلين يأخذ الصغير بين ذراعيه، وينطلق به على حصانه.

أجهشت بالبكاء، غير قادرة على متابعة حديثها.

أنهضها ياكين، في صمت تام، واتجه بها نحو منزلهما.

آذت الأصوات المنبعثة من السوق أذنيه، كما لم تؤذهما من قبل، وملأت روائح البهارات أنفه كما لم يهاجمه عبقها من قبل! ومن حيث لا يدري، تعالت أصوات ممتزجة بصياح الدلائين وجلبة عربات النقل. كل هذه الضوضاء المألوفة التي يحفظها عن ظهر قلب أصبحت فجأة لا تطاق. فهي تجسد الحياة واللامبالاة، بينما يدلّف ياكين من أبواب التعاسة.

كان شاكروماش لا يزال في مكانه عندما تخطى ياكين عتبة المنزل. وقف متغير الوجه من التوجس، ولم يدل بأي تعليق بينما كان ياكين يريح إيشا على السرير.

كانت الإصابة أسوأ مما تخيل. فالعظمة التي تتحكم في حركة الكاحل، إلى أعلى وأسفل، يمتنّ أو يسرة، كانت مكسورة. وكان موضع الإصابة منتفخاً مزرقاً.

- يجب أن نجد طفلاً. همست إيشا في زفير متهدج.

- نعم. كوني هادئة. سوف نعيده، لكن ينبغي علاجك أولاً.

حاولت الاعتراض إلا أنه ما عاد يسمعها. توجه إلى الفناء، حيث يقع المطبخ فأحضر بيضة من سلّة، وأوراق صفصاف هرسها جيداً. ثم فصل بياض البيضة عن صفارها ثم سكبها في إناء صغير من الخزف، ثم أضاف مادة دهنية وخلط الكل مع أوراق الصفصاف. وبعد أن تحول الخليط إلى عجين كثيف إلى حد ما فردته على ورق نخيل وعاد إلى جوار إيشا.

قال لها وهو يجثو إلى جوارها :

- تشجعي . فقد يؤلمك هذا .

حين وضع المرهم على موضع الإصابة زَمَّت إيشا شفيتها كي لا تصرخ ، وانهمرت الدموع على خديها وإن لم يمكن الجزم هل كانت دموع ألم أم دموع ياس .

- سوف تتحسن حالتك ، طمأنها ياكين ، سوف يتضاءل الألم ، لكن يتحتم عليك أن تبقي ممددة لبعض الوقت . على أية حال ، حتى لو أردت ، لن تتمكني من الضغط على كاحلك .  
- ابتنا . . . همست إيشا .

بقي الطبيب صامتاً ، إذ تركته الأحداث دون حولٍ أو قوة ، يتلاطم في رأسه سيل لانهاثي من الأسئلة .

مَنْ؟ لماذا؟ مَنْ مِمَّنْ حوله قادر على اقتراف فعلَةٍ بهذه الحقارة؟ فكر للحظة أن يكون الفاعل مريضاً غاضباً ، وسرعان ما استبعد هذا الاحتمال .

قد يغضب أحدهم على الطبيب ، يسبّه ، يرفض سداد أتعابه (وكلها منغصات مرّ بها ياكين من قبل) لكن أن يعتدي على عائلته! بل على طفله!

وفي حال غير طبيعته ، أحس بيد شاكروماش على كتفه .  
- يا صديقي ، لا تقنط . سوف نجد هؤلاء المجرمين (١) ونقبض عليهم .

كل ما عليك هو أن تمعن التفكير . هل لديك أعداء؟  
لم يرد ياكين ، بل توجه نحو المطبخ وعاد ، بعد برهة ، وفي يده كوب ، ثم انحنى على إيشا قائلاً :  
- اشربي . سيفيدك هذا النقيع .

اعترضت. إلا أنه وضع ذراعه تحت كتفي زوجته ورفعها قليلاً.  
- اشربي، يا حبيبتي، أرجوك. ثقي بي. اشربي.  
فتحت شفثتيها، وانصاعت، ثم ارتمت على السرير منهكة  
القوى.

بقي ياكين بجوارها ممسكاً بيدها. وحين تأكد أنها نامت نهض  
وغادر الغرفة.

بدأ الغروب يهبط على الميناء وهامت خطوط وردية في السماء،  
وتباين الهدوء السائد مع العاصفة التي هبّت في قلب الطيب. أشعل  
قنديل زيت وهوى إلى الأرض وجهه بين كفيه.

- لا أفهم! هل لديك تفسير يا شاكروماش؟

- توجد عادةً أربعة دوافع لاختطاف شخص ما:

طلب فدية، الانتقام، العقاب، - وهما نفس الشيء - أو على  
أمل تحقيق ربح من بيع المختطف في سوق العبيد. حيث، كما  
تعلم، يفوق سعر عبد جيّد سعر ثور.

- ليس في دلمون! صاح ياكين معترضاً. أوكد لك. فيما عدا  
عدد قليل نسبياً من العبيد المكلفين بأعمال الزراعة أو في ورش  
النسيج، فإن معظم العمال هنا أحرار. ويقدر ما أجد منفعة في  
اختطاف امرأة جميلة أو رجل قوي البنية لا أرى فائدة من اختطاف  
طفل في الثالثة عشرة من عمره.

- أنفق معك في هذا التحليل. ولا يتبقى إذن سوى طلب الفدية  
أو الانتقام أو العقاب.

لكنك، على حدّ علمي، لست ثرياً يا صديقي. اللهم إلا إذا كان  
لديك ثروة تخفيها. وبالتالي لا يتبقى سوى سببين: الانتقام أو  
العقاب.

من يكرهك لدرجة فرض عذاب كهذا عليك؟  
نهض ياكين وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً محاولاً فك طلاسم  
هذه المعضلة. فجأة تسمر في مكانه وصاح:  
- إن قال لك ملك عند الظهر أن الليل قد خيم، فلا خيار لديك  
سوى أن تتأمل النجوم!

تفحصه شاكروماش مشدوهاً.

- عمّ تتكلم يا صديقي؟

بكلمات قليلة حكى له الطبيب عن الزيارة التي قام بها حديثاً  
مستشار الملك وطلب هذا الأخير: السفر إلى ملوحة. وهو الطلب  
الذي رفض الانصياع له.  
واستطرد:

- سألت نازيل إذا كان عليّ أن اعتبر تلك الكلمات تهديداً  
صريحاً، فأجاب «أبداً! فأنا مدين لك... أما مليكنا فلا!»  
- وتستنتج من ذلك أن الملك أمر باختطاف وارك! لا أكتمك  
أني لا أصدق ذلك. فأنا أعرف ملكنا إلى حد ما. وعلى الرغم من  
أن الرجال قد يبطنون غير ما يظهرون، إلا أن ساريل أقنعني أنه رجل  
طيب. ويكفي أن نلاحظ كيف يحكم دلمون. قد يبدو صارماً أحياناً  
إلا أنه ليس قاسياً.

- - لكن، لا أرى أي متهم غيره. نازيل أبلغني مدى إصرار  
الملك على قيامي بتلك الرحلة، والتهديد الذي أطلقه كان شديد  
الوضوح. لا، يجب أن أتأكد من الأمر.

- على أنك لن تذهب إلى القصر ل...

تفادى ياكين الرد على السؤال قائلاً:

- هل لي أن أطلب منك خدمة يا شاكروماش؟ إبقَ بجوار إيشا حتى عودتي. لن أتاخر.  
ودون انتظار الرد، استدار وترك الغرفة.

\*\*\*

مكان ما في أعالي البحار.

فجأة طفا الصيادون من قاع البحر، وبدوا بالمشابك حول مناخيرهم وكأنهم طيور غواصة تخرج فريستها من قاع البحر. مثقلين بالحجار المربوطة في كواحلهم، مُلتفين بالحبال حول خواصرهم عادوا إلى ضوء النهار، حيث طفت رؤوسهم كأنها عوامات، ولكنها ليست ذات الرؤوس التي غطست، فقد اكتست وجوههم بغشاوة من الوجوم. قساماتهم متوترة تتلوى من الألم كأنهم زادوا في العمر. كلهم، إلا أوسر الذي تراقصت الشمس وبريق السماء في نظرته. وارتفع نشيد سعيد الثبرات من حناجر عدة، بينما تم رفعه هو ووالده وسائر الصيادين إلى سطح المركب حيث أمسك الإيقاع رجل راح يضرب على علبة من الخزف.

- إذن، يا بنيّ، ما هو إحساسك؟

- إحساسي أنني رجل يا أبي. فقد تمكنت من البقاء لمدة

«بيرو»!<sup>(١)</sup>

---

(١) أقل من دقيقة قليلاً. إذ ليس من المستبعد أن يكون الدلمونيون قد استعملوا نفس النظام الستيني (المبني حول العدد ٦٠) الذي طبقه جيرانهم في بلاد ما بين النهرين، الذين اقتبسوه من السومريين. لذا نحن مدينون لهم بتقسيم الدائرة، والسماء، إلى ٣٦٠ درجة فضلاً عن تقسيم الساعة إلى ٦٠ دقيقة، والدقيقة إلى ٦٠ ثانية.

- وأنا بدوري فخور بك . نحن نغطس منذ أيام عدة إلا أنني لم أرك قط بهذه الدرجة من الانتعاش .

أخيراً ستكون مثلي ومثل جدك وجد جدك؛ صائد لؤلؤ .  
ومن يعلم؟ لعلك، يوماً ما، تُروّض البحار، وتتحدى العواصف وتعود بالمجد والفخر إلى دلمون . ولكن تذكّر دائماً: مهما عملت فأعمله جيداً، وخاصة اعمله بِبُئِل .

وفي زخم من الحنان ضم تسورا ابنه بين ذراعيه واحتفظ به برهة في حضنه .

بينما بدأ الصيادون حولهم يفتحون المحارات بواسطة السكاكين ويفرزونها .

استطرد تسورا شارحاً:

- لما كان عدد كبير منهم لا يملك أموالاً كافية لشرائها فإنهم يشترون اللآلئ الأقل قيمة على أمل اكتشاف المعجزة التي ستعود عليهم بثروة كبيرة .

- بمعنى؟

- إن اللؤلؤ يتكون من طبقات دائرية من الصدف، واللؤلؤة ذات الحجم المعقول، التي لا تلمع والمحدّبة يمكن حكّ محيطها الخارجي برفق، والنتيجة قد تكون مفاجئة طيبة أو محبطة وفقاً لتكوين اللؤلؤة من الصدف الصافي أو من التراب . إنها مسألة حظ، فقد يجري تداول لآلئ بين أياد عديدة دون أن يتم اكتشاف معدنها .

إضافة إلى ذلك، فكما لاحظت تُصطاد أجمل اللآلئ في المياه الضحلة التي عمقها لا يزيد عن أربع أذرع<sup>(١)</sup> . بينما يظن البعض أن

---

(١) تقريباً ٥ أمتار .



لمعانها يتوقف على عمق المياه التي تعيش فيها المحارات . ثم إن أفضل قطعان المحار هي التي يكسوها رمل أبيض رفيع وتقع في مياه صافية حيث تكون المحارات البيضاء هي الأكثر مردوداً .

هز أوسر رأسه باهتمام واضح . كَم من الأشياء تعلمها منذ إبحارهم من أرخبيل دلمون معلومات جديدة حرص على حفظها عن ظهر قلب : أعلى سلّم هذه التجارة يقبع كبار التجار ، الذين يمولون الطاقم والقبطان ، يشترون اللآلئ منه أو من تجار أصغر ، أقل شأنًا ، ليعيدوا بيعها للتجار الأجانب الذين يأتون خصيصاً إلى دلمون لهذا الغرض .

من دون هؤلاء المشتريين يصعب على قبطان المركب توفير المبالغ اللازمة لشراء المؤن اللازمة لفترة الصيد وصرف مقدمات الرواتب التي غالباً ما تكون عبارة عن منتجات زراعية للصيادين . وهناك شخص آخر يكاد يضارع القبطان في أهميته ، لخبرته الكبيرة في تحديد مواقع قطعان المحار ، ولكونه المسؤول عن إعادة المراكب التي يصيها عطب إلى الميناء .

وهناك «الساحبون» القائمون على سحب الغطاسين إلى سطح البحر حال شعورهم بضيق النَّفَس ، وهم في الغالب غطاسون اضطهرهم التقدم في السن ، أو سبب آخر ، للعودة عن الغطس . ورغم المكانة والاحترام اللذين يحظى بهما «الساحبون» إلا أن كل رجل في دلمون يصبو لأن يكون «غطاساً» ، صائد لؤلؤ . حتى العبيد منهم ، إذا أثبتوا كفاءتهم في الغوص لا يتردد أصحاب المراكب في ضمهم إلى الطاقم لتزيد قيمتهم السوقية بالتبعية .

فضلاً عما تقدم ، أيقن أوسر أن العمى أو الصمم - وهما حاستان ظن أنهما أساسيتان للصيد - لا يعتبران عائقاً للقيام بالمهمة .

بزغت الشمس في الأفق وعلى مدى البصر اكتسى بحر الشروق  
بصبغات وردية وبنفسجية. اتكأ أوسر على مقدمة المركب وأمعن  
النظر في المشهد الذي أمامه بعين مُفكِّرة متذكراً كلمات أبيه:  
«لعلك، في يوم ما، تروّض البحار، وتتحدى العواصف وتعود  
بالمجد والفخار إلى دلمون».

هذه الكلمات كانت تخاطب وجدانه. إذ لم يكن يعرف شيئاً عن  
البلاد المحيطة بهم. فقد وُلِدَ في دلمون ولم يعرف غيرها. لكن لا  
شك في أن العالم واسع جداً ويمتد إلى آفاق بعيدة عن الأرخبيل.  
في الليل، وهو ممدد على سطح المركب، حاول أوسر عد النجوم  
التي تمر أعلى الأشرعة. فلم ينجح بطبيعة الحال. إلا أن هذه  
الآلاف من الأضواء الصغيرة بهرته، وتصوّر للحظة أن مهمتها  
الوحيدة إضاءة طريق المركب. ومما زاد من انبهاره، تلالؤ هذه  
الآلاف من النقاط الذهبية على سطح البحر والتي تخفت في بطن  
الأمواج قبل أن تغوص لثموت في الأعماق.

في إحدى الليالي، لاحظ الأب، وكان ممدداً بجواره، أن أوسر  
مستيقظ يحملق في السماء. فنهض، متكئاً على مرفقه، وسأله بصوت  
خفيض:

- بِمَ تحلم؟

- لا شيء بالتحديد.

- في هذه الحالة، الأفضل ألا تحلم على الإطلاق على أن

تحلم بقدر غير كافٍ.

- فجأة سأله تسورا:

- هل تعلم أن الرجل مثل المركب؟

إزاء دهشة أوسر، أوضح أبوه:

- أحياناً يقرر الهواء مسار المراكب، أو ربما البحر، أو أي ظاهرة أخرى تجبرها على تغيير وجهتها، أو مواجهة العاصفة أو الاختباء في خليج صغير. ما من شيء ثابت في الحياة. لذلك يجب التحلي بالتواضع والتدبير. سوف تتعلم ذلك عندما تكبر. وعاد إلى نومه.

\*\*\*

أمسك ياكين بـ نازيل من طرف سترته. وهزه هزاً عنيفاً وكأنه جذع شجرة رفيع.

في حركة يائسة، حاول المستشار - الذي فقد أبهته - إبعاد الطيب بعصاه، ولكن دون جدوى.

- توقف - قال متلعثماً - أرجوك!

- ابني! أعد لي ابني! صاح ياكين. تاركاً الرجل يفقد توازنه ويقع على الأرض.

- أقسم لك أنني لا أعرف عمّ تتحدث. أقسم!

- لا تحاول المراوغة يا نازيل. إن رجالك هم الذين خطفوا وارك، بعد أن أوهمتني أنك ممتن ومدين لي مقابل ما قدمت

لزوجتك من عناية وعلاج! كم أنا مجنون!

متكئاً على عصاه، تحامل مستشار الملك على نفسه ونهض على قدميه. كان وجهه شاحباً، وجسمه منحنيماً قاب قوسين أو أدنى من الإغماء.

- اسمعني يا ياكين، أنا لم أبلغ رفضك لجلالته، لم أجرؤا عليك أن تصدقني فهو لا يعلم.

- ماذا تقول؟

- الحقيقة، لا شيء سوى الحقيقة. خشيت من ردة فعله  
وبسذاجة تصوّرت أنك قد تعود عن قرارك إذا تحسّنت صحة  
زوجتك. الملك لا يعلم شيئاً!

أمعن ياكين النظر في محدثه لفترة واهتز يقينه إزاء الصدق البادي  
على ملامحه. فخبرته الطويلة بالطب والبشر أكسبته حاسة الملاحظة،  
وقدرة لا بأس بها على تبيّن الخطأ من الصواب. لا، نازيل ليس  
بكاذب!

ضم قبضته وقال:

- حسن. مَنْ إذن؟ مَنْ وراء اختطاف ابني؟ من يكرهني إلى هذا  
الحد؟

ارتعى نازيل على مقعده، فبدا للحظة وكأنه رجل عجوز جداً.  
- بماذا تريد أن أجابك؟ رجل بلا أعداء هو رجل بلا قيمة!  
وأنت أبعد ما تكون عن ذلك. . . إذن لعله زميل غيران؟  
- مستحيل!

- ففكر. الغيرة نار تحرق وتجفف الروح وتضرب أحياناً أعقل  
الرجال.

فجأة سيطر إحساس بالضجر على الطبيب. أين يبحث؟ عمّن؟  
واسترجع بذاكرته قائمة من زملاء المهنة الذين يعرفهم.  
لم يكن الجميع يحبونه، بل على العكس.

رغم ذلك، ورغم أن غالبيتهم يمارسون الطب وفقاً للمعتقدات  
القديمة ويأخذون عليه خرقه للقواعد المستقرة، لم يكن يتصور أن  
أحدهم قادر على القيام بهذا العمل الدنيء.

- لا أرى شيئاً. لا أحد.

وبعد فترة صمت بدت لا نهائية، قال نازيل:

- اترك لي فسحة من الوقت. أنا قريب من القصر، ومن بين معارفي أفراد - صمت برهة باحثاً عن النعت الصحيح - سيئو السمعة وهناك آذان منتشرة هنا وهناك في هذا الوَسَط . لعل أحدهم يعرف شيئاً. وكرر:

- اترك لي فسحة من الوقت.

حدّق ياكين في المستشار وهو شارد.

في الخارج، بدت أشعة الشمس الحارقة ساطعة بإصرار بين أشجار النخيل وأفرع الصبّار.

تنهد الطيب قائلاً:

- وهل لي خيار؟

## البحرين

بعد ٢٠٠٠ عام، حزيران / يونيو عام ١٨٧٩

دون التجاسر على إبداء رأي لست مؤهلاً لإبدائه، أودّ لفت النظر إلى البحث الذي أعدّه السيد راولنسون عن أصول سكان البحرين الأوائل. فوفقاً لهذا البحث، كان الأرخبيل في قديم الأزل مسكوناً من جماعة من الفينيقيين الذين قاموا ببناء المعابد التي شاهدناها في الجزيرة. ويعتمد السيد راولنسون على كتابات بحّار إغريقي يدعى أندروستين<sup>(١)</sup> لدعم فرضيته.

ولأنني مهتم بهذه النظرية، اغتنمت بطبيعة الحال كل الفرص

---

(١) من مواليد جزيرة «ثاسوس» في اليونان. كان أحد المستكشفين الذين تم إيفادهم إلى المنطقة في حدود ٣٢٤ أو ٣٢٣ قبل الميلاد، تحضيراً لغزو شبه الجزيرة العربية من قبل «الإسكندر الأكبر». ورغم أن النسخة الأصلية من مخطوطته الشهيرة حول «وصف البحرين» لم تعد موجودة في يومنا هذا، إلا أنها معروفة جيداً، إذ أعيد إكتشافها بعد مئات السنين من كتابتها، حيث قام بالتعليق عليها علماء المذهب الطبيعي الأشهر في العصور الكلاسيكية القديمة وقد وصف فيها «أندروستين» بدقة شديدة تلك الجزيرة الفيحاء وما عليها من عيون مياه فياضة، متحدثاً عن أشجار المانجروف المحيطة بالعديد من شواطئ الجزيرة، وعن أشجار النخيل المتناثرة، فضلاً عن مزارع الخضروات و«أشجار الصوف» التي نخالها مزارع قطن.

لاستجواب الأهالي على أمل أن أجد بينهم شخصاً في عُمرٍ يتيح له تأكيد أو نفي تلك الفرضية . ولكن للأسف دون جدوى .  
إلا أنني مستمر في التنقيب محاولاً اكتشاف السرّ، وسأوافيكم بتقرير حول نتائج بحثي ليقوم آخرون، أكثر مني خبرة، بتقويم مدى صحة استنتاجاتي .

- أنا جاهز سيادة الرائد دوران .  
انتشل الصوت الإنجليزيّ من كتابته .  
استدار ورأى العربي الذي لعب دور مرشده منذ وصوله إلى البحرين .

- أشكرك يا سليمان .  
وبينما كان الرائد يحضر خوذته اقترح العربي :  
- هل تعرف شجرة الحياة؟  
اتسعت عينا الإنجليزي :  
- ماذا تقول؟  
- شجرة الحياة .  
- لكن تلك الشجرة لا وجود لها .  
- موجودة طبعاً، فهي تقع في الجنوب وليست بعيدة عن جبل الدخان . أستطيع أن أقودك إلى هناك، إذا أردت .  
تردد دوران، فصدفة كتلك مستحيلة الوقوع! بقايا ثعبان تُكتشف داخل مقبرة والآن . . . «شجرة حياة»؟ غير معقول!  
- حسن . قال بعد برهة . لنذهب!  
- هل تجيد ركوب الجمال؟  
- لا ، اعترف دوران .

- ماذا عن ركوب الخيل؟

- أجيده تماماً.

- إنه نفس الشيء. أو تقريباً! تعال، اتبعني. أعرف مكاناً نستطيع أن نستأجر منه جملين. سترى، الأمر سهل.

لم يكن الأمر سهلاً!

عندما قدّم الشيخ الجمل لدوران، بعد لحظات، أدرك أن ركوبه لا علاقة له بركوب الخيل من قريب أو من بعيد. فبادئ ذي بدء يجب أن يبرك الجمل للتمكن من ركوبه. وحتى بعد أن يبرك، يبقى مرتفعاً. امتطاؤه كالحصان أمر مستحيل إذ يتطلب القفز على السرج مهارة بهلوان! كان يتحتم إدخال القدم اليسرى في ركاب السرج وتحويل القدم اليمنى فوق الجمل.

ما كاد دوران يستوي على السنام حتى همّ الجمل بالوقوف فوراً. ولو لم يسارع الدليل إلى إمساك الدابة من لجامها لوقع الإنجليزي على ظهره.

إلا أنه كان بصدد اختبار آخر. فهو لا يعلم أن الجمل، عكس سائر الدواب، من عاداته السيئة أن يهم بالنهوض على قائمته الخلفيتين الواحدة تلو الأخرى. فكان أن قذف دوران إلى مقدمة السرج، ولما نهض الحيوان على قائمته الأماميتين مال دوران بذات العنف إلى الخلف.

أخيراً، بعد أن اعتدل على ركوبته، قدّم له الإعرابي عصا صغيرة محدبة شارحاً:

- إن أردت للدابة أن تنحرف يساراً المس رقبتها من الجانب الأيمن بهذه العصا. وإن أردتها أن تنحرف إلى اليمين المسها من الجانب الأيسر. لتتقدم إلى الأمام، كما بالنسبة للخيل إلى حدّ بعيد،



اهمزها بكعبك، ولإيقافها استعمل اللجام، شدّه بقوة نسبية إلى الخلف.

بكثير من التوجس نَقَذ دوران التوجيهات، لكنه أدرك بارتياح شديد أن قيادة الدابة أسهل بكثير من ركوبها.

يبعد جبل الدخان عن المنامة حوالي عشرين كيلومتراً قطعها الرجلان في أكثر من ثلاث ساعات ونصف. ثلاث ساعات ونصف تحت شمس حارقة عبر صحراء لا تنتهي. وأخيراً ظهرت حدود الجبل. في الجو الرطب عادة ما يكتسي الجبل بالغيوم. على عكس حالته اليوم.

أحس دوران بقلق داخلي، شعور مصدره غالباً الصمت المخيم وذلك الجبل المنقط باللونين الأسود والرمادي كأنه صخرة عظيمة.

قطعاً مسافة أخرى إلى أن أشار الدليل إلى نقطة في قلب الصحراء.

- ها هي! أرايت! إنها موجودة.

ظن دوران أنه ضحية سراب.

لكن الشجرة كانت موجودة حقاً.

أعلى تلّ رملي. مهيبة. معزولة تماماً.

ارتفاعها حوالي عشرة أمتار. وبعض فروعها مُسِفة بالأرض.

تذكرك بشجرة سنط كبيرة أو شجرة تمر هندي مع مسحة من اللامعقول. لا أثر لحياة أخرى حولها.

ترجّل دوران وسأل:

- كم عمر الشجرة؟

ما إن طرح السؤال حتى أدرك عدم جدواه. كيف للشيخ أن

يعرف؟ رغم ذلك انطلق الرد:

- بعضهم يقول ألف عام. آخرون يقولون أكثر، وغيرهم يقول أقل.

- حتماً يوجد مصدر للمياه الجوفية على مقربة؟

- لا، أقرب المصادر يبعد كيلومترات عن هذا الموقع.

وأضاف الشيخ بصوت هادئ:

- كبار السن يؤكدون أنها من بقايا جنة عدن.

أحس دوران أنه مرتبك تماماً!

جنة عدن...

أين قرأ هذه الكلمات؟ «الحقائق تفنى، وحدها الأساطير تبقى،

مثل الروح بعد الجسد، مثل رائحة العطر في إثر امرأة...»

## (٧)

قصر ميلان.

قطب الملك سارييل حاجبيه ووجه نظرة قوية التركيز إلى زائره، فهو يجد صعوبة في فهم الكلمات التي يقولها الرجل، بل لعل عقله هو الذي يرفض استيعابها.

هذا الزائر غير المرتقب الذي أصر على لقائه اسمه أولام، وهو يدعي انتماءه لقبيلة تسمى الكاسوس. القبيلة ذاتها التي ذكرها نازيل خلال لقائهم السابق. لم يكن سارييل خالياً من النقائص. إلا أنه كان مشهوراً بقوة الذاكرة. الذاكرة، ما انفك والده يكرر، هي حارس أضمن من أفضل الحراس المدججين بالسلاح. الاحتفاظ بأدق التفاصيل، تذكّر أفعال وإيماءات من حولك، غالباً ما يحميك من أن تؤخذ غدرًا. وذلك ما يفسر كون سارييل لم ينس أيّاً من أقوال مستشاره منذ أسبوعين حينما أحاطه بالتوترات والانقلابات التي تحدث في بلاد ما بين النهرين: «يدور الحديث عن معتدين أتوا من داخل البلاد، وعن مجهول أعلن نفسه منفرداً ملكاً على «بلد البحر»، وعن جيش من الكاسو لا يقف شيء أو أحد في طريقه الكاسوس».

مال سارييل إلى الأمام وقال:

حمورابي .

أوما المدعو أولام :

- هذه حقيقة .

- الحرب لا تكون عادلة إلا إذا كان لا مناص من خوضها ، قال

الملك .

فهل حربكم كذلك؟

- أعتقد ذلك . على أي حال ، قائدنا يظنها كذلك .

- أرجو أن يكون رأيه عاقلاً ، لأن القصور تنهار ، بينما يحتفظ

النحل بمأواه .

دلمون قائمة منذ الآلاف المؤلفة من الأيام والليالي ولم ينخرط

أي من ملوكنا في أي حرب كانت ، لم نحمل السلاح قط لغزو

جيراننا ، ولكن غزوناهم بالفعل .

اتسعت عينا أولام :

- غزوتموهم يا مولاي؟

- - نعم دون أن تسيل نقطة دم واحدة . غزوناهم بفضل حسننا

التجاري ، وقدرتنا على التفاوض ولطفنا .

نُمي إليّ ، سواء كان ذلك خرافات أو حقائق ، أن بتأئين أقاموا

في بعض بقاع العالم معابد وضُروحاً عظمتها تناطح كبد السماء ،

وهي ضخمة وعالية . عندنا لا يوجد شيء من ذلك . عندنا يحتل

القلب كل المساحة . نحن أرض مباركة . ولدنا بإرادة أنكي إله المياه

الجوفية ، هذا ما سيذكرنا به من سيأتون بعدنا . ما اسم مليكك؟

- اسمه جانداش .

- جانداش إذن هو القائم على رأس شعبكم .

- «بيوتنا» صحح أولام. فهكذا نحن منظمون. في «بيوت». «بيوت» هي في الحقيقة مقاطعات عائلية، أراضٍ وولايات. جانداش هو «الشاكاناكو»، ومعناها الحاكم. وهو يحكم بالحكمة تحت حماية آلهتنا.

- آلهتكم تختلف إذن عن آلهتنا؟

- لا أعلم، يا مولاي. فأنا لا أعرف آلهة دلمون.

آلهتنا تسمى بورياش، إله العاصفة؛ مارتاش إله الحرب، شورياش إله الشمس. لدينا أيضاً شوكامونا وشماليا إله وإلهة الجبال وإله القمر شيباك. إلا أن إلهنا الأعظم هو هارب ولدينا آلهة أخرى عديدة و . . . .

- جميع الآلهة محترمون، ومن لا يُكِنُّ لهم الاحترام أو يحترم نفسه، رغم كونه يتنفس، فهو ميت.

لكن لتغيّر الحديث. حينما حدثني مستشاري عنكم لم يكن قادراً على تحديد من أي منطقة أنتم.

- أصلنا من الجبال العالية، تلك القابعة على تخوم فارس، وبشكل أدق في ولاية كردستان. الجبال العالية التي تمتد حتى حدود بلاد ما بين النهرين، وتنتهي في المضيق الذي يتحكم في الطريق إلى دلمون وإلى جزيرتكم أغاروم<sup>(١)</sup> وفي أرض أخرى أجهل اسمها<sup>(٢)</sup>.

- حسناً . . . قال ساربييل مفكراً، العالم حولنا شديد الاتساع. نحن في حاجة إلى حيوات عدة لرسم حدوده.

---

(١) اليوم، جزيرة «فَيْلَكَّة»، بالقرب من ساحل «الكويت». حيث تم استعمارها من قبل «الدلمونيين» عام ١٩٠٠ قبل العصر الحديث.  
(٢) «جبال زاغروس». أما المضيق فهو مضيق «هرمز».

لكن، طمئني، هذا الاحتلال الذي يقوم به مليككم، لعلكم لا  
تَنوونَ الامتداد به إلينا؟  
هز أولام رأسه نافياً.

- لا، أبدأ. وعلى أي حال، فنحن أبعد ما نكون عن احتلال  
بلاد ما بين النهرين. ولعلنا لن نتمكن من ذلك.

- على أي حال، كل ذلك مؤسف للغاية. هذه الفوضى التي  
تطول بلاد ما بين النهرين تضرنا، فهي دولة من ضمن أهم زبائننا.  
وإن سقطت «باب إليلي»<sup>(١)</sup> واندرت ستأثر تجارتنا بشكل مأساوي.

- وهذا هو سبب زيارتي. جانداش مليكنا كلفني بأن أبلغكم  
بخالص صداقته ومودته. للدمون عندنا أهمية قصوى، ولن يمثل  
الكاسوس مشكلة أبداً وسنستمر في تجارتنا معكم ما رغبتم في ذلك.  
- حسن جداً، لقد أرحت عقلي وقلبي. بَلِّغْ مليكك خالص  
مودتي له.

ورفع سارريل يده معلناً إنتهاء المقابلة.

وبينما هم الكاسو بالانسحاب، أضاف الملك:

- وأبلغه أيضاً نصيحة من حضارة دلمون العريقة: كل احتلال  
يولد الكراهية لدى من يتم احتلاله.

بعد انصراف زائرته، مسد سارريل لحيته المدببة وتساءل بصوت  
مرتفع:

- أين أنت يا نازيل؟

\*\*\*

---

(١) الإسم القديم «لبابل».

في الزُّقاق المعتم، كانت قامة نازيل وهو مُتكئ على عصاه ووجهه المتجهم خليقين بأن يخيفا أي طفل ماراً. لعن نازيل العَجَز الذي أفقده لياقته. ما اسم هذا الأحق الذي أكد أن للشيخوخة محاسنها؟ فما هي إلا موت على مراحل. يا له من ظلم! العقل حاضر، بينما الأعضاء التي تحمله تتهاوى وتضعف يوماً بعد يوم.

إن لم يكن مديناً من الناحية الأخلاقية تجاه ياكين ما كان ليهتم أبداً بأمر اختطاف ابنه. فضلاً عن ذلك، ألمت مصيبة بواراك، فأى أمل، مهما كان ضئيلاً، في أن يقبل الطبيب تكليف الملك. هذا الأمل سوف يتبدد نهائياً.

صعد نازيل الزقاق وهو يعرج، ووصل إلى ساحة محاطة بالنخيل. توقف أسفل تل أقيم عليه معبد مخروطي الشكل ذو حوائط من صلصال مزدانة برسومات دقيقة، وانتشرت حوله مجموعة من التلال تبدو وكأنها مترابطة.

تقدم نازيل نحو المدخل، وبعد تَرَدُّدٍ انْسَلَّ إلى الداخل ليجد نفسه أمام مذبح مزدوج مستدير. على الأرض المبلطة رأى مجموعة من الحجارة المثقوب أعلاها بالبلاط لترتبط بها الحيوانات المعدة للقرايين. وهنا وهناك، أوان حلزونية من المرمر، وأبعد قليلاً، عصفور من النحاس مُنَبَّتٌ في الحائط. وفي إحدى الزوايا قيثارة يعلو صندوقها رأس ثور من النحاس.

استمر نازيل في التقدم، متفحصاً الظلمة المحيطة به، إلى أن

(١) حالياً، قرية «باربار»، وتقع في الشمال الغربي للجزيرة الرئيسية.

وصل إلى حافة بئر كبيرة حولها حوائط عالية من الأحجار المنحوتة، وثلاث قنوات عريضة تحت السطح توصل الماء إلى الحدائق المجاورة، وسلّم كبير مكوّن من ثلاثين درجة تقريباً يقود من الحوض إلى مصطبة علوية بارتفاع حوالي سبعة أمتار يسندها حائط وهناك يوجد سلّم آخر على جانبه صف من ثمانية أحجار كبيرة في كل منها فجوتان بداخلهما تماثيل لغزلان.

وقف نازيل بلا حراك. إلا أنه لم ينتظر طويلاً.

اقترب منه ظل قاتم وهمس:

- هل معك ما طلبت؟

- وأنت هل معك الخبر الذي أريد سماعه؟ رد نازيل رابط

الجأش.

- نعم. وأخشى أنه خبر سيّئ. لعل الطفل قد مات.

اضطر نازيل أن يستند إلى حائط صغير كي لا ينهار.

- ماذا؟ ماذا تقول؟

- الأمر ليس مؤكداً. وفقاً لمُخبري، فالذين خطفوه يعتزمون

تقديمه قرباناً للإلهة تيامات.

- تيامات؟ ولكن ما من شخص عاقل في دلمون يقدم قرباناً

للإلهة الفوضى وبالأخص قرباناً بشرياً.

وسأل المستشار مدهولاً:

- أين الطفل؟ من هم الخاطفون؟

- يقال إنه بين أيدي ال... .

وظل باقي الجملة معلقاً... .

تجهم الرجل جحظت عيناه، وتقوّس جسمه، ومن دون صرخة

هوى أرضاً أمام نازيل الواقف مشدوهاً! صُعب المستشار من الرهبة



وتلقت حوله، لكنه لم ير شيئاً. ما من إنسان ولا حيوان. حوّل نظره إلى جثة الرجل. رأى سهماً مخترقاً ظهره بين عظمتي كتفيه تماماً. ركع نازيل على ركبتيه، ولاحظ أن الرجل ما زال حياً. - من هم المخاطفون، قل لي... - ترجاه - اسماً! أعطني اسماً! - أنا... هم...

- تكلم!

إلا أنه لم يتلقَ رداً. فقد تمكن الموت من فريسته. اتكأ نازيل على عصاه ونهض بصعوبة. وسيطرت عليه فكرة واحدة:

الهروب... الهروب...

\*\*\*

بزغ الفجر وصبغ الأسوار حول آتاراك بألوان حمراء. كان ياكين جاثياً بجوار فراش زوجته، محاولاً السيطرة على اليأس لثلا يتمكن منه. عليه أن يبدو قوياً كي لا تنهار إيشا وتستسلم للمرض. ولا شك في أن اختفاء وراك ساهم في تدهور حالتها ما جعل ياكين يتساءل: هل لأفكارنا وانفعالاتنا تأثير على حالتنا الصحية؟

منذ بضع سنوات كان ياكين بجوار فراش أحد مرضاه. كان المسكين يعاني آلاماً مبرحة لم تُجد كافة التركيبات التي أعدها الطبيب في تسكينها. بدافع الشفقة على المريض سقاه ياكين ماء، ولا شيء غير الماء، موهماً إياه أن هذا الدواء سينهي عذابه فوراً وكم كانت دهشة ياكين حين لاحظ أن المريض تخلص تماماً من آلامه إثر هذا السحر. إذ لا يمكن أن يكون هذا العلاج إلا سحراً.

ولم ينفك سؤال يلخّ على الطبيب هل للروح تأثير على الجسد؟ هل يمكن الشفاء بقوة التفكير فقط؟ هل تسبب حالة نفسية مضطربة أمراضاً أو تجعلنا أكثر عرضة لها؟ بطبيعة الحال، لم يجد ياكين إجابات شافية لهذه الأسئلة. حتى إنه عندما أعاد التجربة مع مريض آخر باء بالفشل.

تحسّس جين إيشا فبدرت منها ابتسامة باهتة. وبدت مستسلمة.  
- كفى تعذيباً لنفسك، أرجوك. سوف نجد وارك، أنا واثق من ذلك.

- تأوّهت:

- أنا أتألم، كل عظمة في جسمي تؤلمني. إن لم نجده سوف أموت. حقاً سوف أموت.

قاطعتهما طرقات عنيفة على الباب.

- من يمكن أن يأتي في هذه الساعة؟ غمغمت إيشا.

تجاهل ياكين السؤال وقام ليفتح الباب.

كان نازيل على العتبة مستنداً إلى عصاه. حيا الطبيب بإيماءة رأس ودخل إلى الغرفة حيث ارتمى على مقعد.

- إذن؟ هل من جديد؟ بادره ياكين.

- إذا أردت.

مشيراً إلى حنجرتة:

- أمضيت ليلة سيئة وحلقي جاف.

توارى ياكين ثم عاد وفي يده كوب من الجعة وقشة لارتشافها.

شرب المستشار جرعة وقال:

- في آخر لقاء لنا قلت لك: «رجل بدون عدو رجل بدون

قيمة». ولعل قيمتك أكبر بكثير مما تصورت. لكن، قبل كل شيء

أؤكد لك أن الملك لا علاقة له بهذا الموضوع. المسؤولون عنه  
أناس آخرون. . . .

قاطعه ياكين بحدة:

- هل وارك على قيد الحياة؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي  
يهمني.

خفض نازيل نظره لمداراة حرجه.

- هل تنطق؟

- هو حي، ولكن في خطر. أظن أنه بين أيدي أناس غير  
عاديين.

- ماذا تعني؟

- وفقاً لمُخْبِرِي، فهم يَثْوون أن . . .

سكت مرة أخرى، بقيت شفتاه منفرجتين، لكنه غير قادر على  
تكملة جملته.

ثم نطق:

- يَثْوون تقديمه قرباناً للإلهة تيامات.

حبس ياكين صرخة.

- هذا خَبَلٌ! لماذا يُقَدَّم طفلٌ قرباناً؟ ما من أحد من أهالي  
دلمون يُقَدِّم على هذه الفعلة. الشعوب الهمجية هي التي تمارس هذه

الطقوس. ليس نحن. تفاصيل، أعطني تفاصيل!

- للأسف، لا أعرف أكثر من ذلك. بينما كان مخبري يحدثني  
قُتِلَ بسهم في ظهره. ومازلت أتساءل لماذا تركني قاتله على قيد

الحياة؟

- الإلهة تيامات . . . كرر ياكين.

هز نازيل رأسه مؤكداً ورافعاً كوبه الفارغ.

- هل تعطني مزيداً من الجعة؟

أخذ ياكين الكوب وفي حركة حانقة أطاح به عبر الغرفة.

- مخبرك، كيف اتصلت به؟ كيف عرفته؟

- دور مستشار الملك هو العمل على منع المآسي قبل حدوثها.

الشخص المعني كان قد سبق القبض عليه منذ بضعة أشهر متلبساً بمحاولة سرقة بضاعة معروضة في السوق. نكرة، قليل الذكاء، على شيء من السذاجة. إلا أن هذا النوع من الأشخاص الذين لا شأن لهم يمكن أن يكون مفيداً إن أردنا اختراق عالم اللصوصية والإجرام. وبدلاً من عقابه كما كان يتوجب عليّ، عرضت عليه أن يدخل في خدمتي على أن يخبرني بأي حادث قد يعكر صفو الأمن العام أو يهدد سلامة المملكة. وعندما أخبرني باختطاف ابنك استدعيته.

- يجب أن تتمكن من متابعة تحريّاتك، يجب أن تفعل ذلك،

يجب! ابحث في محيط هذا الرجل. هل تعلم أين يقيم؟ هل له عائلة؟

- أفترض أنه كان يقيم في الكباش، على بعد ساعة مشياً من هنا.

- تفترض؟

- نعم، لأنه ضرب لي موعداً للقائه هناك بجوار المعبد. أما عن

عائلته فلا معلومات لدي.

- ما اسم الرجل؟

- إجميل. إن لم يكن قد كذب عليّ.

وأضاف نازيل شبه متوسل: أخبرتك بكل ما أعرفه، أقسم لك.

- هل تقدّم لي ما أشربه الآن؟

\*\*\*

كان الحر الخانق يعمّ الغرفة ذات الواجهة القبليّة، بينما انكب عمّال على تكديس أعذاق التمر بجوار الحائط في نهاية الغرفة؛ كانت الحرارة أشدّ ثقلاً نظراً لتشبع الهواء برائحة تخمّر الثمار وظهرت مجموعة من القنوات الصغيرة المحفورة في أرضية الغرفة، حيث ينساب العصير تحت أشعة الشمس، ليتجمع في حوض دائري سفلي محفور بجوار باب الدخول. ولم يكن اختيار هذا الموقع اعتباطاً: نظراً لنفاذ الرائحة السائدة يتحتم على من يريد الحصول على بعض العصير ألا يطول بقاؤه وأن يغادر المكان بأسرع ما يمكن.

في نهاية الموسم، يسكب عصير التمر في جرار تغلق بإحكام ويُدْمغ غطاؤها بختم على كرة صغيرة من الصلصال ويصبح الإنتاج جاهزاً للتصدير.

لا أحد يستطيع أن يحدّد تاريخ بداية هذه الحرفة بدقة، فالشيوخ يؤكدون أنها تعود إلى الأزمنة السحيقة، منذ فجر دلمون<sup>(١)</sup>.

انحنت آنام، زوجة تسورا، صائد اللؤلؤ، على ابنتها ميلا وأوصتها بأن تنتظرها في هدوء. ثم تقدمت نحو مدخل الأتون وهتفت وهي تسد أنفها بسبابتها وإبهامها:

- سامل! سامل، أنا هنا.

- إني قادم! رد صوت من الداخل.

تخطّى شاب قصير القامة، بدين، في الثالثة والثلاثين من عمره

---

(١) أقدم هذه المواقف (مدبسة) يرجع تاريخها إلى منتصف الألفية الثانية ق.م. كثير من نصوص «بلاد ما بين النهرين» يذكر بشكل متكرر نوعية خاصة من التمر تسمى «تمر دلمون» كانت تتمتع، فيما يبدو، بسمعة عريضة.

(أكبر من أنام بثلاث سنوات) حوض تجميع العصير، وفور خروجه رأى الطفلة تبسم له، وفي وثبة تلقائية همَّ بأخذها بين ذراعيه.

تراجعت ميلاً خطوة إلى الوراء متقرّزة وعلى وجهها قرف باد.

- يا للهول! كم رائحتك كريهة!

- يا للهول! قلّدها سامل. هل نسيت أنني أخو أمك، خالك!

وأنك لذلك مدينة لي بالاحترام!

- نعم. ومع ذلك رائحتك كريهة.

- لا بأس، ولكن في المرة القادمة عندما أصبح نظيفاً ستكونين

مدينة لي بقبلتين.

- ماذا بعد؟ تساءلت أنام. هل لديك أخبار؟ هل يعود الصيادون

قريباً؟ أكدت لي منذ يومين أن صديقاً لك سوف يستفسر عن الأمر.

أوما سامل بحركة اتكالية.

- لا يعلم شيئاً حتى الآن، سوى أنهم سيعودون قريباً بالتأكيد.

- قريباً؟ لقد أبحروا منذ أسابيع!

- لكن، يا أختي الصغيرة، تعلمين جيداً أن موسم الصيد لا

ينتهي إلا مع شهر «تشريتو»<sup>(١)</sup>. على أي حال، وفقاً لصديقي، هم

على مقربة من جزر «سامردان»<sup>(٢)</sup>.

تنهدت أنام:

- أنا قلقة بوجه خاص على أوسر، فهو يغطس للمرة الأولى.

- هيا! لا تقلقي. والده بجواره وهو حتماً يحرسه جيداً.

- أعلم ذلك. ولكنني أخشى أيضاً على تسورا. فهو مريض.

---

(١) سبتمبر- أكتوبر / أيلول- تشرين الأول.

(٢) جزر «حَوار». في خليج البحرين.

- مريض؟

- وفقاً للطبيب، هو يعاني من مرض غريب. يسمى يدُ سينّ.  
وقد نصحه مجدداً بالألّا يغوص.

- هيا، أختي الصغيرة، أعتقد أنك تعذبين نفسك دون سبب.  
تسورا كبير بما يكفي ليعلم ما عليه القيام به.

وضع سامل قبلة خاطفة على جبين المرأة وتابع بسرعة:

- يجب أن أنصرف. فيوم العمل لم ينته.

وقبل أن يدخل مجدداً إلى الأتون. أضاف موجهاً كلامه إلى

البنيت الصغيرة:

- أما أنت، فهذا المساء لناظره قريب، سوف أمرّ لأخذ قبلتين!

\*\*\*

مكان ما على الجزيرة.

كان وارك متكوراً على نفسه في ركن من أركان الغار يجد صعوبة في السيطرة على الارتجافات التي تهز جسمه الصغير. وكانت صخرة كبيرة تسد مخرج الغار حاول الصبي تحريكها لكن سرعان ما قعد عن المحاولة، إذ لا يستطيع تحريك تلك الصخرة إلا رجل بالغ. لقد وضعوا أمام أورك قليلاً من الخبز وشطيرة حلوى من التمر، إلا أنه لم يلمسها.

مرت ثلاثة أيام على حبسه في هذا المكان الرطب الذي تضيئه، في النهار فقط، أشعة الشمس الرفيعة التي تتسلل من خلال الفتحات بين الصخرة ومخرج الغار الذي تسده. أما ليلاً فيغرق في ظلام دامس.

لماذا تم اقتلعه من وسط الذين يحبونه؟ كثيراً ما كان يحلم أنه

كبر فجأة ليتمكن من القيام بالأشياء التي يشاق إليها والتي يتم منعه عنها. نظراً لشرور الكبار، كان يحدث نفسه منذ ثلاثة أيام بأن من الأفضل أن يظل طفلاً. مرّر أصابع يده في شعر رأسه الكثيف الداكن السواد، كمن يحاول تصفيفه، ثم رقد على الأرض مركزاً تفكيره على وجه والدته. كم كان يفتقدها!

هو يحب أباه حباً كبيراً، إلا أن حبه لوالدته حبٌّ آخر. حبٌّ لا يستطيع وارك أن يصفه إنما يحس به فقط، فالمرء لا يستطيع وصف اللامنتهي. ثم إنه يعرف أن والدته مريضة. طالما قالت له عكس ذلك مؤكدة أنها في حالة جيدة، إلا أن شحوب وجهها، ومعاناتها كلما حاولت أن تتحرك، كلها تؤكد عدم صحة هذا التأكيد. هو يفتقدها، إلا أنها بالتأكيد تفتقده أكثر.

فجأة، تحركت الصخرة، ودلف إلى الغار رجل كثيف اللحية شبه أصلع. تعرّف عليه وراك فوراً، فهو أحد خاطفيه. بعد أن ألقي الرجل نظرة على الخبز وقطعة الحلوى، سأل:

- لم تأكل، لماذا؟

- لست جائعاً. أريد أن أعود إلى بيتي. متى ستعيدونني؟

- يوماً ما. مَنْ يعلم؟ ربما لن تعود أبداً. أو قد نأخذك في سفرة

جميلة.

- لكنني لا أريد أن أسافر.

- أنت مخطئ. إنها سفرة رائعة! سفرة من النوع الذي لا تقوم

بها إلا مرة واحدة!

بدل أن يجيب، ضحك الرجل مستهزئاً، ثم ولاء ظهره. وفور

خروجه

أعاد الصخرة إلى مكانها. وغيب الظلام وارك.



## (٨)

كرر شاكروماش، متأملاً:  
- تيامات، المستشار قال تيامات، فعلاً؟  
أوما ياكين.

جلس الرجلان حول طاولة في فناء مكشوف، هو المكان المفضل للتجار حيث يتواعدون للشراء، والمقايضة، والبيع، والمساومة حول البضائع التي تحضرها السفن من أسفارها: المنتجات الخزفية، الأدوات، الملابس، المأكولات، النحاس، زيت الحجر<sup>(١)</sup>، واللؤلؤ بطبيعة الحال، والأسماك، والقمح، وآلاف أخرى من السلع.

على بعد خطوات منهما، يشع ضوء أحمر من أتون يضيء ورشة حداد، غير بعيد عن منضدة عالية من الطوب في مقدمة مخبز بداخله فرن للخبز. وفي الطرقات المجاورة حلاقون، وإسكافيون، وصباغون، ورفاؤون، وصاغة، وآخرون من التجار والحرفيين يترصدون الزبائن.

اقترب خادم من طاولة ياكين و شاكروماش ووضع طبقاً مليئاً

---

(١) القطران.

بالمحار، وسكيتين، مع بعض التين والعنب وسألها ماذا يريدان أن يشربا؟

- ماء. رد العجوز.

- لا شيء. نفى الطيب.

فور انصراف الخادم، قال شاكروماش:

- تيامات. أتصور أنك تجهل من هي؟

- إلهة!

- فعلاً، ولكن...

قُطِب الطيب.

- تعلم جيداً يا صديقي، أنني لست متبحراً في الآلهة

والمعتقدات. أحلام الناس هي التي اخترعت الآلهة.

- إعتقد ما شئت. ولكن تذكر ما قلته لك يوماً ما: بعض

المعتقدات قد تتحول إلى سجن.

- وأنت تذكر أنه للوصول إلى اليقين يجب الابتداء بالشك.

اقتصر رد الرجل العجوز على هزة كتف. ثم التقط محارة بيده

اليسرى موجهاً فتحتها نحو معصمه، وبمهارة لافتة فتحها. رفع

النصف العلوي، ثم شفت الجنين الرخو مغمضاً عينيه.

- إنها متعة خالصة...

ثم مال نحو صاحبه واستطرد:

- الآن، استمع إليّ. في فجر الزمان، قبل وجود الأرض،

والسموات، كانت المياه الأولية مختلطة ببعضها. الإله أبسو يمثل

المياه العذبة، وزوجته المياه المالحة، زوجته هذه كان اسمها

تيامات.

رزق الزوجان بالعديد من الأطفال، إلا أن هذه الذرية كانت

مشيرة للشغب وتصدر ضجيجاً عالياً لدرجة منع أبسو من النوم. ولما فاض به الكيل قرر أن يخفيهم. ذعرت تيامات، وحاولت أن تهدئ من غضبه وأن تعقله إلا أن زوجها تشبث برأيه. وعندما علم أنكبي بالخطر الداهم تمكن (بفضل قدراته السحرية) من إيقاع أبسو في سُبَات عميق، ثم قتله، وسيطر إثر ذلك على المياه العميقة. هذه الجريمة أزعبت تيامات.

سكت شاكروماش، ريشما قدّم له الخادم مشروبه، ثم استطرد:  
- هذه الإلهة، الهادئة عادة، أفصحت عن العنف الكامن بداخلها، وغضبت غضباً شديداً. وبمعاونة زوجها الجديد، المسمى كنجو، قررت أن تقضي على الجميع، كل الآلهة بلا استثناء وعلى رأسهم أنكبي بالطبع.

ولتحقيق غرضها خلقت جحافل من الوحوش المرعبة، والشعابين السامة العملاقة، والتنانين المسعورة، والأسود الهائجة، والكلاب المُزبدة والشياطين.

- نهاية العالم بشكل أو بآخر...  
- تماماً، أو بلفظ أدق «نهاية عالم». قاد كينجو، الذي سلّمته تيامات ألواح مصير البشرية، هذا الجيش المروع إلى المعركة.  
- ألواح القدر؟  
- لا أعرف تحديداً ما هي، لكن وفقاً للأسطورة من يمتلكها يصبح سيد الكون.

في ظني ما هي إلا رمز للسلطة.  
- سيد الكون... ألواح القدر... في ظروف أخرى كنت ابتسمت لتلك الروايات.  
أكمل، أرجوك.

- التهم شاكروماش محتوى محارتين الواحدة تلو الأخرى قبل أن يستأنف حديثه:

- اندلعت الحرب. لكن، في مواجهة كينجو ووحوشه برزت شخصية جديدة: ماردوك، أحبُّ أبناء أنكي. كان هذا الإله، فيما يبدو، مزوداً بأسلحة ذات قدرة لا تقاوم. بعد معركة حامية الوطيس، أوقع ماردوك تيامات في شباكه وقتل كينجو.

بعد ذلك، في فعلة مُنقّرة، شطر تيامات إلى نصفين، مستخدماً النصف الأعلى لتكوين قبة السماوات والنصف الأسفل لتشكيل الأرض. ومن ثديي الإلهة الميتة كوّن الجبال، ومن دموعها روى مجريين للمياه أصبحا اليوم - وفقاً للأسطورة - المجريين اللذين يسقيا بلاد ما بين النهرين. بعد انتصار ماردوك، أطلقت الآلهة عليه خمسين لقباً تقابل كافة الصفات المقدسة.

ثم سكت العجوز وأشار إلى طبق المحار.  
- لم تلمسه.

زَمْ ياكين شفتيه. كان يتألم. الألم في جسده، في روحه، في كلِّ كيانه.

- ابني - نطق بصعوبة - ما علاقة تلك القصة بابني؟

- صمت شاكروماش لحظة متأملاً قبل أن يعلن:

- في رأيي المتواضع، لقد وقع بين أيدي طائفة ما، أتباع الإلهة تيامات. مجانين من نوع ما.

لكن يبقى السؤال الأساسي: لماذا تم اختياره من ضمن مئات الأطفال في دلمون؟ وأنت فقط لديك الإجابة.

- لكنني لا أعرف شيئاً.

- هل أبلغك نازيل باسم مُخبره؟

- نعم يدعى إجميل. يقيم على حد قوله في «الباش». لكنه أمر مشكوك فيه.

اكتفى العجوز بهز رأسه مهموماً. محترماً الصمت الذي لاذ به صديقه. صمت يغلفه الألم واللوعة، وأمام الحزن العميق الذي يُنهك ياكين، استغرب إحساسه بالراحة لكونه لم ينجب أطفالاً. فهو يتذكر دائماً تلك الجملة التي كان يحلو لوالده تكرارها: يبدأ الأطفال بالإثقال على أذرع أهلهم، ثم يثقلون على قلوبهم.

ولكن هل يشعر المرء بأنه أكثر حرية لأنه يعيش وحيداً؟ دون أن يقاسمه أحد؟ دون حب يعطيه أو يتلقاه؟ دون هذا الإحساس بالحرق الذي يولده القلق الناتج عن مرض أو غياب من نحب؟ أطفالنا في هذه الحالة. كان شاكروماش مقتنعاً منذ فترة طويلة أن الوحدة أفضل من العذاب، وهذا هو السبب الذي باعد بينه وبين الزواج والخِلفَة. في هذه اللحظة بالذات، أمام العذاب المزوج الذي يعتصر صديقه: اختفاء ابنه ومرض زوجته، كانت تحدثه نفسه بأن اختياره هو الصائب. نعم من الأفضل أن تعيش وحيداً. أوليس تغريد البلبل وهو وحيد حر أفضل من تغريده وهو محبوس في قصور الملوك؟

كما لو أنه قرأ أفكار صديقه، باغته ياكين بسؤال:

- هل أنت سعيد يا شاكروماش؟

- أنهى شاكروماش مضغه لمحتوى محارة أخرى قبل أن يجيب بلهجة غير مكترثة:

- لا يوجد سعادة أو تعاسة يا صديقي، فقط المفارقة بين حال وأخرى. فمن عرف من النكبات أقساها هو وحده القادر على إدراك السعادة القصوى. إلا أن كل هذه أحاسيس عابرة، كرمشة عين، حتى ما تعيشه الآن لن يدوم، مهما كانت نتيجته. أنت...

- ماذا تقول؟

كالمذعور، انتفض ياكين بعنف أدى إلى قلب الطاولة وردد غير مصدق:

- مهما كانت نتيجته؟

تلعث العجوز:

- لا أفهم...

- مهما كانت نتيجته؟ هل تجرؤ على أن تتصور أنّ أحداً يستطيع أن يعيش بعد موت طفله؟ هل أفقدك العجز صوابك؟ إني أشفق عليك يا صديقي! عيشك وحيداً أصابك بالجفاف. لقد أصبحت كالصحراء!

كوني طبيباً جعلني أدرك أن الأثانية هي الرفيق الطبيعي للعجز. هذا مفهوم. لكن أنت يا شاكروماش، لقد ولدت عجوزاً! ارتجفت شفتا ياكين، وأراد أن يضيف شيئاً، إلا أن الكلمات أعوزته. عندئذ، دار على عاقبيه وانصرف وعيناه مغرورتان بالدموع.

\*\*\*

أمسك ساريل بالختم الملكي المنحوت في حجر لّين، وضغطه على مرّيع من الخزف أسفل رسالة مكتوبة على لوح خشبي. صورة الإله إنزراك جالساً على عرشه، يده اليمنى مرفوعة في وجه رجل واقف أمامه كانت منحوتة على الختم. وكانت يد الرجل اليسرى تلامس صدر الملك، بينما قبع شخص آخر خلف الملك، رافعاً يده اليمنى، واحتل خيال ثور مقدمة المنظر. أعاد الملك قراءة النص مرة أخرى، وسلّم اللوح وهو راض عنه إلى حارس كان ينتظر على بعد خطوات.

- خذ! أمل أن تنجح في مهمتك إلى قصر الملك في «باب إيلي». ولا تنس! عليك أن تسلّم هذه الرسالة إلى سامو إلونا يداً بيد.  
انحنى الحارس.  
- لتكن مشيتك، مولاي.

فور انفراده بنفسه، ترك سارييل مقعده وتوجه نحو الشرفة المواجهة للميناء. هذا الصراع بين الكاسو وبلاد ما بين النهرين يشغله أكثر مما أراد أن يبدو عليه أمام مستشاره والمسؤول عن بيت المال. لقد تعلم عن والده أن رئيس الدولة إن أبدى قلقه علناً فالشعب كله يرتعد.

وكان هناك أيضاً موضوع ملوحة.

في حالة اختفاء العملاء الرئيسيين لدلمون، ماذا يكون الحل؟ هل يمكن زيادة إنتاج الأراضي الزراعية لحماية المملكة من مخاطر المجاعة؟

ألا يتحتم مراجعة وتعديل أسلوب الفلاحة المطبق منذ عشرات السنين؟

ألا نستطيع اختصار الخطوات؟

لم يكن للزراعة أسرار تغيب عن سارييل منذ نعومة أظافره اعتاد والده على اصطحابه لتفقد الحقول، ليلاحظ ويفهم عمل المزارعين لأن على الملك، كما كان يقول والده، أن يعرف مصدر ثروات مملكته وطرق إنتاجها، وأمكن ل سارييل أن يُعاين الجهد القاسي الذي يقوم به من يفلحون الأرض.

أولاً الحقول تُروى، ثم تُقتلَع الأعشاب الخبيثة، ويُستخدم ثور يمشي على الأرض لتنعيم التربة الرطبة، ثم تتم تسويتها، وتمشيطها، وأخيراً دكها. بعد ذلك تُشقّ الأثلام بعمق إصبعين، وتُبذَر الحبوب

في قاعها. وحين تنبت البذور، تُروى أربع مرات على الأقل. المرة الأولى حين تظهر البراعم، والثانية حين ترتفع الأعناق، والثالثة حين تبلغ أعلى ارتفاعها وأخيراً - إن لم تضرب الآفة الحبوب - تروى مرة رابعة لزيادة المردود.

عادة ما يقوم ثلاثة رجال بعملية الحصاد: أحدهم يقطع السيقان والآخر يربطها والثالث يضمها في حُرْم. أخيراً يُدرَس الشعير لمدة خمسة أيام. كلها مراحل شديدة الملل. ألم يكن هناك سبيل لاختصارها؟ أو، أفضل من ذلك، ألا يمكن مضاعفة المساحات القابلة للزراعة. لأن الغذاء هو العنصر الأهم والفردى للحياة. ألا تبيع دلمون بلحها ولآلئها ونحاسها فليكن، ولكن لا بد من حماية الناس من الجوع، وإذا، افتقر الناس فلن يتمكنوا من تأمين احتياجاتهم، الضرورية. إذا كان الفقر عاراً في ظل ملك طيب، فالغنى عار في ظل ملك سيئ.

لكن المؤسف أن زيادة الإنتاج سوف يترتب عليها حتماً انخفاض الأسعار الذي سيفقر بدوره مُلاك الأراضي، دون التغاضي عن حقيقة أنه في حالة حدوث أزمة اقتصادية سوف يزداد الفقراء فقراً ولن يتمكنوا من شراء شيء. وبالتالي لن يبقى أغنياء.

أجال ساربييل نظره في الميناء وخفّف النشاط السائد من قلقه. لعله يعذب نفسه دون سبب. فرغم كل شيء دلمون غنية بما فيها من أبقار وخراف وماعز فضلاً عما يطرح البحر من أسماك بوفرة. وكل هذه الفواكه والخضروات المتنوعة - الرمان، والأعناب، والتين، والحمص، والعدس، واللفت، والكُرَّات، والخيار، والبقلة، والخس، والبصل، والثوم - ألا تتيح للمملكة الاكتفاء الذاتي؟ والمياه، تلك المعجزة، هبة إنكي، هذه الآلاف من الينابيع، ألن



تستمر في التدفق إلى الأبد؟ نعم. لعل سارييل يعذب نفسه أكثر من اللازم. ومع ذلك، فالوقاية خير من العلاج، ولذلك قرر مكاتبة ابن حمورابي ليتأكد من صداقته وليطمئن إلى دوام سلطته.

اقترب من كأس كبيرة على منضدة، وتناول عنقود عنب وبعد أن أكل منه حبات أعاده إلى مكانه. إنها البلد الذي تشرق منه الشمس. ألم يكن هذا هو الاسم الذي يطلقه أهل المنطقة على دلمون؟ وسوف تشرق الشمس دائماً. نعم، لعل سارييل يعذب نفسه أكثر مما يجب. خطأ بضع خطوات متوجهاً نحو قفص صغير فيه مجموعة من السحالي. أمسك بإحداها وتوجه نحو سلّة مصنوعة من ورق الصفصاف في أحد أركان الغرفة. فجأة، رفعت حية رأسها. كان ظهرها مرقطاً ببقع سوداء على شكل خطوط عمودية وحول الرأس حلقة يمتزج فيها الأصفر بالأبيض. ولها ذيل طويل وسميك يصبح دقيقاً عند نهايته. وما إن حرّك سارييل السحلاة فوق الحية حتى اختطفها بسرعة البرق، وابتلعها.

ابتسم سارييل وهو يتابع المشهد وكالعادة كل مرة استعاد تلك القصة التي كان يجهل مصدرها:

يُحكى أن ثعباناً وصقراً كانا يعيشان في وئام حتى اليوم الذي قام فيه الصقر بابتلاع صغار الثعبان. فاشتكى هذا الأخير حاله إلى شاماش إله الشمس فنصحته بأن ينصب فخاً للصقر، ويختبئ الثعبان في بطن ثور نافق، وحين يقترب الصقر لالتهام الثور يقفز الثعبان من جوف الجثة ويمسك بالصقر ويقذف به في حفرة حيث يموت. هذه أسطورة دون شك، لكنها تؤكد أن الثعبان كان رمزاً للحياة والموت. مدهش ومخيف حين يقوم من سباته، وعندما يغيّر جلده يظن المرء

أنه مات، فهو موجود حيث لا نتوقعه، فوق الأرض أو تحتها، بين الأشجار أو تحت الماء، صامت ومَرْن. لا غرو إذن أن يعتبره أهل دلمون حيواناً مقدساً. ألم يكن، شأنه شأن أرضهم المقدسة، رمزاً للأبدية؟

- مولاي!

علا صوت خلف الباب

أمر:

- أدخل!

انفتح الباب وظهر نازيل.

- عجباً! استغرب سارييل، لقد ظهرت أخيراً. كنت على وشك

أن أرسل حراسي للبحث عن جثتك إذ ظننتك ميتاً. ادخل!

انحنى نازيل انحناءً شديدة وتقدم خطوة إلى الأمام. وقد بدا

عليه الإعياء.

- سامحني يا مولاي، كنت عليلاً.

- بالنظر إلى عينيك المنطفتين وما حولهما من هالة سوداء، لا

تبدو في حالة جيدة.

- أنا بخير، أؤكد لكم.

ضم الملك ذراعيه وقال:

- عظيم. إذن؟ هل وجدت هذا الطيب؟

- نعم، أقصد لا. اسمه ياكين. وما من آسو أبرع منه في

دلمون. حادثته، لكنه يرفض أن يقوم بسفرة بهذا البعد.

- يرفض؟

- زوجته مريضة يا مولاي. مريضة مرضاً عضالاً. ولكن هناك

ما هو أسوأ من ذلك.

أخذ نازيل نفساً قصيراً قبل أن يعلن:

- لقد اختطف ابنه؟ طفل عمره ثلاثة عشر عاماً. والأسوأ:  
يبدو أن خاطفيه يستعدون لتقديمه قرباناً.

- ابنه؟ مختطف؟ هلا وضحنا!

في جمل مقتضبة، عرض المستشار الأمر على الملك، دون إسقاط لأي تفاصيل، ثم صمت مطأطأ رأسه كأنه مذنب ينتظر جزاءه.

على عكس المتوقع لم يغضب سارييل ولم يوبّخه.  
وسأل بصوت هادئ:

- هل لدينا أي فكرة عن هوية هؤلاء المجرمين؟ هل من قرينة؟  
رد نازيل بالنفي.

- في هذه الحالة، لیتم في الحال تفتيش جميع المنازل في البلاد! جميعها، دون استثناء. ولتنكش الأرض إن استدعى الأمر، لكن يجب أن نستعيد هذا الفتى.

انقل هذا الأمر فوراً إلى الرئيس المكلف بالأمن المدني. وإن  
احتاج إلى تأكيد فليأت إلي! اذهب يا نازيل! فوراً! اذهب!

## البحرين

بعد ثلاثة آلاف عام ايلول / سبتمبر عام ١٨٧٩

«هذه من بقايا جنة عدن» .

مرّت ثلاثة أشهر والعقيد دوران ما انفك يفكر في هذه الشجرة الغامضة . وفقاً لـ جون كاي أحد زملائه الملمّين ببعض أصول علم النبات، والذي أطلعه على اكتشافه، فالشجرة يحتمل أنها من فصيلة مشهورة بقدرتها المذهلة على التكيف في البيئة الصحراوية وتستطيع جذورها أن تضرب حتى عمق ثلاثين متراً في الأرض . ويمكن لهذه الشجرة أن تنمو حتى وإن كانت المياه الجوفية مالحة . أما المصدر الثاني الذي تستمد منه الماء، وفقاً لـ جون كاي أيضاً، فيمكن أن يعود إلى رطوبة الجو الكثيفة خلال الليل حينما تفتح الأوراق مسامها، وهو افتراض محتمل إن أخذنا بعين الاعتبار أن البحرين تتمتع بدرجة عالية من رطوبة الجو على مدار العام .

كل ذلك محتمل . ولكن كيف لنا أن نفهم قدرة هذه الشجرة المعزولة في وسط الصحراء<sup>(١)</sup> على البقاء . من يعلم؟ لعل علماء

---

(١) تم حل اللغز فيما بعد، راجع مقال «بيار لومبار» <http://archeorient.hypotheses.org/377> حيث تم التوافق حول تعريف هذه

النبات، يستطيعون تفسير هذا اللغز يوماً ما .  
وجد دوران صعوبة في استعادة حبل أفكاره واستئناف عمله :

المنازل الحالية القائمة في «عالي» مبنية، دون شك، فوق مبانٍ قديمة . خارج القرية، نلاحظ مجموعة من القباب المخروطية، فريدة الهيئة، أود أن أجذب انتباهكم إليها . (مرفق رسم بياني، لعله ليس بالدقة التامة). تربو هذه القباب على الثلاثين . بعضها كبير، وبعضها صغير، لكنها بارتفاعات مختلفة تجعلها مرئية . لم يكن لدي وسيلة لقياس أبعادها . لكنني أقدّر أن ارتفاع أكبرها في حدود ٥٠ قدماً وعرضها عند القاعدة في حدود ٤٠ ياردة . وهي متماثلة بشكل غريب خاصة عند قممها التي غالباً ما تكون مسننة . للحظة ظننت أنني اكتشفت آثار معبد . لكنني أدركت سريعاً أنني مخطئ . تلك التلال المتتالية على شكل عُقَلٍ سلسة لا يمكن أن تكون سوى قبور . وكنت قد كتبت، منذ بضعة أسابيع، عن هذا الموضوع .

«تلك المجموعة من القباب ذات الهياكل المنتظمة المستديرة، لا تخص منازل عتيقة كما يدعي الأعراب، لكنها قبور فقط» والدليل على ذلك أنني لم أشاهد أي كتل من الأحجار بالعدد أو الحجم الذي يسمح ببناء ولو منزل واحد .

لقد سمعت من العرب أن هناك آثاراً عديدة في منتصف الجزيرة، وأكد لي رجل أنه وجد بقايا أحجار بناء وأعمدة بالقرب من منجم للملح . وسوف أتأكد من ذلك .

---

الشجرة تحت مسمى *Prosopis juliflora* (جاف بالعربية و *mesquite* بالإنجليزية) وهي فصيلة من أصل أميركي، وليست للغرابية من فصيلة *Prosopis cineraria*، الأكثر انتشاراً في الشرق الأوسط .

ولكن فلنعد لقباب قرية «عالي»، يجب أن أوضح أنني ذهبت خلال زيارتي، لتفقد أكبرها دون أن أكتشف شيئاً مهماً. إلا أن مثابرتي كوفت بعد ظهر ذات يوم، إذ وجدت مدخلاً مخفياً أسفل حجر مستو في إحدى القباب قرب قمتها. لكنها، للأسف، كانت مسدودة بأحجار تساقطت.

بمعاونة العرب، نجحنا في فتح ثغرة ليظهر ممر عرضه حوالي ستة أقدام. كانت الحوائط، المحفوظة بحالتها الأصلية، مكوّنة من أحجار كبيرة الحجم جداً ومغطاة بمزيج ما. وكان معظمها من الصلصال الصلب. إلا أن آثار الزمن عليها محت أي كتابة مهما كان عمق حفرها.

هذا الصباح، عند الفجر، فتحت قبراً آخر. وسوف أقدم تقريراً عنه فيما بعد. إلا أنني أستطيع أن أحدد أنه أحد أصغر القبور المكوّنة للدائرة، وبدا لي غريب التكوين.

يلحّ عليّ سؤال جوهري: إن كانت تلك القباب المقدسة بالآلاف قبوراً، وبما أنه لا توجد آثار لمنازل قديمة، فأين كان يعيش السكان؟

(٩)

أحس شاكروماش بألم في عينيه من طول دراسته للأوراق . منذ فترة . بدأت الأشكال الغربية تتراقص على ضوء مصباح الزيت . لكنه تمكن ، رغم كل شيء ، من إعادة كتابة فقرة مهمة من النص ، إلا أن المعنى الدفين ما زال على ذات الدرجة من الغموض .

أعاد القراءة ببطء ، وبصوت خفيض :

«رد الرجل العقرب :

- إنك تهذي يا جلعامش ! ما من بشر قادر على القيام بهذا السفر ( . . . ) على مدى اثنتي عشرة ساعة مزدوجة مؤلمة ( . . . ) في قلب ظلام دامس ، رحلة مرعبة حيث الليل لا ينتهي !  
أصرّ جلعامش :

- لا يهّم ! عبر الأحزان و ( . . . ) الحر الخائق ، سأذهب . اسمح لي بالمرور إلى هذا الجبل ! ( . . . ) أعلن الرجل العقرب :

- ليكن ! سأتركك تمر . متمنياً أن تصل إلى مرتفعات « ماشو » .  
وأن خطواتك ( . . . ) إذهب ، الجبل في انتظارك !

انحنى جلعامش واتجه غرباً . بعد ساعة مزدوجة ، غطى الليل بمعطفه الأسود كل شيء . ثماني ( . . . ) غير قابلة للتغيير . وحينما

بلغ رأس التسع ساعات المزدوجة، أحس بنسيم الصباح يداعب  
(...) لكن ما من ضوء.

بعد عشر ساعات مزدوجة، أيقن أن الزمن (...) كان (...).  
عند الحادية عشرة، قام (...) النهار (...). أمامه، من أعلى  
مساحة من المياه الصافية يقف (...) عجيب، بدلاً من الفواكه،  
مجوهرات مذهلة، وبدلاً من الأوراق حليّ (...) من اللازورد.  
لكنه لم يتمكن من الاستمتاع ب (...) أسدان يسدان الطريق،  
يتأهبان ل (...).

بعد ذلك، سقطت فقرات عديدة حتى هذه:

« (...) صوت شاماش، إله الشمس، دوى بقوة الرعد:

- جلعامش، أراقبك منذ فترة. أنت (...) الحياة التي تصبو  
إليها، أنت لا (...) انسحب! مسعاك مآله الفشل»

منهك القوى، أزاح شاكروماش ورقة النخيل التي نقل إليها  
ترجمته وترك المنضدة التي كان يعمل عليها.

إلا أنه لم يقو على بلوغ سريره، فنادى:

- شاباكا!

هل كان العبد، أبنوسيّ البشرية، ينتظر خلف الباب؟ دون شك.  
وإلا كيف نفسر ظهوره أمام سيده بهذه السرعة.

- ساعدني، أرجوك، في الوصول إلى غرفتي. أنا متعب،  
متعب للغاية.

مرّر شاباكا ذراعه أسفل كتفي شاكروماش وحمله بلطف. وفور  
أن تمدد شاكروماش غطاءه بغطاء من جلد الماعز.

- أنت تعمل أكثر من اللازم سيدي، ليس هذا من العقل. سوف  
تمرض مرة أخرى.



- وارد جداً. لكن، في المقابل، أؤكد لك أنني لن أموت. ليس قبل أن أنتهي من مهمة ذات شأن، جوهرية، لعلها الأكثر إثارة في حياتي كلها.

- هل تسمح لي، سيدي، أن أسأل ما هذه المهمة؟

- شفاء صديق.

استغرب شاباكا واستدارت عيناه.

- لكنك لست طبيياً. كيف... .

- هيا، اتركني الآن. جفوني ثقيلة. ثقيلة جداً... .

\* \* \*

مع إشراقة الصباح دلف المركب إلى الميناء.

وهتف صوت:

- إلى الميناء! لقد عادوا!

مرّت ريح على الخليج حاملة الخبر السعيد، الذي انتشر عبر طرقات آتارك، انسلّ بين الأزقة والأسواق وعلى أسطح المنازل وتكرر هذا النداء في كافة الأرجاء:

- إلى الميناء! لقد عادوا!

رغم الساعة المبكرة، خرج السكان من المنازل، معظمهم نساء، وأخذوا يهرولون نحو الخليج.

آنام بدورها كانت قد سمعت النداء. هي أيضاً، رأت ببصيرة يشحذها الأمل تراقص المركب على حافة الأمواج. وبقلب متسارع النبض تركت المنزل ممسكة صغيرتها من يدها وجرت نحو المرفأ، شاكرة إنزاك سيد دلمون من صميم قلبها. اخترقتا الجموع وتقدمتا حتى طرف الرصيف. وبينما كان المركب يقترب وملامح الصيادين تتضح، تساءلت امرأة:

- هل من غائب؟

سؤال مملوء بالتخوف، يتكرر عند كل عودة، يحمله ربح القلق.  
بعد قليل، بدأ أول الرجال في النزول. كانوا يتقدمون،  
شاحبين، مشدودي القسّامات، وجوههم لفتحها الشمس، بين  
الزوجات والأطفال الذين هرعوا من كل تقاطعات الطرق، عيونهم  
زائغة، يترنحون كأنهم سكارى.

- بابا!

تعرفت ميلا على والدها أولاً.

زاحمت كل من حولها وقفزت نحو تسورا.

أما آنام، فتأخرت لحظات قبل أن تحرك قدميها لفرط ما أثقل  
الانفعال. هذا الخليط الذي يدق عن الوصف من التوجس والسعادة  
المستعادة.

كان أوسر أول من احتضن والدته.

ثم اختلط الأربعة في كيان واحد.

- كم كبرت! صاحت آنام متفحصة ابنها. كم تغيرت!

بالفعل، تغير أوسر، بشكل يصعب تصديقه جسدياً بالطبع.  
فلاقتصار مأكله على البلح، والشُعيرية، والأسماك، على مدى  
أسابيع فقد كثيراً من وزنه. كما كان هذا البريق الجديد الذي يلمع في  
مقلتيه، بريق يجسد البحر، والشمس، والأمواج. في أسابيع قليلة  
كان المراهق قد أصبح رجلاً. وأدركت آنام أن ابنها كبر، ولن يعود  
كما كان أبداً.

ثم قالت لزوجها:

- كم تبدو متعباً!

تحسّست وجهه وقبلته، وكما في كل عودة وجدت طعم الملح على بشرته.

- عودوا إلى المنزل، قال تسورا، سوف أُلحق بكم.  
- لن تسافر مرة أخرى، احتجت ميلا، لقد وصلت لتوك.  
- لا يا حبيبتي. لكن لديّ عمل عليّ أن أنجزه. أعدك أنني لن أتأخر.

- الصيد ليس كل شيء، أضاف أوسر بنبرة العارف بالأمور.  
يجب أيضاً بيع حصيلة الصيد.

قَبِل تسورا جبين ابنته، ولوّح مودعاً لأنام ثم عاد إلى رفاقه.  
في واقع الحال، لم يكن أوسر مخطئاً. الآن تبدأ المرحلة الثانية، ولعلها الأدق، مرحلة التفاوض على سعر اللآلئ التي عادوا بها. فالتجار وصلوا وتجمعوا حول المراكب ورهانهم الحصول على أجمل اللآلئ، قبل بدء المزادات، وقبل أن يدرك القبطان قيمتها الحقيقية. وكان التجار يتنقلون من مركب إلى آخر، مبدّين كرمهم في صورة خروف هنا أو لحم غزال هناك أو في شكل لبن أو قمع على مركب آخر وذلك مقابل الحصول على أنباء عن الصيد. تراهم يتحسسون اللآلئ، يعضون بعضها بأسنانهم، يتأملونها في راحة أيديهم، يقدفونها إلى أعلى قليلاً، يضعونها على المناضد، يقفون ليمعنوا فيها النظر عن بعد، ثم يمسكون بها مرة أخرى، ويتشتمّمونها. بعضهم يصعد إلى سطح المركب، وفي هذه الحالة تمتنع المنافسة على الشراء. فلا يسمح لأي تاجر آخر بالصعود إلى المركب حتى لا يزاحم التاجر الذي صعد قبله، وينتظر الباقيون على مسافة معقولة حتى ينتهي زميلهم من عملية.

لكن في الحقيقة تم المبيعات المهمة على الأرض.

كان ثلاثة من المشتريين منهمكين في نقاش مع قبطان المركب الذي أبحر عليه. كان ثمة طقوس لا بد منها عمرها آلاف السنين. قام أحد المشتريين بتفحص كل لؤلؤة على حدة كي لا تتأثر الواحدة بما قد يضيفه عليها بريق سائر اللآلئ. ثم حانت لحظة تقديم الأسعار.

غطى القبطان والمشتري الأول أيديهم بقطعة قماش وتبادلا الإفصاح عن العرض والطلب في صمت تام، بمجرد الضغط على هذه السلامى أو تلك الإصبع وفقاً لرموز متفق عليها بينهما. فالبائع والمشتري لا يتواصلان لا بالكلمة ولا بالنظرة، ولكن باليد فقط.

\* \* \*

## آلباش

دخل ياكين القرية مع شروق الشمس وانتشار أشعتها الذهبية على واجهات المنازل. أوقف بغلته وترجل، من ناحية الغرب رأى المعبد والمذبحين. بينما امتدت في خلفية المشهد حديقة مخضوضرة وكان يُسمع صوت تدفق مياه نبع من بعيد.

ربط البغلة إلى جزع نخلة وانطلق صاعداً مطلع الشارع الرئيس. مر بمخزن قائم عن يمينه على شاكلة المخازن العديدة المنتشرة في دلمون، حيث كان التجار يودعون بضائعهم تمهيداً لتصديرها إلى بلاد ما بين النهرين أو إلى بلاد أخرى أكثر بعداً سمع عنها ياكين ولم يزرها.

لكن ياكين الذي سبق له أن دخل أحد هذه المخازن في الماضي، كان يعلم أنها تحتوي على منتجات خزفية متنوعة وأخرى

مصنوعة من النحاس أو الخزف أو العقيق الأحمر وأيضاً من الأحجار الكريمة مثل اللازورد.

باب المخزن من الخشب المصمت، يقف أمامه رجلان يقومان بالحراسة وقد علّق خنجر في حزام كل منهما، والباب منحوت على واجهته ثور ذو حدبة غريب الشكل.

- هل تبحث عن أحد؟ بادره بالسؤال مرتاباً، أحد الرجلين: وكان قصير القامة، أصلع، بطيئاً.

- نعم، صديق. إسمه إجميل.

استدار الرجل نحو زميله، وهو عكسه تماماً في البنية: ممشوق القامة، نحيف، وانفجر ضاحكاً:

- هو يبحث عن إجميل.

- لعله لم يره منذ فترة!

رفع الحارس النحيف يده مشيراً إلى الأفق.

- إجميل هناك.

واستطرد مبتسماً:

- لكنك لن تستطيع محادثته، فهو مُنْشَغَلٌ بتغذية ديدان الأرض.

افتعل ياكين الدهشة:

- هل مات؟

- أوه، نعم. مات تماماً!

- متى توفي؟

- لست أدري، منذ أيام. ولم يمت خلال نومه في فراشه. فقد

وُجِدَتْ جثته وبها سهْم مستقر في منتصف ظهره. شخص أراد به خيراً دون شك!

وانفجر الرجل ضاحكاً، معبراً عن سعادته بما أطلق من دعاية.

- يا له من أمر محزن! هل قبض على الجاني؟ سأل ياكين.

رد القصير الأصلع مغتاضاً:

- اسمع، أنت تكثر من الأسئلة. نحن لا نعرف عن الأمر شيئاً.

لماذا لا تذهب لاستجواب زوجته؟ فهي تسكن في شارع إلى اليمين، المنزل المقابل لصومعة الحبوب. لن تخطئه، فهو أكثر المنازل بؤساً في آلباش.

هز ياكين رأسه معبراً عن الشكر، وعاد على عقبيه.

فور وصوله أمام المبنى بعد لحظات لم يسعه إلا الإقرار بأن

الرجل كان على حق. فالمنزل في حالة يرثى لها، والحوائط

متصدعة، وللمرء أن يتساءل إن كان السقف المكوّن من سعف

النخيل قادراً على منع تسرب المياه بأي شكل كان. حقاً، إن المطر

نادر في دلمون، لكن ما بين شهري «تبييتس» و«آيارو»<sup>(١)</sup>، إن هطل

المطر فسرعان ما كان يتحول إلى سيول.

تقدم نحو الباب وطرقه طرقتين. ولما لم يجبه أحد، طرق مرة

أخرى.

- من الطارق؟ هتف صوت أنثوي من وراء الباب.

- اسمي ياكين. أنا الآسو.

- ما من مريض هنا! لسنا بحاجة إلى طبيب. انصرف!

- أنا صديق قديم لـ إجميل! أتيت من بعيد. بلغيه اسمي، سوف

يؤكد لك ذلك.

خيّم سكون لانهائي قبل أن ينفرج الباب عن امرأة ثلاثينية، ذات

---

(١) ما بين ديسمبر/ كانون الأول ومايو/ أيار.

شعر مجعد مستديرة الوجه، تفحصت ياكين بنظرة يختلط فيها التوجس بالفضول.

- ألا تدري؟ سألت ببطء.

رد كاذباً:

- أدري ماذا؟ أليس إجميل بالدار؟

ترددت المرأة، وعندما همّت بدعوته للدخول، ظهر طفل فجأة،

وسأل:

- هل عاد أبي؟

- لا يا حبيبي، لم يعد بعد. اذهب، اتركنا رجاءً.

أبدى الطفل استياءه وانصرف.

- أمر غريب، لم أرك في دارنا من قبل، ولم يحدثني عنك قط،

هل أنت فعلاً صديق إجميل؟

أكد ياكين الأمر، بينما أخذ يتفقد الغرفة بنظره. ثلاثة مقاعد،

منضدة صغيرة، وفي أحد الأركان مستوقد صغير محفور في الأرض

يقوم مقام مطبخ.

استطردت المرأة بصوت خفيض، كسير:

- إجميل مات!

- كيف؟ ماذا ألمّ به؟

- تم اغتياله!

ثم أشارت إلى الباب:

- تستطيع أن تغادر الآن.

إلا أن ياكين أسرع بالسؤال، متظاهراً بعدم السمع.

- هل من أحد يمقته لدرجة قتله؟

- لماذا يكون لراعي غنم أعداء؟ إلا أنه، إحقاقاً للحق، كان

منذ فترة في خدمة أناس غرباء، أناس وعدوه، على حد قوله، بحياة أفضل.

وردت:

- حياة أفضل!

- ألم تريهم أبداً؟ هل تعرفين أسماءهم؟

هزت المرأة رأسها بالنفي.

- كل ما فهمته أنه كان يقابلهم في مكان على بعد ساعة من هنا. في «سيرام». ليلاً في معظم الأحيان.

ثم همست، خافضة عينيها:

- ذات مرة، عاد إلى المنزل وملابسه ملطخة بالدم. أصابني

الهلوع، وخِفْتُ كثيراً. اعتقدت أنه أصيب بسوء. ولما سألته، أجابني أنه قدم خروفاً أضحية لكهنة سيرام.

أرادت أن تضيف شيئاً، إلا أن العَبْرَات خنقتها فانفجرت باكية.

اعتراه شعور بالندم وأسف لما سببه لها من حزن، وقال:

- إن كنت في حاجة إلى عون، اسمي ياكين. ستجديني في

آتارك.

- وأنت حقاً آسو؟

- بكل تأكيد!

وانسحب محيياً المرأة.

«كهنة سيرام»!

ظلت تلك المعلومة تدور في خلدته على مدى الطريق وبعد عودته

إلى المنزل.



## البحرين

بعد ثلاثة آلاف عام، آذار / مارس عام ١٨٧٩

«رغم وجود أصناف عديدة من الأسماك في المياه العذبة إلا أن هناك نوعية بعينها جذبت انتباهي. زعانفها مغطاة بشرائط مستديرة أو بيضوية، داكنة اللون، في تباين لافت مع قشورها الفضية. أكبر سمكة شاهدتها من هذه النوعية لم يتجاوز وزنها بضع أوقيات. وقد تناهى إلى مسمعي أن تلك النوعية اكتسبت ألوانها من طول سباحتها في هذه المياه البلّورية الضحلة، التي يظللها سعف النخيل. إلا أنها فرضية «داروينية» إلى حد بعيد، نظراً إلى أن الأسماك، وإن كانت تكتسب ألوانها وفقاً للوسط الذي تعيش. فلا يمكن بأي حال أن تتخذ الشكل الذي يميّز هذه النوعية.

خلال الأسابيع الماضية، ركز الرائد دوران اهتمامه على تلال جنوسان. وهي تلال تميزت باتساق استقامتها وارتفاعها<sup>(١)</sup>. حقاً، ثمة مبالغة في إطلاق صفة تلال على تلك الروابي الرملية البالغ

---

(١) لن يكتشف علماء الآثار، الحقيقيون، أنها مقبرة كبيرة، إلا بعد وقت طويل.

ارتفاعها عشرة أمتار في المتوسط، والواقعة على مسافة تقل عن كيلومتر واحد شمال طريق البُديع - المنامة.

كيف تكوّنت؟ أخذ دوران يبحث عن تفسير لهذا التساؤل.

لعلّها تكوّنت بفعل الرياح؟ حيث إن الرياح السائدة على الجزيرة رياح شمالية غربية تسمى الشمال، تأتي من شبه الجزيرة العربية. وهي رياح مستمرة طوال العام، وتشتد بين شهري شباط / فبراير وحزيران / يونيو، محمّلة بالرمال، ولها بالتأكيد دور حاسم في تشكيل تضاريس الجزيرة إما بالإزالة أو بالبناء.

إلا أن ملاحظة أكثر دقة، تناقض هذه الفرضية: ذلك أن تلال جنوسان تقع داخل الأراضي، وهي محمية من رياح الشمال بمزارع النخيل المحيطة بها، وبالتالي لا يمكن أن تكون قد تشكلت على هذا النحو.

لعلها من بناء الإنسان؟ لمّ لا؟ وإن كان الأمر كذلك، فلأي هدف؟ شكلها الخارجي وحجمها يتوافقان مع قباب قرية «عالي»، وإن اختلفت في تكوينها من حيث إن هذه القباب مكونة من الأحجار، أما تلال جنوسان فقوامها رملي صرف.

من جانب آخر، كان دوران قد لاحظ أن سكان دلمون اعتادوا على تخصيص السهل الساحلي للمعيشة، تاركين المساحات القاحلة فوق الهضبة الداخلية لمدافن الموتى. وعليه، فإن تلال جنوسان تناقض تلك القاعدة، مما يؤكد أنها ليست مقابر. هو سِرٌّ إذن! سِرٌّ إضافي.

توقف دوران عن الكتابة ليلقي نظرة على ساعته حيث أشارت

العقارب إلى الثانية بعد الظهر. يا إلهي! لم يشعر بمرور الوقت! لا بد أن، دليله قد عيل صبره! هبّ واقفأً. وانطلق خارج المنزل. فعلاً، كان سليمان في انتظاره ومعه حصانان على باب المنزل.

لم يتطلب الأمر كثيراً من الفطنة ليدرك الدليل أن ركوب الجمال ليس من الأنشطة المفضلة لدى الإنجليز.

- أعتذر بشدة يا سليمان.

- لا عليك سيادة الرائد. الله فقط يتحكم في الوقت. أما زلت

تريد الذهاب إلى «بلاد القديم»؟

- نعم. لقد سمعت عن مسجدٍ فيه حجر غريب مغطى بنقوش

مجهولة!

- هل تعني مسجد أبو زيدان؟

- تماماً.

وأضاف بابتسامة تشي بالسأم:

- لن يكون سوى المسجد الواحد والعشرين الذي أزوره!

- هو ليس ببعيد. ساعة سيراً على الأقدام. أو أقل على ظهر

الحصان.

- الجو حار على المشي. رد دوران مبتسماً.

- طمئني سيادة الرائد، أنت لا تنوي إطلاق قذائف على القرية!

إذ قد يجرّ ذلك عليك كثيراً من المتاعب<sup>(١)</sup>.

انفجر الإنجليز ضاحكاً:

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن دوران، الذي لم يكن عالم آثار، كان قد دأب على إطلاق قذائف مدافعه صوب القباب، بغرض إظهار القبور، أو ما تبقى منها.

شيء غير الموتى .

وامتطى أحد الحصانين .

بعد أقل من ساعة، دخلا «بلاد القديم» .

تقع القرية في قلب منطقة غنّاء، فيها العديد من حقول القمح والشعير، وكميات هائلة من أشجار النخيل فضلاً عن بساتين وحدائق مزهرة .

نزلا عن حصانيهما وترجّلا .

كان الأطفال يلعبون في الحارة، وعازف يداعب الأوتار الأربعة لقيثاره، وبائع فواكه يفترش الأرض، معدّداً محاسن بضاعته .

اقترب سليمان من أحد المارة وسأله :

- السلام عليك يا أخي . هل تعلم أين يقع مسجد «أبو زيدان»؟

أشار الرجل نحو نقطة في الأفق :

- أمامك، ثم إلى اليسار . مسافة مئة متر . لن تضلّ طريقه، فهو يقع بجوار بئر ويكاد أن يكون متداعياً .

اقترب الإنجليزي، متقدماً، من مدخل المسجد، وشرع في خلع حدائه .

حذا سليمان حذوه . وبينما هما بالدخول من الباب، استوقفهما

صوت :

- أنتما هناك! توقفا!

اقترب منهما رجل في الأربعين، ملتج، وجهه مهزول، يعتمر عِمّةً . وبعد أن تفحص الرائد بارتياح، قال :

- أنا الشيخ أحمد عبد الرحيم، شيخ البلد، عمّ تبحثان؟  
ردّ سليمان :

- الرائد يرغب في زيارة المسجد .

تردد الشيخ وحكّ ذقنه عدة مرات قبل أن يرد :

- ادخلا .

لبيّ الدليل والإنجليزي الدعوة .

أول ما لفت نظر دوران كتابات بالخط الكوفي<sup>(١)</sup> تتبدّى، هنا وهناك، على مدى الحوائط، تحت طبقات من الجبس . إذ لم يكن من الصعب استنتاج أن هذه الأحجار مجمّعة من مواقع متباينة أكثر قديماً . (فيما بعد، ندم دوران لكونه لم ينقل النصوص الكوفية المنقوشة) .

سأل دوران الشيخ :

- حدثني أحدهم عن حجر مغطى بالنقوش . هل سمعت عنه؟

هز الشيخ رأسه :

- نعم . هل تريد أن تراه؟

وإذ بادر دوران بالإيجاب، أضاف الشيخ :

- تعال، اتبعني .

لم يذهب بعيداً . في مؤخرة المسجد، إلى اليمين، محراب محفور في الحائط .

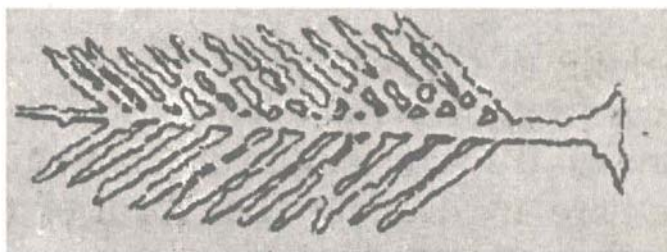
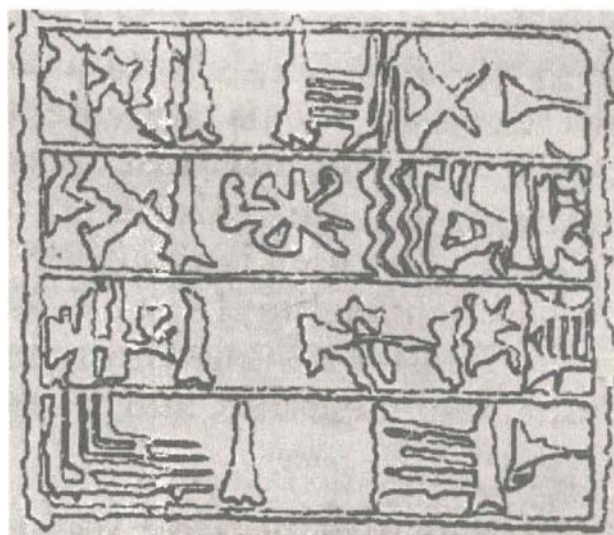
- هذا المحراب يشير إلى اتجاه القبلة، شرح سليمان . هو يحدد وجهة مكّة التي . يتجه نحوها المصلون عند الصلاة .

- هذا هو الحجر الذي تبحث عنه . صرّح شيخ البلد، موجهاً سبّابه نحو الأرض أسفل الكوّة . هو مدفون جزئياً، لكنك تستطيع مشاهدة النقوش المحفورة عليه بوضوح .

---

(١) خط استخدمه العرب قبل القرن الرابع من الهجرة لكتابة القرآن الكريم، وللنقوش على الآثار والعملات .

ر kec دوران فوق الرمال. لقد صدق الرجل. إنه حجر من  
 البازلت الأسود، ممدد على الأرض، يبلغ ٣٢ سنتم طولاً، و١٢  
 سنتم عرضاً. يشبه مقدمة مركب، أو لسان حيوان. نحو الطرف  
 الأقل سمكاً تظهر رسمة تشبه عظام سمكة أو سعفة نخل. وداخل  
 مربع كتابة مسمارية لم يتمكن دوران من فك رموزها فأخرج مفكرته  
 ونقل ما كان أمامه.



لما انتهى سأل الشيخ :

- أرغب كثيراً في شرائه . كم تريد ثمناً له ؟

أبدى شيخ البلد امتعاضاً شديداً :

- الحجر ليس للبيع ! مطلقاً !

لم يتردد دوران للحظة واحدة . وقرر أن يلجأ إلى الحيلة .

- لكن ، قال بنبرة معسولة ، إنه نُصِبَ جاهلي كافر! ألا يُعتبر

الاحتفاظ به في مكان مقدس مثل هذا المسجد رجساً مييناً؟

وأضاف :

- وفقاً للنص المحفور ، كان مملوكاً لقوم من عبدة النار ،

وثنيين . مما لا شك فيه أن الاحتفاظ به داخل المسجد ضرب من

التجديف .

أشار إلى الحوائط المتداعية ، وأضاف :

- تستطيع أن تصلح المسجد كله بالمبلغ الذي أعرضه عليك .

مرّر الشيخ يده على لحيته عدة مرات ، كمن يفكر تفكيراً عميقاً ،

وسأل أخيراً :

- كم تعرض ؟

- خمسين روية

- بل مئة ، زايد أحمد .

- اتفقنا . لكن عليكم استخراجه من الأرض . وتسليمه لي في

المنامة .

أوماً الشيخ موافقاً .

شكره دوران وأستاذ من منه .

بعد أن خرجا من المسجد ، سأله الدليل :

- هل ما قلته حقيقة يا سيادة الرائد؟ هل هذا الحجر ملك لعبدة

النار؟

- طبعاً لا يا صديقي! كيف لي أن أعرف ذلك!

- إذن، لقد كذبت!

- لنقل إنني حوّرت الحقيقة، رد دوران بهدوء.



آتارك.

- أطلب منك العفو يا شاكروماش!  
بفعل الضوء الخافت لمصباح الزيت والرفوف بدت الحوائط  
والأثاث والأرفف، بل الغرفة كلها، بل قسامات الرجل العجوز  
أيضاً، بدت كلها متشحة باللون الأصفر.  
ركز شاكروماش نظرة حنان على ياكين، ثم نهض من مكتبه  
وتوجه نحوه واحتضنه طويلاً.  
- افتقدتك يا صديقي! أهلاً وسهلاً بك.  
- تصرفتُ كالأبله. وتكلمت والغضب يسيطر عليّ. أرجو أن  
تنسى ما قلت.  
ابتسم شاكروماش:  
- الصديق الأمين هو الذي لا يخشى، في سبيل تنبيهنا، أن  
نغضب منه، تعال.  
أخذ الطبيب بذراعه، واتجه به نحو مقعد، وجلس قُبالة.  
- كيف حال إيشا؟  
- لا أفضل ولا أسوأ.

- أتصور ألمك وأتألم معك. لقد أعدت التفكير ملياً فيما قلته لي ذلك اليوم في الميناء و... .

- أرجوك يا شاكروماش، لقد أخطأت.

- لا يا صديقي! كنت على حق. فلتطول عيشي وحيداً، تبيست! لا أدري، وأعترف بذلك، ما إذا كنتُ مؤهلاً لأكون أباً صالحاً، بل أتشكك أكثر فيما إذا كنت قادراً على أن أكون زوجاً صالحاً.

لكن، على الأقل، لو كُتِب لي ذلك، لكنت قد انشغلت بأمور أهم من أن أتفرس في سُرّة بطني صباح كل يوم!

طوال حياتي، فضلت القراءة والاستزادة من المعرفة. لكن اليوم، وقد أدركت غروب حياتي، واقتربت النهاية، أيقنت أن ما من وثيقة أو كتاب سيمسك بيدي في لحظات الوداع.

فجأة، كمن استفاق من سُبات، سألت:

- ما أخبار واراك؟ هل وجدتموه؟

هز ياكين رأسه نافياً.

- توجهت إلى منزل مرشد نازيل، وتحدثت مع زوجته. وقد أسرّت لي أن زوجها بدرت منه تصرفات غير طبيعية قبل وفاته. فقد اختلط بمجموعة من الكهنة في سيرام، وعاد ذات ليلة وملابسه مُلَطَّخَةً بالدماء. وقال لها إنه شارك في ذبح خروف كقربان لهؤلاء الكهنة.

قَطَّب شاكروماش حاجبيه.

- كهنة؟

- تماماً. ولما كان في الأصل راعي غنم، أفترض أنه كُلف بإحضار الأضحية. لا أرى تفسيراً آخر.

- لا أفهم هذا الأمر. هل أخبرت نازيل؟

- حاولت أن أتواصل معه، دون جدوى. سوف أعاود زيارته هذا المساء.

تنهّد العجوز.

- لنصلّ من أجل عودة وارك ومن أجل أن يزول هذا الكابوس.

- نصليّ، كرر يا كين. لا أفعل شيئاً غير الصلاة منذ فترة.

أمسك شاكروماش يد صديقه بتلقائية، وقال بحماس:

- أعرف شكوكك، وأعلم تحفظاتك حيال المعتقدات والآلهة.

لكن، أرجوك، حتى وإن بدا لك الأمر غريباً، اعتبرها حقيقة أن «من يطلب ينل» وأن «الأبواب تفتح لمن يطرقها».

أما الآن فأود أن أحيطك علماً بشيء آخر.

ترك شاكروماش مقعده وتوجه نحو المنضدة التي يعمل عليها.

أمسك بإحدى الوثائق الجلدية المفرودة وعاد نحو يا كين.

قال ببطء:

- لقد بذلت جهداً كبيراً في العمل...

توقف، ورفع يده كمن يريد استباق ردّ فعل صديقه.

- أرجوك، لا تقاطعني. لعلها أسطورة. لكن بين الأسطورة

والواقع أميل أحياناً - ولعله ضعف من جانبي - أن أصدّق الأسطورة!

أنصت:

« جلامش أراقبك منذ فترة. أنت [...] إن الحياة التي تصبو

إليها، لن [...] استسلم! مسعاك مصيره الفشل.

- لا! أرفض أن يعود جسدي إلى التراب! لا! [...] التأمل

في النور! [...] أريد أن أعيش!

أخذ جلعامش نفساً عميقاً [...] .

بعد مرور العديد من الساعات المزدوجة، وصل إلى [...] بحر واسع، حانة [...] على شاطئ البحر. مبنى متواضع [...] يديره سيدوري [...] .

قاطععه ياكين :

- سيدوري؟ من هذا؟ أو هذه؟

- كلمة تُلفظ سيدوري أو سيدورة، في لغتنا وتعني «الساقية». وبالتالي فلا بد أنها «إلهة النبيذ». والأمر معقول، ففي بلاد ما بين النهرين الحانة هي المكان المفضل للدعارة وتديرها نساء في معظم الأحيان...

لكن استمع إلى باقي القصة. فهي تستمر بعد مقطع طويل لم تتمكن من فك شفرته :

« - من أنت أيها الغريب؟ ماذا أتى بك في هذا المكان المحرّم على البشر؟

- اسمي جلعامش! أنا من صرَع الثور السماوي «هومبابا»، حارس غابة أشجار الأرز»

مرة أخرى، قاطع ياكين صديقه :

- لقد أضعتني يا شاكروماش. من «هومبابا» هذا؟

- لا أدري، ولا يهمّ. دعني أكمل ولا تقاطعني.

«- جلعامش [...] جاثياً عند قدمي سيدوري و [...] .

- قولي لي! أيتها الإلهة! قولي لي إن الموت لن يدركني! قولي لي

لي إنني سأعيش إلى الأبد!

الإلهة [...] :

- اعلم يا جلجامش، أن الآلهة حينما خلقوا البشرية، خلقوا أيضاً الموت. أما الأبدية فقد احتفظوا بها لأنفسهم.  
- أسمعك يا سيدوري، لكنني لا أنصتُ إليك. يا صاحبة الحانة، أنت يا من تعيشين عند شاطئ الأبسو، المحيط الكبير [..]، الذي يفصل بيني وبين زيوسودرا الناجي الوحيد من الطوفان.

أخبريني كيف لي أن أجتازه؟

- كيف تأمل أن تنتصر؟

- لأنني أريد ذلك. لأنه يتحتم علي أن أنتصر «

سكت شاكروماش ثم سأل:

- هل فهمت ما يرمز إليه هذا النص؟

- سوف أعطيك ذات الرد الذي أعطيته لك المرة الأولى: أقلّ

ما يقال عن هذا النص إنه مُشَوَّش.

- حسن، سوف أحاول أن أشرح لك ما يبدو جلياً.

صفق العجوز بيديه، وكفعل السحر ظهر شاباكا على باب

الغرفة.

- هل تأمر بشيء، سيدي؟

- الوقت متأخر. أحضرت سمكاً هذا الصباح، أليس كذلك؟

- نعم. أحضرت «هارو»<sup>(١)</sup> عظيماً. طازجاً تماماً.

- إذن، حَضْرُهُ لنا. وبسرعة.

- ليس لي، اغتَرَضَ ياكين. لست جائعاً على الإطلاق. ولكنني

مُنْصِتٌ...

---

(١) الهامور. نوع من الأسماك واسع الشهرة في البحرين في يومنا هذا.

- ما الذي يبدو جلياً لك في هذا النص أكثر من كونه وهمياً؟

أخذ شاكروماش نفساً عميقاً وأعلن:

- الأبدية. بطل هذه القصة يسعى خلف ذات الحلم الذي تسعى

إليه، الحياة الأبدية. الفرق بينكما أنه انطلق للبحث عنه، لم يكتف

بالحلم فقط. فهو يواصل السعي، هو يسعى متحدياً أصعب

المخاطر.

- مثل الثور السماوي هومبابا!

- إن كان يبحث عن زيوسودرا، الناجي من الطوفان. فلأنه

مقتنع بأنه يملك سرّ الحياة الأبدية. وإلا فكيف تفسر نجاته من

الطوفان.

- شاكروماش! صاح ياكين . عُد إلى رشدك! عمّ تتحدث! أنت

لا تُصدّق هذه الأسطورة؟

- أنا أطرح أسئلة فقط أتساءل. شيء واحد مؤكد: ذات يوم ،

في ماضي قديم، قدم النجوم والمجرات، حدث الطوفان، وغرقت

الأرض وكل الكائنات. وفيما يبدو، نجا شخص واحد.

تبسم الطيب:

- زيوسودرا... هو من أبلغك؟

- لا تستخفت بالأمر، أرجوك، أنا جادّ. وقد أكد لي القصة

مسافر قادم من بلاد ما بين النهرين، وقال إن غالبية السكان سمعوا

بهذه الفاجعة وأرجعوها إلى الآلهة. وكان لدى هذا المسافر لوح

محفور عليه هذه الجُمَل التي أعيدها عليك من ذاكرتي:

«اهدم بيتك لتبني السفينة! تنازل عن ممتلكاتك لتنقذ حياتك!

ابتعد عن أملاكك لتبقى سالماً آمناً. اركب السفينة ومعك زوج من

كل أنواع الحيوانات. على مدى ستة أيام وسبع ليال ضربت العواصف والأمطار الهادرة سطح الأرض».

وإذن، فإن كان الطوفان قد حدث حقاً كان جلجامش حقيقة هو أيضاً ولعله - وهنا أصل إلى بيت القصيد - وجد سراً الحياة الأبدية في نهاية بحثه.

مال شاكروماش إلى الأمام، وتراقص نور في عينيه عندما خلص إلى القول:

- تصوّر للحظة، لحظة واحدة: تصوّر: إن كان هذا السرّ موجوداً أمكن إنقاذ إيشا.

ران صمت طويل. تحجرت قسمات ياكين، وظهرت على وجهه علامات التوتر كأنما تلبّسه قناع بصورة نهائية.

- الوداع يا شاكروماش، يجب أن أجد نازيل.

\* \* \*

قصر ميلان في الوقت ذاته.

اشتعلت السماء فوق المدينة في غروب مهيب.

وبدت النجمة الأولى في الأفق، ذلك الكوكب البديع الذي يتفوق ضوؤه على سائر الكواكب المرئية، فيما عدا الشمس والقمر.

في ساحة القصر المربعة، أضاءت المشاعل المثبتة على رماح وجوه الضيوف الذين يربو عددهم على المئة، وهم الذين دعاهم الملك ساربييل. فكما جرت العادة، كل عام، خصص هذا اليوم، للاحتفال بالإله إنكي سيد المياه الجوفية.

كان قسم من الحضور يفترش الأرض، أما من أريد تشريفهم

فخصصت لهم مقاعد بجوار الملك. تلقى كل ضيف قارورة من الزيت المَعَطَّر ليغسل بها يديه قبل الوليمة وبعدها. وأشعل الخدم موقداً كبيراً لشيء اللحم وحرق الأعشاب العطرية. لا شيء ينقص هذه الوليمة: لحوم مشوية أو مطبوخة، تصحبها أقراص الخبز وأطباق الخضروات والسמיד والحبّ المجروش. خراف وحملان وحمّام وبطيعة الحال قدر هائل من الأسماك. ولإرواء المدعويين إلى هذه الوليمة خليط من البلح المُخَمَّر والمشروبات بنكهة الأعشاب الفواحة.

في ركن من الساحة جلس عازفٌ، في وضع القرفصاء، وشعره المتموج منسدل على ظهره، وهو يؤدي لحناً على ناي من الخشب الخفيف.

على المنضدة الرئيسيّة، ما بين الملك ونازيل، جلس أولام، الرجل الذي زار سارريل منذ فترة ليطمئنه إلى النوايا الطيبة للملك كاسو تجاه دلمون. إلى يمين الملك، لوحظ حضور، شابة سمراء، عيناها سوداوان على شكل لوزتين، وشعرها حالك السواد ينسدل أسفل ظهرها، وتبدو كمن لم تتجاوز الخامسة والعشرين. إنها زوجة الملك سارريل، التي لم تعرف في دلمون إلا باسم دلاما، الذي يعني، على ما يبدو، «دمية» باللغة الأكادية.

انتهز سارريل لحظة بدا خلالها الكاسو شارد الذهن فمال على نازيل مستفسراً:

- هل عثروا على نجل الطيب؟

- للأسف لا، يا مولاي. لكن، أؤكد لكم، لا لتقصير في البحث. فالمملكة، وإن لم تكن فسيحة الأرجاء، إلا أن أماكن الاختباء عديدة. وليس بمستبعد أيضاً أن يكون مقترفو الجريمة قد غادروا البلاد.



- لا أصدّق ذلك. فأنااس يقررون تقديم قربان بشري هم  
مجانين. والمجانين، أسرى لجنونهم، لا يهربون مقتنعين بأن العقاب  
لن يطولهم! هل فكرتم في تفقد مستعمرتنا في دامان؟

فتح نازيل فمه ليرد، إلا أن جسده كله تسمّر فجأة. لقد انغرز  
خنجر في صدره، في منتصف القلب. بعينين جاحظين حملق  
المستشار في السلاح غير مصدّق. تحركت شفتاه، وتفوّه بكلمة  
تحولت إلى لعنة نتيجة لتدفق الدماء من فمه.  
وأطلقت الملكة صرخة مدوية.

للوهلة أولى، تحت تأثير الذهول، تحول الضيوف إلى تماثيل،  
وكمن عصفت بهم ريح هوجاء انتشروا في الساحة في فوضى عارمة.  
تدافع النساء والرجال، كباراً وصغاراً، يدوس بعضهم على بعض.  
في محاولة يائسة لإيجاد ملاذ.

في ذات اللحظة، تقريباً سقط خنجر ثان من السماء في اتجاه  
ساريليل. لكن بدلاً من أن يصيب هدفه استقر أسفل ظهر الملكة  
الشابة التي هرعت في نوبة هلع، لاحتضان زوجها.  
بلغ الذعر مداه.

أما مندوب الكاسو، وقد تمكن منه الخوف تماماً، فاندفع أسفل  
منضدة الطعام، على أربع، يده فوق رأسه وهو يئن أنيناً خافتاً.  
عندئذ فقط اندفع الحرس. خلال لحظات انتشر عشرة منهم، في  
نصف دائرة حول الملك. فيما انتشر من تبقى منهم في الساحة في  
محاولة للإمساك بالذي، أو الذين تسببوا بهذه المأساة.

- هناك! انظروا! صرخ رجل. موجهاً سبابته نحو خياليين  
هاريين.

وانطلق نَفْرٌ من الحراس في مطاردتهما.

- مولاي، يجب العودة فوراً إلى القصر! أمر رئيس الحرس .

- زوجتي! رد سارريل . أنقلوها! استدعوا طبيباً . بسرعة!

- سمعاً وطاعة، مولاي . لكن عليكم مصاحبتنا .

حمل حارسان الشابة، فاقدة الوعي، بينما انطلق زملاؤهم بالملك ضارين طوق حماية بأجسادهم حوله .

عندما عاد الهدوء، غطى الليل المدينة وحلّ سكون تام محل الجلبة السابقة .

\* \* \*

وضع الحارسان دالاما على فراشها وجهها إلى أسفل ، وتم رفع ملابسها عن ظهرها حتى خصرها . جاثياً بجوار الشابة، أخذ ياكين في تفحص الجرح الذي أحدثه الخنجر . بدا أن الجرح ليس عميقاً، إلا أن ذلك لا يعني عدم إصابة أعضاء حيوية أخرى، وعندما لامس الطبيب حواف الجرح المتورمة أطلقت الملكة صرخة ألم .

- إذن أيها الآسو، هل ستنقذها؟ سأل سارريل نافد الصبر .

كان يقف خلف الطبيب، يشبك أصابعه ويفكها في عصبية، وقسماته مشدودة وكأنه في النزاع الأخير . لا ريب في أن دالاما تهمة كثيراً، فهي زوجته الوحيدة، والمحبوبة . بخلاف الملوك الذين سبقوه - بمن فيهم أبوه وجده - رفض سارريل تعدد الزوجات، بل رفض امتلاك محظيات .

وكان يختص دالاما بإعجاب متناه، إعجاب تضاعف مؤخراً، إذ منحته منذ شهر، وبعد أن أنجبت أنثيين، الوريث الذكر الذي كان

يحلم به . وهو ما آمن له وراثه عرش دلمون . قد أطلقا على الوليد اسم أشائل ، هو اسم والد ساريل .

ولما كان ياكين قد بقي صامتاً ، كرر الملك سؤاله بقوة :

- إذن؟ هل ستتقدها؟

- نعم ، مولاي . أنا . . .

- قبل كل شيء ، زعق صوت ، يجب الإسراع في حرق التوابل

والدعاء للإله ننجشزيدا لكي يبعد الشياطين المسيبين للمرض .

لم يكن الطبيب في حاجة لأن يستدير للتعرف إلى من قاطعه

بهذه الفجاجة : إذ من يكون سوى الآشيبو ، الساحر طارد الشياطين

الخاص بالملك .

- لسنا بصدد مرض ، قال ياكين بهدوء ، بل هو جرح نتيجة طعنة

خنجر .

- لا يهم ! لن نستطيع إنقاذها إلا بدعم الآلهة . وستموت

الملكة !

- الآشيبو على حق ، قال ساريل موافقاً .

لكن بدا من نبرة صوته أنه وافق موافقة شكلية وليس عن اقتناع .

متشجعاً ، رفع الساحر ذراعيه فوق رأسه وأخذ يردد ابتهالات

بلغة غامضة ، من المفترض ألا يفهمها إلا القوى الخفية . ثم صاح

تباعاً مركزاً نظره في سقف الغرفة :

- لِيُقْتَلْعُ الشَّرُّ من جسم هذه المرأة كما تقتلع القَسَّةُ . باسم

السماء ، لتطرد الأرواح الشريرة ! باسم الأرض ، لتطرد الأرواح

الشريرة !

أرعبت هذه الصيحات ، المرأة الشابة فأخذت تن .

فاستدار ياكين نحو الملك :

- مولاي، أتريدني أن أنقذ زوجتك؟

- يا له من سؤال! طبعاً!

- في هذه الحالة، في هذه الغرفة شخص غير مرغوب فيه .

وأضاف مشيراً إلى طارد الشياطين:

- هذا الشخص .

انتفض الملك .

- لكنه الآشيبو الملكي! ألم يخطر ببالك ذلك؟

- بلى، يا مولاي . أنا لا أستطيع أن أمارس علمي في وجود

أفراد على شاكلته .

هنا انفجر طارد الشياطين:

- كيف تجرؤ! أنت الذي يجب أن يخرج من هنا، يا طبيب

النحس!

نحن نعرف آراءك التجديفية! لكن ليكن في علمك أن آلهة

الانتقام يمارسون قدرتهم في سكون .

- كفى! زمجر الملك . الأمر يتعلق بحياة زوجتي .

ومسدداً نظره في عيني ياكين سأله :

- إن رحل، هل تضمن لي أنك سوف تنقذ دالاما؟ هل تضمن؟

أخذ الطبيب نفساً عميقاً قبل أن يرد:

- نعم . أضمن ذلك .

وإذ نطق هذه الكلمات أحسّ وكأنه أصيب بدوار . من أين له

هذا الزهو، أَللَّهُمَّ إلا إن كان مصدره الغفلة .

ران الصمت على الغرفة .

نظراً للتعبير المتوتر على وجه الملك، لم يكن من الصعب تفهم

الصراع الدائر في خلده .

بأيّ من الاثنين يثق: العلم أم الإيمان؟

ما يطالب به الطبيب يخالف كل التقاليد. فمنذ الأزل، وطارد الشياطين صَنَوْ للطبيب. ومنذ الأزل استقر اليقين أن أحدهما لا يستطيع شفاء المرضى دون الآخر. هكذا كان الحال منذ فجر التاريخ.

لكن في هذه الحالة تحديداً، كما أشار ياكين ، لم نكن بصدد مرض، ولكن بصدد جرح سببته يد إنسان. إذن؟  
بعد برهة بدت دهرأ، استدار سارريل نحو الآشيو وأمره:  
- اتركنا!

همّ الآخر بالاعتراض، إلا أن الملك أخرج به حركة أمره بيده،  
وكرر:  
- اتركنا!

سد الساحر نظرة قاتلة نحو ياكين ، ثم انسحب.  
- الآن، استأنف سارريل موجهاً حديثه للطبيب، من مصلحتك أن تثبت لي أن فَنَكَّ يتفوق على قوة الآلهة.  
لم يعقّب ياكين ، وفتح جراباً من جلد الماعز يحتوي على أدواته الطبية وأخرج منه ثلاث حبوب بيضاء اللون. رجا المرأة أن تفتح شفيتها وأدخل الحبوب في فمها. كان ردُّ فعلها الأولي أن تبصقها، إلا أن الطبيب منعها.  
- امضغيها يا مولاتي، اتركها لتذوب، وسوف يزول الألم.  
تحلّي بالثقة.

أبدت اشمئزازاً، لكن بما أنها كانت أضعف من أن تقاوم،  
أطاعت.

أمسك ياكين بقارورة ماء وسكب بعضه على الجرح ثم نظف

حوافه بقطعة قماش طاهرة. وممسكاً بإبرة نحاسية رفيعة جداً، مُحَدَّبَةً الطرف، توجه نحو أحد المصاييح التي تضيء الغرفة، وقَرَّبَ طرف الإبرة من النار المتقدمة. وانتظر حتى احمرَّ الطرف، ثم عاد نحو جرابه حيث سحب خيطاً من القُنْب عقد أحد طرفيه ثم أدخل الطرف الآخر من ثقب الإبرة.

- ماذا أنت بفاعل؟ صاح الملك منزعجاً.

- خياطة الجرح، يا مولاي.

- لكنها ستألم ألماً فظيماً!

- لا، اطمئن. لن تحس بشيء تقريباً. أنظر. لقد ذهب في

سُبات عميق.

- بأي سحرٍ؟ كيف أمكن هذا؟

- إنها حبوب النوم<sup>(١)</sup> تلك التي أعطيتها لها.

وبأداء الواثق، مرَّ الإبرة في اللحم عميقاً، ثم أخرجها من مسافة مساوية لنقطة الإدخال. وأعاد الكَرَّة عدة مرات متتالية، مؤكداً على ضم أطراف الجرح على بعضها البعض بقوة.

لم يكن الجو حاراً هذه الليلة، إلا أن العَرَق تصبب من جبهة ياكين. فجأة، وهو على وشك الانتهاء من عملية التقطيب التي يقوم بها، مرَّ هاجس بمخيلته:

رأى نفسه متديلاً من مشنقة تارة، ثم رأى رأسه مقطوعاً عن جذعه، تارة أخرى.

حين نهض، سمع الملكة تهمس:

---

(١) بذور الخشخاش الأزرق. معروفة منذ آلاف السنين، لها قدرة فائقة على التخدير.

- إني أتألم . . .

- صبراً مولاتي . لعل أثر الحبوب يتلاشى . وهو السبب في معاودة إحساسك بالألم .

الآن ، سوف أفرد بلسماً من العسل والدهن على الجرح ، قبل أن أضمده برباط خفيف .

- عسل؟ انزعج ساريل . دهن؟

- العسل ، لأن له قدرة فائقة على منع تقيح الجلد ، والدهن لمنع الرباط من أن يلتصق بالجرح .

بكثير من الحذر ، رفع الملكة ليمرّر رباط القماش حول خصرها . وفي هذه اللحظة ، وهذه اللحظة فقط ، أحس برحيق المرأة يغلفه .

رحيق العنبر ، رائحة هادئة ومطمئنة كليلة ربيع .

## البحرين

بعد ثلاثة الاف عام، كانون الأول / ديسمبر عام ١٨٠

### قلعة البحرين

كانت ستة جمال تحمل الخيم، وسابع يحمل قِرب الماء. بينما ناءت أربعة حمير بالأغراض الشخصية لـ دوران ومعاونه. وأخذت فراخ محبوسة في أفصاص - هي طعام الأيام القادمة - تقاقي محدثة جَلْبَة لا تنقطع. وكان يتبع القافلة عاملان، يركب كل منهما حماراً دون سرج أو لجام. أحدهما يمسك في يده مصباح پارافين والآخر سلّة بيض ثبتت بمعجزة على رأسه. فيما أخذ دوران يدعو ألا تشعر الحمير - ذات الشهرة العريضة في البحرين - برغبة في أن تنطلق في سباق حواجز عبر الصحراء.

على رأس تلّ مواجه للبحر، ومحاط بأبراج حراسة ثلاثة أرباعها دائرية، تبدو بقايا حصن مغطاة بالرمال جزئياً. متى بني؟ لم يستطع دوران الإجابة عن هذا السؤال. البعض يذكر القرن الرابع عشر، أو الخامس عشر. ويذهب آخرون إلى أن بناء الحصن يعود إلى القرن الخامس ق.م، في عهد الساسانيين، ثم جرى ترميمه، ثم هُجر، ليعاد بناؤه مرة أخرى. وفي كل مرّة كان يضاف إليه بناء جديد.



لكن منذ أن حكم آل خليفة البلاد، أي منذ عام ١٧٨٣، لم تحدث أي تعديلات على المباني، والغريب في الأمر أنه على كثرة هذه الإضافات وتباينها وتتابعها، وهذا الخليط من الحضارات، ما أنقأ الجميع يسمونها الحصن البرتغالي. في غضون ثمانية وأربعين ساعة سيفادر دوران البحرين عائداً إلى بلاده. لقد انتهت مهمته. لكنه ما زال مصراً على التنقيب مرة أخيرة في منطقة مرتفعات جنوسان.

بعد عودته سوف ينگبُ على كتابة قصة حياة كسرى الأكبر، ومؤلف آخر اختار له عنوان، أقل ما يوصف به أنه غريب: «رمح وبنديقة وعصا في الشرق»<sup>(١)</sup>

في المحصلة، كان الإنجليزي مغتبطاً بإقامته في البحرين. فإلى الملاحظات الكثيرة التي دوّنها، والتي سيقوم، دون شك، بنشرها، كان يحمل في حقائبه الحجر البازلتي الشهير الذي اكتشفه في مسجد أبو زيدان. لم يكن قد تمكن بعد من فك شفرة الكتابة المنقوشة عليه، كانت معضلة حقيقية. فلعل الحروف المسمارية يمكن أن تكون بابلية أو آشورية أو أخمينية. أما الرسم الذي يمثل فرع نخلة، المنقوش إلى يسار النص، فلعله يشير إلى أن الحجر قد نُقشَ في حقبة زمنية واكبت التحول من الكتابة الرمزية إلى الكتابة الأبجدية. هذا مجرد افتراض. ولم يكن من المستبعد أيضاً أن يكون الحجر آشورياً. ماذا بعد؟ كيف ولماذا تم نقله إلى البحرين؟ على أي حال،

---

(١) «كسرى الملك الكبير»، و«بنديقة وعصا ورمح في الشرق». نشرتا تباعاً في لندن. الأول عام ١٩٠٦ عن دار نشر «سيدني آيلتون» والثاني عام ١٩١١ عن دار نشر «جون موراي».

دون أدنى شك، فاكتشافه سيحدث دويماً في لندن<sup>(١)</sup>، وسيحصل دوران بسببه على لقب عالم الآثار الذي يطمح إليه منذ دهر. ولربما ألقى محاضرة في الجمعية الآسيوية الملكية ونال من الثناء والمجد ما يحكم بالنسيان على أسلوب التنقيب غير التقليدي الذي اتبعه: تصويب طلقات مدفع نحو آثار تعود إلى آلاف السنين.

---

(١) توفي دوران في الأول من تموز/يوليو ١٩٢٠، وتحطم الحجر في لندن عام ١٩٤١ بفعل سلسلة القنابل المتصلة التي ألقتها الطيران الألماني. إلا أن نموذجاً منه موجود حالياً في متحف البحرين الوطني.

آتارك.

حينما دخل بها تسورا اشتعلت كافة حواسّ آنام، وفي موجة عشق جارفة اعتصرت زوجها بين ساقها لاحتجازه. ثم جذبته نحوها إلى أقصى حد، مُطَبِّقَةً شفيتها كي لا تصرخ من فرط اللذة. فما من فاصل بينهما وبين التجويف الذي يستخدم كغرفة للأولاد سوى ستار من القماش.

ما إن انتهيا من عناقهما الصامت حتى تنحى تسورا جانباً، واستلقى على ظهره، متهدج الأنفاس، منهك القوى، متصبباً عرقاً. سأله زوجته في توجّس:

- هل أنت بخير؟

أوما تسورا برأسه إيجاباً.

- أنت مهمل يا حبيبي، فطوال أسابيع إبحارك أهملت نصيحة الأسو ولم تتناول النقيع الذي وصفه لك. بل لم تأخذ معك الأعشاب التي يُصنَع منها!

- أحبّ يا كين، لكنه يبالغ، شأنه شأن سائر الأطباء. والدليل على ذلك أنه لم يصبني سوءٌ طوال الرحلة، كما أنني لم أشعر بالم خلال غطساتي المتعددة.

- هذا لا يعني شيئاً، فقد نصح بأن تتبع تعليماته كي لا تتكرر النوبة. أنت لست جاداً يا نور حياتي، ماذا سيلم بنا إن أصابك سوء؟ لديك طفلان وزوجة.

ضحك تسورا

- زوجة وطفلان، زوجة أعشقها!

نهض متكئاً على مرفقه وتفرّس في وجهها طويلاً.

- هل تعلمين أنك تزاددين جمالاً بعد الجماع؟ وجهك يشع نوراً.

- لطمته بحنان على خده:

- مُداهن!

نهضت، ولبست جلبابها.

- سأعدُّ لك نقيع الآسو وسوف تشربه.

أراد أن يبقئها بجواره، إلا أنها كانت قد ذهبت إلى زاوية الغرفة التي تستخدم كمطبخ.

بقي تسورا ممدداً، سارحاً. يا له من قدر، قدر صائد لؤلؤ! استرجع الريح البسيط الذي اقتسمه مع رفاقه. بضع أرطال من القمح وخمس أعين سمك سيقوم بإعادة بيعها. قدر بائس. فهو يجازف بحياته، وفي أفضل الأحوال يصاب بعاهة مستدامة، ومقابل ماذا؟ فُتات! آه، لو كانت لديه الإمكانيات لامتلاك مركبه الخاص! ثم شرَد تفكيره الحزين إلى أوسر. فرغم افتخاره به، لم يسعه، في ذات الوقت، إلا أن يعتربه حزن ما: فالابن في سبيله ليسلك درب أبيه. وبدوره سوف يتعد عن ذويه لأسابيع طوال، وبدوره سيستدين لآخر عمره، يعمل لحساب قباطنة السفن، الذين هم بدورهم تحت رحمة تجار متعاقدين معهم.

نهض تسورا، ربط وزرته حول خصره، وأزاح الستار. كانت ميلاً مفترشة الأرض، تلعب بدمية من خِرْقِ القماش. بينما وقف أوسر صوب النافذة شاخصاً إلى السماء.

بعد أن قَبَلَ الطفلة، باغت ابنه بسؤال.

- فيم تُحَدِّق؟ هل تعدّ الطيور؟

دون أن يستدير، رد الفتى.

- لا يا أبي، أحاول أن أفهم.

- تفهم ماذا؟

- أفهم أين تذهب النجوم إذا ما طلع النهار؟ هل تنطفئ؟

- يا له من سؤال! هي لا تذهب إلى أي مكان كما أنها، قطعاً،

لا تنطفئ، وإلاّ فَمَن له أن يضيئها مرة أخرى؟

- ماذا إذن؟

- أمر بسيط: فالليل والنهار يقسمان السماء بالقسطاس. كلُّ

بدوره. إذا ما سطعت الشمس، فالنجوم تتوارى، والعكس صحيح.

هكذا الأمر، هذا كل ما أعرف.

- والقمر؟ فشكله متغير باستمرار. يصغر، ثم يكبر إلى أن

تكتمل استدارته.

رفع تسورا نظره إلى أعلى هازئاً رأسه.

- حقاً، لا إجابة لدي عن هذا السؤال أيضاً! كل ما أعرفه أن

أفضل الحصاد يتم خلال فترة تزايد حجم القمر التي تدوم لمدة

خمسة عشر يوماً. أعرف أيضاً أن بعضاً من ضوء القمر يتسلل إلى

داخل اللآلئ.

استدار أوسر مصدوماً.

- لكنك شرحت لي أن الشمس هي التي تُخِصَّب اللَّآلِئُ داخل  
المحارات ذوات الفتحات المواربة!  
- حقاً، لكنني قلت لك أيضاً إن السماء تُضفي على اللَّآلِئِ لونها  
وأوضحت أن كل ذلك ما هو إلا أساطير!  
وضع الفتى قبضتيه على جانبي خصره ورمق والده قاطباً  
حاجبيه.  
- وضوء القمر الذي يتسلل إلى جوف اللَّآلِئِ؟ هل هذه أسطورة  
أيضاً؟

وضع تسورا يديه على كتفي أوسر.  
- يا بُنيّ، أنصتْ إلى هذه النصيحة جيداً: أينما كان لديك  
الخيار بين الحقيقة والأسطورة، اختر أن تصدِّق الأسطورة، ستكون  
أكثر سعادة.

\* \* \*

### قصر ميلان

انفجرت شفتا الملكة، وارتجفت جفونها.  
- أشعر بالعطش.  
انتفض ياكين، وكان جالساً في إحدى زوايا الحجرة، مستنداً  
بظهره إلى الحائط.  
تسرّبت أشعة الشمس إلى الغرفة من خلال الستائر. منذ متى  
طلع النهار؟ آخر صورة استعادها كانت للملكة مستلقية على صدرها،  
وذهبت، أخيراً، في سُبات متقطع، والملك يتسلل خارج الغرفة على  
أطراف أصابع قدميه، بعد أن أوصى الطبيب:

- اسهر عليها، وأخبرني إن ساءت حالتها .  
نهض ياكين وهو مُجْفِلٌ، فجسمه يُدْكَرُه بأن سنَّه لم تعد تسمح  
بتمضيته ليالي في وضع وظروف كهذه .

توجه نحو الحصيصة التي ترقد عليها الملكة، وإذ همَّ بسؤالها،  
استدارت فانسحب الغطاء من فوقها لتبدي، دون قصد، ثديها .  
كرتين مكتملتي الاستدارة . ثقيلين . . . متماسكين . . . ثديين من  
مرمر!

وإذ بياكين، الذي لم يضطرب قط في حضرة أي من مريضاته،  
مهما كانت عليه من جمال، يعتريه اضطراب شديد . بذل جهداً  
لاستعادة رباطة جأشه، وتمتم :

- هل تشعر مولاتي بتحسن؟

- أشعر بالعطش .

وسألت على الأثر:

- من أنت؟

- أنا الآسو، مولاتي .

- أين زوجي؟ هل أصيب بسوء؟ هل مات؟

- لا، هو بخير . لقد سهر عليك طويلاً قبل أن يخلد للنوم .

سوف أخبره .

وإذ أدركت عريها، هلعت وسحبت الغطاء لتحتمي به .

- هل تقدّم لي شراباً؟

في حالة ضبابية، توجه ياكين نحو منضدة في ركن من الغرفة،

ساحباً من فوقها قربة من الجلد وعاد إلى الشابة :

- اسمحي لي بمساعدتك . لا تبذلي مجهوداً .

بمتهى الحذر، لفّت ذراعه حولها ورفعها قليلاً .

إلا أنها أنت :

- إني أتألم!

- طبعي، فلن يلتئم جرحك إلا بعد وقت.

الآن، أصبحت قريبة جداً من ياكين وعبق نفسها وعطرها يسكرانه. عطر ناعم رائحته مثل رائحة الفجر في يوم من أيام الربيع. قَرَّبَ قُوَّةَ القُرْبَةِ من فم الملكة وترك خطأً دقيقاً من الماء ينساب بين شفتيها.

كان الغطاء قد انحسر مرة أخرى، ولامس ثديي دالاما صدر ياكين فأحس بنار تلمح جلده عبر سترته. كيف ذلك؟ ماذا أصابه؟ وكأنه يحلم، غطى وجه إيشا زوجته، على وجه الملكة. أغمض عينيه، واستمر في إطفاء ظمأ دالاما، مبتهلاً إلى الآلهة - وهو الذي لا يعرف الدعاء - أن يتوقف اضطرابه.

لعل الآلهة استجابت لدعائه، إذ سمع الملكة تشكره وهي تستلقي ثانية على فراشها.  
- ما اسمك؟ سأله.

- ياكين.

- هل سأشفي؟

- نعم، لكن عليك، لبعض الوقت، أن تتفادي الحركات المفاجئة.

- هل تم القبض على المجرمين؟

- لا أعلم، مولاتي، فلم أغادر الغرفة طوال الليل.

حاولت الرقاد على ظهرها، إلا أن الألم منعها، فعادت للنوم على جنبها.

أعاد ياكين قربة الماء إلى موضعها، وقال:



- سوف أخبر زوجك .

أومأت في صمت .

\*\*\*

كان سارييل، كالحَيوان الحبيس، يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً . فأحداث الأمس أصابته بنوبة رعب .

فلأبعد ما استطاع أن تعود به الذاكرة، لم تردلمون، عبر تاريخها، هجوماً بهذه الهمجية، بهذه الدناءة . إنها أرض سلام وصفاء . أرض مختارة ومباركة من الآلهة . حتى خلال ولاية جده الأكبر، الذي اشتهر بجبروته وبطشه، لم يجرؤ أحد على مهاجمة السلطة الملكية . أليس الملك سليل الإله إنكي؟ إله المياه الجوفية . أليس الملك خليفته على الأرض؟

فجأة، طافت فكرة مرعبة في خلد الملك . تسمر في مكانه . إن كان للملك السلطة كلها فعليه في المقابل واجبات . عليه أن يدعّن للطقوس، كما عليه احترام التقاليد المرتبطة بالمراسم الدينية، وأيضاً إعادة ترميم المعابد . تجاهل تلك الواجبات، أو عدم الوفاء بها بشكل كامل، حريّ بصب الغضب الإلهي على المملكة إلى حد إسقاطها . كما أن على الملك التزامات تجاه رعاياه . فعليه أن يقدم لهم العون والحماية . ألا يطلق عليه اسم الراعي؟ مثل راعي الغنم الذي يوجّه قطيعه ويحميه .

طبعاً، فلا يستطيع الملك أن يصبو إلى العيش أبداً مهما بلغ به الرشد، أو إحساسه بالعدالة، إلا أنه يمكن أن يأمل في شكل من البقاء عبر ذريته أو من خلال سيرته كملك .

هل أخفق سارييل دون أن يدري؟ لا ! مستحيل ! هؤلاء الذين

حاولوا قتله وراءهم مقصد لا علاقة له بالأمور الإلهية. فقد تمكن الحراس الذين تولوا مطاردتهم من القبض على اثنين منهم، وسوف يعترفان، دون تأخير، بالدافع إلى فعلتهم المشينة. لقد سلمهم ساريل، على مضض، لجلاد اشتهر بقدرته على انتزاع الاعتراف من الحجر!

كما أن عليه اتخاذ قرار فوري بتسمية مستشار جديد يحلّ محلّ المسكين نازيل. كم أحزنته وفاته! يا له من ظلم! فما من إنسان تميّز بهذا القدر من الوفاء! إيجاد بديل أمر سهل نسبياً، إلا أن ساريل يوقن تماماً أن البديل لن يكسب أبداً ثقته المطلقة، فقد علمته الحياة أن الوفاء سِمة يأنفها أهل البلاط قدر رفض الحيوانات المفترسة للأقفاص. فهم قادرون، في أي لحظة، على عضّ اليد التي تطعمهم.

سمع طرفاً على الباب.

أذن بالدخول.

ما أن رأى ياكين، حتى بادره بالسؤال في لهفة:

- إذن؟ كيف حالها!

- بخير، مولاي. إلا أنها في حاجة للراحة إلى أن يبرأ الجرح.

- الشكر لـ إنكي. إن كان أصابها سوء ما كنت لأعيش دونها!

لك شكري وامتناني أيها الآسو. أطلب ما تريد. هو لك!

- لا أريد شيئاً، مولاي. قمت بواجبي. لا أكثر. لكن، هل

تأذن لي بسؤال؟

شجعه الملك بإشارة من يده.

- هل أخبركم نازيل بأمر اختطاف ابني؟

- ابنك؟

فجأة، كمن أصابه دوار، رفع ساريل يده إلى جبينه .  
- طبعاً! ياكين! في لحظتها، لم أهد إلى المقاربة . هو أنت  
إذن! أنت من أكد المسكين نازيل أن ما من آسو في دلمون أبرع منه!  
أنت من دعاه للسفر إلى ملوحة . إنه ابنك إذن . . . .  
صدّق الطيب على الأمر .

- ليكن في علمك أنني أمرت نازيل أن يحشد كافة الإمكانيات  
لإيجاد هؤلاء الذين اقترفوا هذه الجريمة . كل شيء! لكنه، للأسف!  
اغتيال قبل أن ينجح في مهمته . لكن، أفسيمُ لك، سوف أصدر، في  
الحال أمراً أكلف بموجبه رجلاً آخر باستكمال المهمة وسوف نجد  
ابنك .

انحنى ياكين احتراماً .

- هل لي أن أنصرف؟ سوف أعود غداً لتغيير رباط جرح  
الملكة .

- اذهب يا صديقي . فمن اللحظة، أنت صديقي . وتقبّل، مرة  
أخرى، كل امتناني . وسوف أحرص على إحاطتك بكل جديد بشأن  
ابنك .

## البحرين

بعد ثلاثة آلاف عام، نيسان / أبريل عام ١٨٨٩

عشر سنوات مرت منذ أن أبحر الرائد دوران متجهاً إلى إنجلترا، وما زالت أصداء طلقات مدافعه المشؤومة تدوي في سماء الجزيرة.

في هذا الصباح من ربيع عام ١٨٨٩ وصل زوجان إلى ميناء البحرين. هو إنجليزي، وهي أيرلندية. اسمه جيمس ثيودور بنت، وهي مابل فرجينيا هول-دير. هو في السابعة والثلاثين من عمره، وهي تكبره بخمس سنوات. تزوجا منذ عشر سنوات حيث التقيا حول شغف مشترك: علم دراسة الآثار. بعد إتمام الزواج انتقلا للإقامة في لندن، على مرمى حجر من ماربل آرش، في ١٣ جريت كمبرلاند بليس، لتبدأ سلسلة من الأسفار المحمومة.

قبل اختراع الطائرة كان مابل وثيودور معروفين بأنهما أحد الزوجان الأكثر شهرة بين أقرانهما من ذات الجيل والأكثر أسفاراً: فالله وحده عالم بعدد السفرات التي قاما بها حول العالم سواءً بالسفينة أو القطار أو العربة أو على ظهر حصان أو جمل أو بغل أو حمار أو مُتَرَجِّلِين. قَطَعَا آلاف الأميال تحت الشمس الحارقة، ملتحفين السماء في سواد الليل، في مناطق يعتبرها مواطنوهما

الغربيون مدعاة مؤكدة لاختصار حياتهم لما قد يصيبهم بها من أمراض أو حوادث.

ماذا كانت دوافعهما؟ ما هي أسباب كل تلك الجهود وتلك النفقات؟ ما هي الأهداف التي كانا يسعيان إليها؟ كانا، دون شك، متطعشين إلى المتعة التي تسببها الاكتشافات، واستكشاف العوالم المجهولة، ولذة الغوص في قلب حضارات مجهولة أو مندثرة.

وما زالت المقالات والأبحاث التي أعدها وحررها هذا الثنائي هي الأساس الذي تعتمد عليه الببليوغرافيات المعاصرة والمتعلقة بعلوم دراسة الآثار، أو الأنثروپولوجيا (علم دراسة الإنسان)، والإثنوغرافيا (علم دراسة الإثنيات)، أو حتى علم دراسة النبات. إلا أنهما لم يكونا مجرد مستكشفين، فقد اشتهرا بقدرتهما على الملاحظة المستنيرة والتعليق. وكانا يسعدان بكل جديد، أكان مأكلاً، أو مشرباً، أو موسيقى، أو عادات، أو ملبساً.

كما كانا يعتبران أن من واجبهما أن يعالجا - قدر علمهما - أي مرضى يصادفونهما في طريقهما، حاملين معهما صندوقاً كبيراً ممتلئاً بقناني ماء الحياة أو الكينين (الكينا) أو البراندي أو ديم جين دي بوفريل (مرقة بقر ثقيلة ومملحة، معروفة لطاقتها الغذائية). بطبيعة الحال، لم يكونا قادرين على الاضطلاع بكل تلك المغامرات لو لم يكونا، كلاهما، يمتلكان على ثروة عائلية ومتمتعين بقدرة تحمّل طبيعية خارقة. فضلاً عما تقدم، كانا يعيشان حقبة مباركة، حقبة عدم الاكتراث، التي سبقت أهوال الحروب العالمية الكبرى.

مع كل رحلة من رحلاتهم كانت سمعتهم تتسع انتشاراً، دائماً وأبداً وفقاً لذات الجدول الزمني: يشدان الرحال من الشتاء حتى

الربيع، عائدين إلى لندن مع الصيف، ليلتقيا بالأصدقاء الأعزاء وبالعائلة في أيرلندا، أو لإلقاء المحاضرات ثم للتخطيط لوجهتهما التالية.

إن نظرة على القائمة الطويلة لكتبهم المنشورة تبرز ثلاث دوائر جغرافية متحدة المركز، متداخلة فيما بينها: شرق البحر المتوسط (اليونان وتركيا)، قارة أفريقيا الكبرى، الشرق الأوسط والشرق الأدنى. كان ثيودور ومابل بنت مؤهلين بكافة المعايير لأن يندرجا ضمن نوعية من البشر خارج المعايير.

البحرين، كما سجلت ما بل في دفتر يومياتها الذي سيلازمها دائماً، كانت الخطوة الأولى من رحلة طويلة ستأخذهما عبر الشرق الأوسط والشرق الأدنى.

وهكذا كتبت:

قمنا برحلتنا الأولى إلى الشرق الأوسط التي بدأناها في غضون عام ١٨٨٩ متجهين إلى أرخبيل البحرين في الخليج العربي، لأننا انبهرنا بتلك القصص التي وصلت إلى مسامعنا حول تلك القباب الغربية، لذا قررنا استكشافها على أمل اكتشاف آثار لوجود فينيقي قديم. لأننا كنا مقتنعين أن الفينيقيين مروا بها حتماً.

مجموعة الجزر المعروفة باسم البحرين: والمعنيّ بها فعلاً بحرين، تقع في الخليج العربي، وتبعد عشرين ميلاً عن شاطئ الأحساء في شرق شبه الجزيرة العربية. ومسمى البحرين ينحصر أكبر جزر المجموعة، والتالية لها في الحجم هي جزيرة المُحرّق، والباقي عبارة عن جزر متناهية الصغر.

لم يكن من المفيد أن نساfer على متن باخرة تأخذنا مباشرة من إنجلترا إلى وجهتنا، ويستحيل أن نتوقع بدقة ساعة أو حتى يوم الوصول لما يعتري هذا النمط من الرحلات من مخاطر.

لذلك فضلنا المرور بكاراتشي ومسقط، ثم انتقلنا إلى بوشهر، حيث بدلنا مرة أخرى السفينة البخارية التي تقلنا، لأن السفن العابرة للخليج لم تكن تصل إلى البحرين.

انتهزنا فرصة توقفنا في بوشهر، لتوظيف خمسة أفراد. حمالين، حرّاس، . . . إلخ. خادمنا الشخصي والمترجم يدعى حاج عبد الله وهو نصف عربي ونصف فارسي، ويتحدث بلغة إنجليزية ركيكة جداً فينطق ميول، بمعنى بغل بدلاً من ميل بمعنى وجبة أو فولز بمعنى مُهر بدلاً من فاولز بمعنى طيور داجنة. فيقول مثلاً «متى تريدان أكل بغالكم اليوم؟ فقد طهيت مُهرين للعشاء».

السفينة البخارية التي ركبناها للوصول إلى البحرين لم تتمكن من الرسو واضطرت للوقوف على بعد عشرين ميلاً من الشاطئ نظراً لضحالة المياه. لذلك انتقلنا إلى مركب شراعي صغير أبحرنا به لمدة عشرين دقيقة. ثم انتقلنا إلى زورق أصغر نقلنا إلى الشاطئ. فور ترحلنا، امتطينا مجموعة من الحمير البيضاء الجميلة - التي تتميز بها البحرين - ذات الذبول والأعراف المصبوغة بالحناء، ولم يكن عليها سرج أو لجام، مما أكد لنا أن حمير تلك البلاد أكثر ذكاءً من حميرنا المشهورة بإصرارها وتعنتها.

المنامة - التي خططنا للإقامة بها - مدينة ساحرة، تنتشر فيها منازل بيضاء جميلة وأكواخ من الخيزران. أما مآذن جوامعها فهي أقل ارتفاعاً من مثيلاتها في بلاد عربية أخرى.

فور وصولنا التف حولنا حشد مهيب من العرب، يرتدون جلابيب طويلة فضفاضة معتمرين عمائم من القماش، رابطين حول خصورهم حبالاً من وبر الجمال.

منزلنا مكوّن من صالة مساحتها ستة عشر قدماً مربعاً. أرضيتها من الحجر. وجدرانها مزدانة بست وعشرين نافذة لا زجاج لها. قُفل الباب من الخشب مشغول بمهارة، يُغلق بمفتاح من الخشب أيضاً وعلى الرغم من قربنا من المناطق الاستوائية يميل الطقس إلى البرودة بعد غروب الشمس. لكن، للأسف، ليالينا مضطربة بانتظام، إما بنباح الكلاب أو بصياح الديوك في جوف الليل ثم بنداء المؤذن لصلاة الفجر.

من موقعنا، نشاهد بحراً من أكواخ الخيزران، ومن مساكن صائدي اللآلئ ومن المنازل الحجرية، التي هي عبارة عن بيوت أنيقة، مُزدانة أحواشها برسوم وممرّات مشكلة من القواقع. كما يوجد في تلك الساحات قوارير تملؤها النساء بانتظام بواسطة قِرَبٍ يذهبُن لملئها بالماء من الآبار المجاورة.

خلال زيارتنا للأسواق جذب انتباهنا أقفال من الحديد، غريبة وغير مألوفة، يُفتح بعضها بمفاتيح تناهز في طولها قدمين ونيفاً. أما مقدمة الأكشاك فمغطاة بنوعيات من البلح فاتقة الجمال وهي الغذاء الرئيسي لأهالي البلاد، والحق أنها لذيدة المذاق.

سروج جمال المشايخ جميلة الزركشة وكذلك مقابض الأسلحة القديمة التي مازال البدو يستعملونها. ويمكننا مشاهدة رمح طويل منصوب أمام خيمة شيخ البلد، وبجواره درع من جلد الجمال مزدان بطلاء ذهبي وأزرار من النحاس فضلاً عن سترة حربية من قطع المعدن وأسلحة أخرى تعود لعصر قد ولى.



جزيرة المحرق يقطنها عليّة القوم، وهذا ليس غريباً لأن فيها مقر الحكم، تسقيها عين غريبة من المياه النقية تنبع من البحر! عند المد، يُحضّر الماء غطاسون مزوّدون بقرب من الجلد. أما عند الجزر فتقوم النساء بسحب المشروب الحيوي في قوارير كبيرة. وفقاً لأهل البلد، يتدفق الماء العذب بقوة تدفع الماء المالح بعيداً كي لا يختلطا بتاتاً. على أي حال، يمكنني تأكيد أنها مياه صالحة للشرب تماماً.

أما المنامة فهي المركز التجاري. حيث يمكن مشاهدة آثار حصن يقال إن البرتغاليين قاموا بإنشائه.

هكذا، وطوال فترة إقامتهما، دونت مابل صفحات من الذكريات، بينما انكبّ زوجها على التنقيب. فور استقرارهما في المنامة أحاطهما أهل البلاد علماً بالأسلوب الغريب في التنقيب الذي لجأ إليه ابن بلدتهم البريطاني. بطبيعة الحال، ومن باب التضامن، امتنع ثيودور عن شجب هذا الأسلوب علناً، وإن أدانه في قرارة نفسه.

كان يمكنه إرجاع هذا الاستخفاف لصغر سنّ الرائد. رغم أن دوران كان في الثالثة والثلاثين من عمره حين وصل إلى الأرخيل. أي أصغر من ثيودور بأربع سنوات فقط: فلم يكن فتىً غراً. وعليه، يصبح التفسير الوحيد لفعلته قلة الخبرة. إذ لم تكن لدى دوران أي خبرة، كما أنه لم يكن عالم آثار، وإن كان يُحسب له نجاحه في اكتشاف شاهد عجيب من البازلت الأسود منقوش عليه كتابات ورسم. أما عن النص، الذي كان الميجور، سير هنري رولنسون (المسمّى بأبي علم الآثار الأشورية) قد نجح في فك شفرته، فكان

يمثل لغزاً حقيقياً، إذ قرأ فيه: « قصر ريمون، خادم الإله إنزاك، (و)  
رجل من (قبيلة) أجارون»  
وهو ما فسّره رولنسون بأنه دليل قاطع على أن البحرين هي مهد  
حضارة دلمون.

كان الثور ضخماً وكانت عيناه الزجاجيتان مركبتين على وارك .  
 بعد أن أحنى رأسه المزود بقرنيه الطويلين المدببين، نفض  
 جسمه المغطى بفروته السوداء والقطران اللزج وضرب الرمل بحافره  
 الثقيل، بينما تدلّت شفتاه الغليظتان اللتان ينساب منهما خيطان من  
 اللُّعاب كرية الرائحة .

كان الغلام منحصرأ في ركن من دائرة الأحجار، وعلى الرغم  
 من الخطوات العديدة التي تفصل بينه وبين الوحش، أحس بالحرارة  
 الصادرة عن الخياشيم القاذفة لسَيْلٍ من الجَمَم . فجأة، احمرت عينا  
 الحيوان، كأنهما محقونتان بالدماء - دماء ضحاياه - وانفرج فكاه  
 عن أسنان صفراء، قوية ومدببة حتى لتبدو قادرة على تفتيت الحجر .

اعترت جسد وارك رجفة استحال عليه قمعها . وسرّع الهلع  
 ضربات قلبه بوتيرة مخيفة . حتى أشجار النخيل المحيطة بدت كأنها  
 تجمّدت من الخوف .

حرّك الكائن المخيف رأسه في مختلف الاتجاهات وقفز إلى  
 جانب مرّة أتبعها بقفزة أخرى؛ وأخذ يحرث الأرض بظلفيه  
 الأماميتين مهتاجاً ومتأهباً للهجوم . ثم تقدم ونفث نفساً قوياً غطى  
 برائحته التنتة وجه وارك فشرع برغبة جامحة في التقيؤ .

## كيف الهرب؟ أين المفترّ؟

وإذا بالثور يطلق زئير حيوان مفترس أقرب ما يكون إلى صرخة إنسان، ترددت أصداؤها في أنحاء الجزيرة، من آتارك إلى سيرام، ومن آلباش إلى ميلان. وتدقق من كرشه المقززة سيلٌ أسود مسموم ملاً الهواء الثقيل برائحة عَفِينَةٍ كريهة. في هذه الأثناء ظهر، من حيث لا يدري أحد، مخلوق مَشَوَّةٌ إستطال جسده على شكل رأس ثعبان لزج، يغطيه قشر تداخل فيه اللون الأحمر مع الأورجواني. أطلق هسيساً هزَّ الأرض، وأثار زوبعة من الرمال ارتفعت نحو السماء لتعود فتهبط كالمطر، كاشفاً عن أسنان معوجة من مشفره العلوي.

تحدّى كل من الوحشين الآخر بالنظر. مَن مِنهما سيتجرأ أولاً على مهاجمة الآخر؟ بعد لحظات، حدث ما لم يكن متوقَّعاً، فبدلاً من أن ينخرطاً في صراع مميت، اتجها نحو وارك. سقط الفتى على الأرض، مغطياً وجهه بيديه، فاغراً فاه ليطلب النجدة لكن لم يخرج أي صوت من حلقة الجاف.

- انهض!

أفاق وارك مذعوراً.

ما زال رأسه مثقلاً بما اكتنفه من كابوس، ووجهه يتصبّب عرقاً لمح سجاجنه ذا اللحية الكثة، الذي دأب على تزويده بالطعام يومياً وأحسّ حياله بما يشبه العرفان.

الثور... هذا الثعبان المقرّز... ما انفكّ يرتجف خوفاً منه.

- قف! سوف نذهب.

تفوق وارك، ضاماً ركبتيه أسفل ذقنه. بدا متعباً، شاحباً،

تلهب الحمى جبينه ووجنتيه . لم يكن ذلك من تأثير الكابوس  
المخيف .

- قلت لك قف! صاح فيه السجان مرة أخرى .

- أنا مريض . جسدي كله يؤلمني .

تأفف الرجل ، وأمسك وارك من ذراعه وأرغمه على الوقوف .

- أين تأخذني؟ أنا . . .

لم يكمل جملة . فقد دخل المغارة رجل آخر ، حليق الذقن  
والرأس ، أكبر سنًا من زميله . وقبل أن يتمكن الفتى من المقاومة  
سحباه إلى خارج الغار . طرفت عينا وارك مبهوراً بضوء النهار الذي  
حُرِمَ منه . وشيئاً فشيئاً تراءت له عَبْرَ ستار من الرطوبة مساحات  
خضراء تليها أراض قاحلة . رفع رأسه فشاهد طوقاً من الدخان يحيط  
بقمة تلّ . وحدّث نفسه بأن هذا هو التل الذي يسمّيه الأهالي «الجبَل  
الذي يتنفس»<sup>(١)</sup> .

سمع الملتحي يقول مستاءً :

- أنا مُتَعَبٌ! لا أفهم لماذا يريدون أخذه منّا إلى سامور<sup>(٢)</sup>! لا

معنى لذلك! فالجزيرة مهجورة!

- إنها الأوامر ، ردّ الآخر . فالسيد قال : إذهبا مع الغلام إلى

سامور . بل قال مؤكداً : «ينتظركما مركب صياد عند نايأ<sup>(٣)</sup>» . أعتقد

أن السبب يعود إلى تأزُم الموقف . يبدو أن جنود المملكة كلهم

يبحثون عنّا .

---

(١) «جبَل الدخان» .

(٢) «أم النعسان» . جزيرة صغيرة غرب جزيرة «البحرين» . يخترقها من طرفها

الشمالي طريق الملك فهد الذي يربط المملكة العربية السعودية بالبحرين .

(٣) الجسرة ، قرية ساحلية تقع عند الشاطئ الغربي للبحرين .

إزداد زميله تبرُّماً :

- فلتتخلص إذن من هذا الحِمل! ما علينا سوى تصفيته. ونقول إنه غرق خلال رحلتنا البحرية.

- هل جُنِنت؟ القرار، قرار السيّد. هيّا بنا!

- لست في حالة جيدة، تأوه وراك.

- تقدّم!

فجأة، وبينما همّ الفتى بالإذعان، تعالت صيحات يتخللها

سهيل خيل.

هناك، نحو الشمال، كانت مفرزة من الجنود الخيالة يقتربون من

التل. أحصى الرجل حليق الرأس عشرة منهم كانوا واضحين تماماً بزيمهم العسكري والأقواس وجعاب السهام المحمولة على ظهورهم.

- بسرعة! بسرعة، لِنَعُدْ إلى الغار!

سار وراك مدفوعاً بقوة إلى الأمام، ليجد نفسه محاطاً بالظلمة

التي ما كاد يتركها. همّ بالصراخ لكن إنطبقت يد على فَمِهِ.

- كلمة واحدة وأقطع لسانك!

تأكيداً لهذا التهديد، أخرج الملتحي خنجراً نحاسياً من جرابه

وأدنى طرفه من عنق الغلام بينما رفيقه يراقب المشهد عند مدخل

الغار.

- هذا ما توقعته، علق بصوت خفيض، إنهم يبحثون عنا.

ساد صمت طويل. بينما استمر الجنود في التقدم.

- هلكننا، زمجر الملتحي. فلتتخلص من الفتى أقول لك!

- كفاك إزعاجاً! اخرس.

صاح صوت من أسفل التلّ:

- الغار في الأعلى! هل تفقدناه؟

- أي غار؟ ردّ صوت آخر، لا أرى شيئاً.

- هناك! افتح عينيك! أسفل الصخرة الوردية.

- لعلنا فعلنا. لا أتذكر.

في الحال، همز من بدا أنه قائد المفرزة مؤخرة حصانه الذي انطلق مسرعاً.

كرّر الملتحي:

- هلكنّا!

ابتعد عن وارك، مذعوراً ومرتجفاً كورقة في مهبّ الريح واتجه نحو مؤخرة الغار ليختبئ. وما كاد يبتعد حتى اغتنم الفتى الفرصة وهرع نحو مدخل الغار إلى الخارج مطلقاً صرخة استغاثة ترددت أصداؤها حتى أقاصي الرمال.

رفع قائد المفرزة عينيه وفور رؤيته شبح وارك الهزيل صاح:

- ها هو!

وبهمزة أخرى لحصانه انطلق يتبعه سائر أفراد المفرزة.

في هذه الاثناء، استعاد سجّانا وارك توازنهما. وانطلق حليق الرأس مطارداً الغلام الذي أخذ يقفز من صخرة إلى أخرى كغزال رشيق.

أخذ وارك يلهث، وتصبب جبينه عرقاً، بعد أن كان يرتجف من البرد والحمى، وراح قلبه يخفق بشدة من الخوف غالباً، أو من الضعف. وكانت أشواك الشجيرات تدمي ذراعيه العاريتين، ورجلاه تخذلانه أحياناً، إلا أنه لم يكثر لذلك. استمر في هبوطه الأهوج، مدفوعاً بريح الخوف، تلهب عزيمته خطوات مطارده. أما سجّانه الآخر فبدلاً من أن يتبع زميله اتجه صعوداً في التلّ. لظنه أنه السبيل الوحيد للهروب من الجنود.

هبت ریح محملة بالأتربة، ممتزجة بضباب الرطوبة، محولة السماء إلى نسج رمادي.

كاد وارك أن يصل إلى قاعدة الجبل مقترباً من مفرزة الجند. توقف سجانہ الذي كان يلاحقه. استلَّ خنجره وصَوَّبَهُ نحو ظهر الغلام. ومثل البرق، شق النصل الهواء متجهاً نحو الهدف المتحرك.

\* \* \*

كانت الشمس قد أشرقت منذ فترة وأضواء أشعة صفراء الطبيعة حول سيرام<sup>(١)</sup>.

وكان الموكب يتقدم نحو قمة مرتفع جيرِّي غرب المعبد الكبير، تتابعه نظرات خاشعة لبعض السكان. يتقدم الجمع ستة رجال يحملون جثمان نازيل المغطى بقماش أبيض ناصع. يرافقهم كهنة بزيتهم الديني إلى الخلف قليلاً يسير الملك سارييل مرفوع الرأس، متجههم الوجه، يرافقه ياكين، الذي تم تكريمه بدعوته للمشاركة في مراسم التشيع إلى جوار الملك، وخلفهم، أرملة المتوفي ونجلاه الأكبر، وعدد من الضباط. على جانبي المسيرة توزع فصيل من الحرس الملكي على أهبة التدخل في حالة أي تهديد.

بعد قليل توقف الموكب أمام قبة ضريح من قباب الصفوة، على مسافة قريبة من القرية ومن بستان النخيل، إذ لم يكن من المناسب تبديد أراضي خصبة أو مفيدة بإقامة قبور عليها.

كان القبر معداً منذ بعض الوقت؛ وليس في الأمر ما يدعو للدهشة. فكثيراً ما كانت تُشَيِّدُ القبور وأصحابها على قيد الحياة لتقام، وفقاً لتعليماتهم، وتبقى في انتظار وفاتهم لسنوات طوال.

---

(١) حالياً «سعار».



كان القبر المخصص لاستقبال جثمان نازيل مكوّناً من حائط  
حجري ارتفاعه حوالي ٦ «آماتو»<sup>(١)</sup>. والحائط يرسم دائرة حول  
الغرفة الجنائزية المبنية على شكل حرف T.

وما بين الغرفة والحوائط المزدوجة تُركت مساحة سوف تُردم  
بالطين حتى أعلى جدران الغرفة. وهناك سلة مطلية بالقطران وضع  
فيها بعض المقتنيات القيّمة التي كان يملكها نازيل: عقد، وحزام  
مُحَلّى باللؤلؤ وبعض الخواتم. وفي الداخل أيضاً جرّتان مستديرتان،  
وضِع فيهما - وفقاً لتوصية عائلة المتوفى - بعض الأغذية، وأوعية  
للشرب (تحمل خاتم الخزّاف الذي صنعها) وأواني للأكل من الطوب  
الليّن. كل ذلك لكي يجد المتوفى ما يسد به رمقه حال عودته إلى  
الحياة. إذ كان الدلمونيون مقتنعين بأن حياتهم الدنيا ما هي إلا مرور  
عابر. وذلك رغم افتقارهم إلى تصوّر واضح عن تلك الحياة الثانية.  
لعلها ولوج إلى جَنَّة غنّاء، أو إلى عالم سُفلي؟ أو لعلها موقع ما بين  
النجوم أو عبور لبحر على متن مركب جنائزي للوصول إلى شاطئ  
حيث يتحتم عليهم الإفصاح عن هويتهم، ليتم الترحيب بهم أو لفظهم  
إلى الأبد إلى المياه المالحة، وفقاً لكونهم أمضوا حياة صالحة أو  
طالحة.

على أي حال، سيطرت قناعة على عقول الجميع: فمن غادر لا  
يختفي إلى الأبد اختفاء تاماً من حياة الذين فارقه: فبالذكرى أو  
بالحلم، هم يستمرون في التفكير فيه أو يتخيلون سماع صوته، وهم  
مقتنعون أن هذا الخيال المبهم، الهوائي، الضبابي، الزائل وغير  
الملموس هو ما تبقى من المتوفى ذاته في حالته الجديدة، النهائية

(١) حوالي ٢,٣٠ متر.

بصفته ظلاً أو شبحاً كما قرر إنكي في اللحظة التي خلق فيها الإنسان محدداً مصيره الكامل. ففي حالة الموت، والجسد مدفون في الأرض، يعود إلى أصله من طين، فيلحق ظله بالعدد اللانهائي من الظلال، في محل إقامتهم الرفيع الذي يجتمعون فيه منذ الأزل. وسواء أكان المرء مقتنعاً بذلك أو غير مقتنع فدفن الموتى وإكرامهم واجب لا يستطيع أحد أن يتملص منه. عندما التأم شملُ الجميع، تعالى صوت الكهنة في ترنيمة جنازية رنّت كلماتها، كثيفة، نحو السماء:

مولانا! يا أرفع من بالكون،  
ملك بطبيعته! أيها المبجل إنكي، مولود آنو<sup>(١)</sup>  
حبيب إنليل، الجبل الأكبر، معشوقنا!  
يا مليكنا! شجرتنا العزيزة الباسقة في عرض الآسو  
المسيطر على الأرض!  
التي يغطي ظلها العالم!  
المرج الذي تمتد فروعه لتغطي البلاد!  
إنكي! سيد الوفرة للآلهة!  
القادر على كل شيء في مسكن إنليل!  
القدير في السموات وفي الأرض.  
أيها المبجل إنكي، ملك البشر جميعاً، احفظ خادمك نازيل.

عندما انتهت الترنيمة ردّد الكهنة اسم المتوفى عدة مرات:

---

(١) آن أو آنو باللغة الأكادية كان أهم آلهة في علم الأساطير السومرية ثم الأشورية والبابلية. فهو يمثل السماء والمجرات.

نازيل، نازيل، نازيل وشاركهم في التريدي، في جوقه متسقة، كل الحضور. وفقاً للمعتقدات السائدة من شأن ذلك أن يساعد المتوفى على العبور إلى العالم الآخر. ثم، رفع حفارو القبور الكفن فظهرت جثة نازيل. وقد طوّقت عنقه برباط يحمل الخاتم الذي كان يستعمله لختم مراسلاته أو الأوامر التي يسّطرها.

على مرأى من الأرملة المضطربة، وضع حفارو القبور الجثة على جانبها الأيمن، في وضع الجنين، موجهين محورها نحو الشمال، ويديه نحو وجهه. ثم ثبتوا بلاطة في وضع عمودي فوق القبر وغطوا بالتراب المساحة الفاصلة بينها وبين الجدار المزدوج الدائري. بعد انتهاء العمل بدا كل ذلك أشبه بتلة قمته مسطحة وبمرور الزمن سوف تغطيها الرمال كلياً وتغدو قُبّة مجهولة ضمن آلاف القباب.

فور انتهاء الطقوس، أجهشت بالبكاء فاحتضنها ابنها بين ذراعيه.

- كان رجلاً خيراً وخادماً أميناً، علّق ساريل.  
بقي الجَمْع حول المدفن بينما أخذ الكهنة يرددون دعاء جديداً.  
وحالما ساد الصمت أخذ الملك الطيب من ذراعه وانتحى به جانباً.  
- أيها الآسو أود أن أكرر شكري لك على ما فعلته لزوجتي.  
فلولا فنك لماتت. أنا معترف بجميل صنّعتك. أطلب ما تريد، وسوف تحصل عليه. اعلم أيضاً أنني لم أنس أمر ابنك. فموت نازيل لم يقلل في شيء من إصرارنا بل عززه والبحث جارٍ وأنا واثق أننا سنجدّه.

- لسمع منك الآلهة، مولاي. لكن مرّ وقت طويل وأخشى أن يكون السيف قد سبق العذل.

- أنفهم مخاوفك. لعلني كنت أشعر بمثلها إذا ألمت بطفلي مصيبة. اطمئن.

أوما ياكين إيجاباً لكن من دون اقتناع. وسأل:  
- ماذا جرى لقتلة نازيل، هؤلاء الذين قاموا بذلك الهجوم ليلة  
الوليمة. هل تمكنتم من القبض عليهم؟  
- مع الأسف لا. الرجلان اللذان طاردهما حرّاسي قاوما حتى  
النزع الأخير ولم يستسلما. لا شك أنهما كانا على أتم استعداد  
للتضحية بحياتهما. وفقاً لضيفي، وهو من الكاسو، الأمر أكثر  
خطورة مما يبدو. فهو مقتنع أن هناك مكيده لإسقاط سلطتي. لأي  
سبب؟ أسأل نفسي هذا السؤال مراراً ولا أجد الجواب. لم يتعرّض  
والدي، أو جدي، أو أيّ من الملوك الذين سبقوني، لمثل هذه  
الأفعال.

أعتقد، بكل صدق أنني أحكم بالعدل بين الناس، وإن وقعت  
بعض المظالم هنا أو هناك. فدلّمون مملكة هادئة ورغدة. والبؤس  
هو الذي يولد العنف. إلا أن بلادنا لم تعرف البؤس في الماضي أو  
في الحاضر. ألسنا الأرض التي تشرق الشمس منها؟ ألسنا مغمورين  
ببركة الآلهة؟

بينما كان الملك يتكلم، طاف خاطر بعقل ياكين.  
«ألا يضجر الآلهة من البشر؟»

\*\*\*

كانت شعلة القناديل تتراقص بتأثير الهواء الدافئ ملقية على  
الحوائط ظللاً كالأشباح.  
وكانت إيشا ممددة في الغرفة الرئيسية على حصيرة مغطاة بوسائد

من الصوف أعدّها زوجها . كانت عيناها مغمضتين وبدت نائمة، إلا أنها في الحقيقة كانت منصّنة لكل كلمة من الحديث الدائر بين شاكروماش وزوجها الجالسين أمام بقايا وجبة غذاء .

- حسن، قال العجوز، ها أنت قد أصبحت المُفْضَل لَدَى الزوجين الملكيين . إنه لشرف عظيم .

قبل أن يرد الطيب، تدخلت إيشا ملاحظة:

- شرف عظيم، نعم، ولكني لا أجرؤ على تخيل ما كان ليحدث لو أن الملكة ماتت متأثرة بجرحها .

- دعك من هذا يا إيشا، اعترض شاكروماش، دعينا لا نستدعي المصائب، فهي تطبق علينا دون إنذار .

رمق ياكين واستطرد:

- أفترض أنك غير مستعد للإنصات لحكايات عجوز خرف، لكن اعلم أنني واصلت العمل في ترجمة جلجامش .

- جلجامش؟

- نعم . هكذا قررت أن أعنون القصة القديمة التي رويت لك جزءاً كبيراً منها . وما اكتشفته فيها أكثر إبهاراً . تصوّر أن . . .

- من فضلك، يا صديقي، قاطعه ياكين بحِدّة . كما ذكرت، عن حق، فلست على استعداد لسماع قصص من أي نوع .

وبادي الهمّ، ترك المنضدة ليجلس على الأرض بجوار زوجته .

- كيف حالك يا قلبي؟

بينما أخذ يمسح جبهتها، تراءت له في مخيلته صورة غير متوقعة أبداً . غير متوقعة بقدر كونها لا معقولة ولا مهذبة . لقد استعاد مشهد القصر، ليلة استدعائه ليكون بجوار الملكة المصابة بجرح خطير .

كانت قرية جداً من ياكين وكان بإمكانه أن يحسّ بنفسها ويشمّ عطرها. عطر ناعم مثل فجر ربيعي. كان قد وضع فمّ القربة على فمّ دالاما وأجرى خيطاً من الماء بين شفّتها. ومرة أخرى انحسر الغطاء ولامس ثديا المرأة جذع ياكين. وسرعان ما تولّد لديه الانطباع بأن ناراً تحرق جسده من خلال جلبابه. عندئذ أغمض عينيه واستمر في إرواء ظمأ دالاما سائلاً الآلهة، هو الذي لم يُصلّ من قبل قط، أن تضع حداً لهذا الاضطراب.

كيف أمكن ذلك؟ كيف يمكن لعقل إنسان أن يستعيد أحاسيس متضاربة بهذا القدر، بينما القلق يفتك به، وفكره كله يهفو إلى ابنه الغائب، وبينما هو يحب زوجته حباً صادقاً من أين جاء هذا الدوار، هذه الازدواجية الخاصة جداً في كيانه، هذا الانجذاب غير الواعي المجنون، المفعم بالأحاسيس الشهوانية.

لقد عاش لفترة وهمية مداعبات دالاما، الانغماس في اللذة، المجون، المتعة العميقة، لدرجة أغرقت ياكين في نسيان لانهائي، نسيان عائلته.

- هل تسمعي؟

انتفض لسماع صوت إيشا.

- معذرة حبيبي، ماذا قلت؟

استطردت إيشا ساخرة:

- بفضل طبيبي الخاص سأموت متعافية.

- كفي عن هذا اللغو! إبصقي هذه الكلمات من فمك. هذا ليس

حسناً. ستزيدين حالتك سوءاً. يجب أن تقاومي، وسوف تتغلبين على المرض.

- ولماذا أقاوم؟ لمن؟ حينما تقطع من أم فلذة كبدها، ماذا  
يتبقى لها من سبب للحياة؟  
- أرجوك... توّسل يا كين...

- اسكتا كلاكما! أمر شاكروماش. ألا تسمعان الطرق على  
الباب؟

نهض الطبيب.

فتح الباب. كان على العتبة جنديان، وخلفهما جندي ثالث  
يحمل طفلاً نائماً.  
- وارك!

انتزع ابنه من بين ذراعي الجندي وضمه إلى صدره.

فور سماع صرخة يا كين، قفزت إيشا من فراشها وانضمت إلى  
زوجها، إلا أنها على العكس من زوجها، لم تستطع أن تنطق بكلمة،  
فوقفت متصلبة، متجمدة، شاخصة في طفلها وفي عينيها نفس  
الانفعال الذي اعتراها صباح يوم ولادته. كانت الدموع تسيل على  
وجنتيها إلا أنها لم تكن تشعر بها. وكانت يداها ترتجفان، بل  
جسدها كله يرتجف دون وعي منها. فجأة لم تعد تحس بالألم أو  
بالضعف، كما لو أن المرض طار بعيداً، تاركاً إياها سليمة، قوية،  
ولكن ليس بالقدر الكافي لحمل طفلها.

أما شاكروماش فكان قد اندفع بحنان جارف نحو وارك فحمله  
بين ذراعيه وأودعه الفراش الذي كانت قد غادرته إيشا لتوها.

في هذه اللحظة تكشفت في ضوء القناديل، صورة العجوز  
والطفل عن مشهد خيالي: الولادة والموت مجتمعان! الماضي  
بتجاعيده والمستقبل.

شرح أحد الجنود الأمر لياكين:

- وجدت دورية من الجند ابنك عند جبل الدخان . أنقذته في اللحظة الأخيرة، إذ كان أحد خاطفيه على وشك أن يطعنه بخنجر لولا أن تمكن أحد الجنود من الإجهاز عليه بسهم .

- أحد الخاطفين؟ كم كان عددهم؟

- اثنان . تم القبض على الثاني وهو يحاول الهرب . نأمل أن يعترف بالدافع إلى الجريمة . من جانب آخر، يطلب الملك حضورك إلى القصر . في أقرب وقت .

إنصرف المبعوثان . بينما وقف ياكين متصلباً، تهزه زفرات

صامته .



## قصر ميلان

كان ياكين جالساً في قاعة المجلس، ينصت باهتمام للتقرير الذي يقدمه مستشار الملك الذي حلّ محلّ نازيل. اسمه راماديل ولم تتجاوز سنه الأربعين. متوسط القامة، أسمر البشرة مثل غالبية الدلمونيين، وجهه كان يمكن أن يوصف بالعادي لولا إصابة شفته العليا بتسوّه الأرنب المشقوق. عندما انتهى من تقريره، التفت ساريل نحو الطبيب مستفسراً:

- حورابي. هل يعني هذا الاسم لك شيئاً؟  
أكد الطبيب.

- دون شك. هو طارد للأرواح الشريرة، من ذات نوعية زميله الذي يعيثُ فساداً في بلاطك والذي أصرّ على تقديم علاج لزوجتك لن يكون أكثر فاعلية من لدغة بعوضة على قرن ثور.

لم يستطع الملك أن يكبح إبتسامة ساخرة،

- ثور؟ أبقارن دالامتي، دُميتي الجميلة، إنسان عيني، بثور؟  
- مولاي، كانت... .

- لا داعي للتبرير. كنت أمزح. إذن هذا الحورابي هو آشيبو.

وإن صدّقنا الاعترافات التي انتزعناها من تابعه فهو رئيس طائفة تسيطر عليها فكرة واحدة: جلب الخراب على دلمون. وإقامة مُلك الإلهة تيامات، وإنهاء ملكنا، مقتنعاً بأن نظاماً جديداً سوف ييزغ من حطام نظامنا.

- تماماً مولاي، صدّق المستشار الجديد. وهو المسعى الذي أدى إلى الهجوم أثناء الوليمة ونتج عنه موت نازيل وكاد يحرمنا من زوجتكم.

- لكن، لماذا خطف ابني؟ صاح ياكين. لأي سبب؟

لامس راماديل شفته المشقوقة بإصبعه في حركة عفوية.

- أعترف بأن ليس لديّ أي فكرة. لعلّه انتقام شخصي؟

فجأة، استعاد ياكين كلمات طارد الأرواح الشريرة في ذاكرته:

«لقد حذرتك، سيكون مصيرك بائساً. فما من شخص في دلمون، ما من كاهن، لا يعلم أي مُجدّف أنت». هل هذا معقول؟ هل بلغ كره هذا الشخص له هذا المدى؟ لم تكن المرة الأولى التي يلاحظ خلالها الطبيب أن الجهل يولد الخوف وأن الخوف يولد العنف.

إستطرد ساريل:

- هل لدينا فكرة عن مكان اختباء هذا الحوري؟

- الرجل الذي تم القبض عليه يفترض أن الآشيپو لاذ بالفرار

إلى مستعمرتنا في دامان. لكنه هو ليس متأكداً.

- هل أنا فعلاً حاكم ظالم؟ أليست دلمون جزيرة الآلهة

المختارة؟ هل تجيبني يا ياكين؟ لماذا يسعى البعض لتعطيم كل شيء؟

لم يأت الرد من الطبيب، بل من شخص ظل مختفياً طوال

الوقت، متباعداً في الظل.

- سأجيئكم أنا يا مولاي.

تقدّم خطوة أخرى قبل أن يقول:

- الغيرة.

- أقدم لك أولام، أعلن الملك مشيراً بيده إلى من قاطعهم.

أولام من شعب الكاسو، هو ضيفي.

- الكاسو؟ استغرب يا كين.

- نعم، رد أولام. أصلنا من الجبال العليا. من مقاطعة

کردستان.

واتجه نحو الملك مستكماً حديثه:

- مولاي، أنت تتساءل لماذا يريد البعض كسرهم. يبدو لي أن

الرد واضح، جليّ. الغيرة. ألا تمتلك دولتك مصادر مياه عذبة لا

تنضب، وموانئ محمية جيداً، تستقبل البحارة والتجار القادمين من

بقاع العالم كافة؟

أليست مملكتكم قادرة على الحصول على كافة المنتجات التي

هي في حاجة إليها لتغطية استهلاك رعاياها؟ أليست في فيض من

الثروات العظيمة فضلاً عن كونكم نقطة التقاء، لا يمكن تفاديها، على

المسارات الملاحية التي تربط «بلاد ما بين النهرين» بمناطق بعيدة بُعد

ما كان؟ لا شيء ينقصكم. لا أشجار النخيل أو المانجروف ولا

الحجر الصوّان لتصنيع الأدوات، أو الحجر الجيري المتاح بوفرة

لأعمال البناء، ولا الكورنالين من ملوحة أو اللازورد من

باداشكان<sup>(١)</sup> الغيرة، مولاي. هذا هو التفسير.

- يصعب عليّ تصديق ذلك، ردّ ساريل.

- ولك كل الحق، أضاف يا كين.

---

(١) مقاطعة شمال شرق أفغانستان.

وموجهاً حديثه إلى الكاسو:

- سامحني، لكنني لا أظن أن الغيرة هي الدافع الوحيد لـ  
حورابي ورفاقه. لا، الحياة علمتني أن هناك صنفاً من البشر لا  
يفترقون بين العالم المحيط بهم وبين معتقداتهم. وحين يُصار إلى  
التشكيك في معتقداتها، والاستهزاء بها، يعتقدون - خطأً - أن  
شخصهم قد أهين. عندئذ يصبحون على أتم الاستعداد لاستخدام  
عنف غير محدود. أعتقد أن حورابي واحد من هؤلاء. وقد نقل لنا  
رسوله، بوضوح، الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه: إسقاط المُلك،  
معتقداً أن نظاماً جديداً سوف يولد من رَجْم الفوضى. إن لم يتم  
إيقافه سوف يضرب مرة أخرى. سوف يضرب ما دام لم يحقق مأربه.  
أبدى الكاسو موافقته وهو غير مقتنع.

- مهما كان الأمر، قال ناظراً إلى سارييل، تأكد أن شعبنا  
سيكون دائماً إلى جواركم وأن مليكنا، الذي أخبرته بالموقف، على  
أتم الاستعداد لإمدادكم بالدعم العسكري إن كُنْتُمْ في حاجة إليه.

تمهّل الملك مفكراً لبرهة قبل أن يقول بلهجة حاسمة:

- لن تتمكن حفنة من المهووسين من تركيع دلمون!

ثم أشاح بيده وأمر:

- انسحبوا. أريد أن أنفرد بنفسي!

وإذ همّ ياكين بالذهاب مع الآخرين، أوقفه سارييل:

- أنت لا ابقَ.

أغلق الباب. ألقى الملك بنفسه على مقعد، وبعد صمت طويل،

استأنف حديثه:

- نازيل تركنا. غيابه سوف يزعجنا. لم يكن فطناً دائماً، لكنه

امتلك صفتين أساسيتين في عين مليكه: الوفاء و... الوفاء. لكنه لم

يكن وفاءً أعمى، من النوعية التي يفتعلها المتملقون الذين، خوفاً من فقدان حظوتهم، يمتطرونك بالإطراء ويوافقونك على كل شيء. كان نازيل مجبولاً من طينة أخرى. طينة النزاهة.

تحسّس الملك ذقنه، بشكل عفوي، قبل أن يستطرد:

- لا أعرف إذا كان من عَيْنْتَهُ خليفته له جيداً. لا أشك فيه، لكنني أفضل الاعتماد على شخص خَبِرْتُهُ وأثبت لي كفاءته.

صمت تماماً، ثم سدّد نظره في عيني ياكين، وقال:

- هل تكون مستشاري؟

لو أن الأرض مادت تحته، لما أحس الطبيب باضطراب مماثل.

- لكن... مولاي، لا أعرف شيئاً في شؤون السياسة. ما أنا سوى آسو بسيط، لا أعرف غير علاج البشر.

- تعرف الإنسان. وهو علم أهمّ من السياسة بكثير. لقد راقبتك. أنت ذو عقل راجح، ترفض الخرافات، ولعلّ الجسّ السليم أكثر الصفات التي أنا في حاجة إليها. فهو يفرض الانسجام في المجتمع. رجل ذو حس سليم سوف يفرض النظام والسلام والهدوء، وهو ما قد لا ينجح فيه سياسيّ.

هز ياكين رأسه، بادي الحيرة.

- لا يا مولاي، لا أستطيع أن أقبل، سامحني. لكنني مؤمن تماماً أن موقعي بجوار الذين يتألمون، وبشكل أخص الأعداء عليّ منهم، وعلى رأسهم زوجتي.

وقف الملك، وتوجه نحو منضدة صغيرة يعلوها إناء من الفخّار يحتوي حبّات من التين. تناول واحدة ودعا ياكين لتناول أخرى ولكنه رفض شاكراً.

- زوجتك، قال الملك مستغرقاً في التفكير. نعم حدثني نازيل عنها. بسببها رفضت السفر إلى ملوحة، أليس كذلك؟  
 - نعم مولاي. أخشى أنها لن تعيش طويلاً. فهي تعاني من مرض أجد نفسي عاجزاً حياله.  
 - لا تستبق الحكم على الحياة أو الموت أيها الآسوا العيش أو الموت ليسا من سلطة البشر. قد تعيش زوجتك بعد موتك.  
 تلقف حبة تين أخرى، وأضاف:  
 - حسن. أحترم إرادتك. لكن احتفظ باقتراحي في ركن من بالك. قد يغريك يوماً ما؟

\* \* \*

آتارك

يخال المرء، هذا الصباح، أن العاصمة مركز الكون. بل لعلها كانت كذلك؟  
 أشار تسورا بإصبعه إلى المخزن الضخم القائم بين الأسوار والميناء.  
 - انظر يا أوسر. هنا تجتمع كنوز العالم! تعال، اتبعني. فعليّ مقابلة شخص مهم.

تسلّل الأب والابن بصعوبة وسط جمهور تميز بتزواج متعدد الألوان بين الملابس والبشر. مرّاً بجوار ورشٍ انكبّ فيها خزافون مهرة على استنساخ قوارير وزلع يستحيل مع اتقانهم لصنعها التفرقة بين المُصنَّع منها محلياً والمستورد. ذلك فضلاً عن القيشاني الملون الوارد، حسب ما يقال، من «أرض الرمال»<sup>(١)</sup>.

(١) شبه الجزيرة العربية.

- أبي، ما هذا؟ تساءل أوسر ملاحظاً منضدة مغطاة بأختام صغيرة حُفرت عليها علامات وأشكال ثيران حدباء غريبة.  
- هذه توقيعات، الهدف منها تحديد كل من البائعين والمشتريين الذين يُبرمون صفقة ما، وهي تُختم أيضاً على أكياس البضائع، وأعناق الجرار، والخزانات وحتى الأبواب. هيا بنا، فلنسرع الخطى! سوف أتأخر عن موعدني.

بينما انطلقا مجدداً، سأل الفتى:

- التُّجَّار، هل يسافرون بعيداً؟

- نعم! بعيداً جداً. التقدم الذي حققناه في أحجام وسرعات سفننا سمحت لهم بالتفوق على منافسيهم. فهم قادرون على الإبحار عكس التيار في الترعَة الكبرى، حتى مدينة أور أعرف بعضاً منهم استقروا هناك ليرسلوا لنا بضائع متنوعة من المنسوجات والزيت، والأكياس، والمنتجات الجلدية وحتى القطران.

- ولماذا اخترت أن تكون صائد لؤلؤ بدلاً من أن تكون تاجراً؟  
كان يمكنك أيضاً أن تسافر وتكسب أكثر مما يتركه لك مالك المركب، والأهم ما كنت لتهدر صحتك.

بعد فترة من الصمت، أجاب تسورا بنبرة حزن:

- لعلك على حق يا صغييري، وكنتم ستحيون حياة مريحة أكثر من حياتكم الحالية، في منزل أوسع وأجمل دون أن تضطروا لحرمان أنفسكم من أشياء كثيرة. هذه حقيقة، لكن . . . . .

أمسك الولد بيد أبيه بلهفة وهتف معترضاً:

- لا! لم أعن ذلك. أنت تعلم أننا سعداء جداً.

- لا تعتذر. لقد فهمت سؤالك جيداً. لكن، للأسف، الحياة

لا تتيح لنا أن نختار ما نريد أن نعمله. لقد شرحت لك من قبل:

والذي كان صائد لؤلؤ، كذلك كان والده ووالد والده. يولد المرء صياداً ويموت صياداً. هذه هي الحال منذ الأزل.

رد الفتى:

- إذن، أنا أيضاً سأكون صائد لؤلؤ طول حياتي.

- منطقياً، نعم.

حكّ الفتى رأسه:

- أمر غريب.

- ماذا؟

- لقد أكّدت لي أنني سوف أجوب المحيطات يوماً ما وأنني سأتحدى العواصف وأعود بالمجد والفخار إلى دلمون. هل نسيت؟  
بدا تسورا كمن فقد توازنه:

- ... لا، لم أنس. الأهل يتمنون الأفضل دائماً لأبنائهم. أما الآن، فاسكت! لا مزيد من الأسئلة.

كانا قد وصلا أمام باب المخزن.

عندما دخلا أطلق أوسر، رغماً عنه، صرخة مفاجئة. على رفوف عريضة من الحجر، في جرار وسلال، كميات هائلة من الصوف، والحبوب، والجلود، والزيوت، والقصب المجدول والنحاس، وكميات من خشب الأرز والورد مصفوفة أو مكذّسة وآلاف أخرى من المواد الغذائية غابت أسماؤها عن الصبي.

- أمر غير معقول، تتم الفتى وعيناه شاخصتان، غير معقول.

- هنا بطن دلمون. وإن قيل إنه ليس أكبر مخازن دلمون. أكّد

لي بحار وجود مخزن أكبر منه على جزيرة دامان. ربما كان يبالغ، في رأيي.



لكن ها هو الرجل الذي أريد أن ألقاه. عليك أن تنتظرنني هنا.  
لن أتأخر.

تتبع أوسر بنظرة أباه الذي توجه نحو رجل مهيب الهيئة، ضخمة  
الجثة، ذي عنق مثل عنق ثور. بينما أضفت التجاعيد على بشرة  
وجهه الطريّ هيئة غاضبة.

عندما اقترب تسورا من الرجل حياه بارتباك وقال:

- أشكرك يا أشار على اقتطاع لحظات من وقتك، فأنا أدري  
أنك مشغول بالآف المهام.

لم يُبد المدعو أشار أيّ ردّ فعل. هل سمعته؟ وقال بصوت  
محايد:

- أنا أصغي إليك؟

فرك صائد اللؤلؤ راحتيه بعصية.

- تعرف الشروط التي يفرضها علينا القبطان الذي أعمل عنده.

هي...

- وهو يعمل عندي، قاطعه أشار. أذكرك أنني أمتلك المركب.

هل نسيت؟

- لا، لا، إطلاقاً. وهو بالذات سبب مجيئي. نحن لا نحصل

إلا على جِراية قوامها حوالي ٤٠ سيلا من الشعير كل شهر و ٤ من

الزيت<sup>(١)</sup>، فضلاً عن حصة موسمية أو عَرَضِيَّة من البلح والسمك

ونادراً من اللحم. نحن...

- إلأم ترمي يا تسورا؟ لا أملك ترف تخصيص اليوم كله لك.

فرك الصياد راحتيه مجدداً.

---

(١) تقريباً ٢٠ و ٤ لترات.

- الظروف قاسية يا آشار. ولا أستطيع أن أتدبّر أمري. فأنا مسؤول عن زوجة وطفلين وأضطر إلى الاقتراض لمواجهة أي مصروف غير متوقع أو لمجرد توفير الغذاء لعائلتي. ولا حل أمامي سوى اللجوء إلى من يقرضون بالربا. وتعلم جيداً أن فوائد الديون مُجحفة، لدرجة أن بعضنا يضطرون أحياناً لرهن أطفالهم، بل زوجاتهم، ليعملوا كخدم حتى سداد ديونهم. أنا . . .

- هل انتهيت؟

تمتم تسورا بصوت خفيض:

- هل يمكنني أن أخاطب كرمك لتمنحني وجبات إضافية

من . . .

ثبّت آشار قبضتيه على جانبي خصره ومال بجذعه قليلاً إلى

الوراء.

- ألهذا السبب جئت لتزعجني؟ الردّ، لا. صيانة المركب، سد ما به من فجوات، إصلاح القلاع، ما من يوم يمر دون أن أتكبد مصاريف. ثم إنني إذا وافقت على منحك أفضلية فلك أن تتصوّر أن زملاءك كلهم سيأتون إليّ مطالبين بالشيء ذاته! هذا فضلاً عن أن التجارة هي منذ فترة، لسبب أجهله، في حالة سيئة. وليست تجارة اللؤلؤ فقط. إن أردت أن تزيد دخلك فما عليك إلا أن تصطاد مزيداً من اللؤلؤ. هذا ما عندي. اذهب الآن، فأنا مشغول.

تحوّلت لهجة تسورا إلى الرجاء.

- أتوسّل إليك.

- قلت لا!

في حركة لا إرادية حاول تسورا الإمساك بكمّ آشار الذي عمد ساخطاً إلى إبعاده بغلظة.

- هيا! شيء من الكرامة، ابنك ينظر إليك!

هل نسي تسورا وجود أوسر؟ وكمن أصابه دوار، أدرك خطأه  
الجسيم. فترنَّح برهة على قدميه، ومثل قصبه في مهب الريح ارتج  
جسمه وتقلصت عضلاته، وسقط مطلقاً صرخة مُدَوِّية، وبان الزبد  
على جانبي شفثيه.

## البحرين

بعد ثلاثة آلاف عام، نيسان / أبريل عام ١٨٨٩

أكلت مابل بنت بضع حبّات من الرمان قبل أن تستأنف كتابة ملاحظاتها :

طبعاً، يعتبر صيد اللؤلؤ النشاط الرئيسي في الأرخبيل، حيث يقيم التّجار والغوّاصون في المنامة. هذه البلاد تشتهر، منذ الأزل، بالتميّز الفائق للآلثها، ولا سيّما منذ أن وصل إلى الأرخبيل الأميرال الإغريقي نيارك بتكليف من الإسكندر الأكبر وفي عام ١٥١٠ ذكرها البحّار البرتغالي ألفونس الألبوكيركي :

«تشتهر البحرين بتربية الخيول، وزراعة الشعير والفواكه المتنوّعة التي تنتجها. والطلب شديد على لآلثها في مملكة البرتغال، إذ لا تضاهي جمال لآلثها أية لآلث أخرى تُستخرج في كل المنطقة.»

وهو رأي يجمع عليه التّجار المعاصرون مضيفين أن اللؤلؤ البحريني أكثر صلابة وأطول عمراً من لآلث سيلان، نظراً إلى أنها مغطاة بسبعة جلود بينما تغطي لآلث سيلان بستة فقط. يبدو أيضاً، والعُهددة على الراوي، أن اللآلث تفقد، في العادة واحداً بالمئة كل عام، على مدى خمسين عاماً، من رونق ألوانها ونقاؤها. ولكن بعد مرور هذه الفترة لا تشوبها شائبة من أي نوع.

حالياً، توظف مصائد اللؤلؤ حوالي أربع مئة مركب، على متن كل منها طاقم يتراوح عدده ما بين ثمانية وعشرين فرداً. وهي مراكب غربية فعلاً - إذ هي عبارة عن «باجالات»<sup>(١)</sup> كبيرة، بكل واحدة منها صاربان وشراف كبير على شكل شبه منحرف - تبخر ما بين المنامة والمُحَرَّق. وهي ذات مقدمة طويلة، منحوتة بأناقة، ومزدانة بالقواقع. تُسَيَّر بالمجاديف متى كانت الريح معاكسة. والمرجح أن طريقة تجميع قطع تلك المراكب هي التي أوحى إلى السيد چان دي ماندوفيل<sup>(٢)</sup> تلك الأسطورة التي أبسط ما توصف به أنها خزعبلات: «بالقرب من مضيق هرمز، رأيت مراكب مُجَمَّعة دون استخدام مسمار واحد، ودون رابط معدني أياً كان. والسبب في ذلك يرجع لوجود أعداد هائلة من الصخور الممغنطة في هذه البحار الرائعة، فائقة الجمال. مما يعرّض أي مركب مساميره أو وصلاته من حديد للفرق فوراً في قاع البحر. وذلك أن المغنطيس بطبيعته يجذب الحديد، وبالتالي سوف تجذب تلك الصخور الممغنطة هذه المراكب لتخفيها إلى الأبد».

والشيخ عيسى بن علي، الذي يحكم حالياً البحرين، يمتلك بعض السفن الحربية الجميلة التي أثبتت كفاءتها حينما حاول سلطان عُمان وملوك الأحساء الاستيلاء على البحرين فقامت معركة بحرية شرسة تفوّق خلالها البحرينيون.

(١) مراكب عربية أكبر من الداماجانات.

(٢) اسمه الحقيقي «چان دي بوجوني». ولد في مدينة «لييج» ببلجيكا حيث توفي في ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٣٧٢. وهو مؤلف كتاب عنوانه «كتاب عجائب العالم»، يقال إنه كتبه بعد رحلة مزعومة دامت ٣٤ عاماً ما بين مصر ومختلف الدول الآسيوية، حتى الصين.

فضلاً عن مصايد اللؤلؤ، يحقق الأرخبيل مكاسب كبيرة من تجارة التمور التي تنتجها أشجار النخيل العظيمة التي تغطي أراضي البلاد المروية بغزارة. وقد لاحظنا أن السكان (البُعد البحرين عن باقي العالم) نجحوا دون شك في المحافظة على عاداتهم الألفية مثل تربية الصقور.

في حقيقة الأمر، إذا استثنينا اللؤلؤ، فإن التمور تشكل جزءاً لا يتجزأ من حياة كل بحريني. ويستخرج منها الألياف لصنع الحبال وتستخدم كوقود، ويُنسج منها نوع من السجاد. كما ينتج الأهالي من سعف النخيل مادة تسمى ماء تارا، لها رائحة نفاذة وإن كانت لطيفة، تُستخدم كثيراً لإعداد الحلوى المثلجة. ويرتبط بالبلح العديد من الأساطير. إذ يُروى أن النبي مُحَمَّدًا، كان يحب التمر، وجرت العادة في شهر رمضان أن يفطر الصائم على التمر قبل سائر الأطعمة.

في البحرين آبار عديدة. ولا استخراج المياه يُلقى في البئر دلو من الجلد مربوط بحبل إلى حمار، وعندما يمتلئ بالماء يتم سحبه إلى أعلى بواسطة الحمار الموجه من قبَلِ فلاح يقوم بتفريغ الماء في أنثام محفورة سلفاً. بهذه الطريقة تروى الأراضي. ويوماً بعد يوم، كنا نسمع في مخيمنا تلك الأصوات الغريبة الصادرة من الآبار، في الصباح الباكر وساعة الغروب، ونذكر ما تمثله المياه من بركة لا نهائية لأرض عطشى.

تركنا خلفنا تجمعات النخيل والحصن البرتغالي ودخلنا، ثيودور وأنا، في الصحراء متجهين صوب الجنوب الغربي حتى حدود قرية

عالي، حيث وجدنا السبب الأول لمجيئنا إلى الجزيرة. هناك تبدت أمام أعيننا بحار واسعة من القباب الجنائزية، مدافن عظيمة لعرق مجهول، على امتداد الوادي.

وفقاً للمراجع الكلاسيكية وللاستنتاجات التي توصلنا إليها من واقع أبحاثنا، لا شك في أن هذه القباب من أصول فينيقية. هيرودوت نفسه يشير إلى ذلك ويؤكد أن الفينيقيين أنفسهم كانوا مقتنعين بذلك. أما سترابون فيسوق شهادات أخرى تؤكد هذه الفرضية، وإن وقع في خطأ التأكيد أن الاسم القديم للبحرين هو تيروس، مع احتمال أن يكون تيلوس مجرد خطأ إملائي.

بالمثل، يضع الجغرافي وعالم الفلك الإغريقي كلود بتوليميه، مدينة جرها (السوق التي كان يرتادها قدماء الهنود ونقطة انطلاق القوافل على الطريق الكبير المؤدي إلى شبه الجزيرة العربية) على الشاطئ، في مواجهة الأرخييل، بجوار مدينة القطيف، وعلى غرار سترابون يسمي البحرين تيروس. وبما أننا استخرجنا خلال تنقيتنا، أشياء من أصول فينيقية أكيدة فالأمر محسوم ولا مجال للشك.

في حقيقة الأمر، نحن أمام احتمالين لا ثالث لهما، أحدهما فقط صحيح. إما أن الفينيقيين عاشوا على هذه الجزر منذ البداية وجعلوا منها مركز تجارتهم قبل هجرتهم صوب البحر المتوسط. أو أنهم كانوا يعتبرون الأرخييل مكاناً مقدساً يدفنون موتاهم فيه على غرار نظرة الهنود إلى نهر الجانج. إلا أننا، أنا وثيودور، نميل إلى الاحتمال الأول نظراً للأهمية التجارية التي اكتسبتها البحرين..

ذات صباح، وكانت إقامتنا على وشك الانتهاء، توقفنا بجوار أنقاض «بلاد القديم». هذه المدينة القديمة التي كانت عاصمة البحرين قبل الاحتلال البرتغالي، لا تزال تحتوي آثاراً تثير الانتباه،

من ضمنها مسجد قديم جداً - مدرسة أبو زيدان - <sup>(١)</sup> بمثلذنتيه المميزتين، الممشوقتين والأنيقتين، اللتين تبدوان كسهمين حجريين وتعتبران معلماً مميزاً للمراكب التي تقترب من الشاطئ.

تجاور هذا المسجد أنقاض منازل وبنائات حيث يلتقي البحرينيون كل خميس - يوم السوق - في هذه المساحة المكشوفة بين أشجار النخيل. وما زال هذا الموقع يسمّى، حتى يومنا هذا سوق الخميس.

يقال إن الشيخ عيسى بن علي يتوجه إلى هذا الموقع كل صباح في فصل الصيف للصلاة وتناول القهوة. وكثيراً ما يمضي اليوم هناك هرباً من قيظ الصيف، أو يبحث عن البرودة في حديثه التي تبعد حوالي ميل عن الشاطئ حيث تشكل أشجار السنط واللوز والكرديه مظلة منعشة.

بلغت قياسات القبة التي بدأنا بها تنقيبنا حوالي ٣٥ قدماً في الارتفاع، وبلغ قطرها ٧٦ قدماً ومحيطها ١٥٢ خطوة. وقد فضلناها على القباب الأخرى نظراً لأن قمم معظمها كانت مفلطحة بما يوحي بأن انهياراً ما قد لحق بها. أما قبتنا، فعلى العكس، تامة الاستدارة مما أتاح لنا الأمل بأن نجد فيها شيئاً مثيراً للاهتمام.

على بعد ميل من القباب تقع آثار حائط حصين، مماثلة للآثار القائمة حول بعض المدافن في ليديا <sup>(٢)</sup> أو في تارا، العاصمة الخرافية لأيرلندا.

---

(١) هو «مسجد الخميس» الذي تم ترميمه وافتتاحه في نيسان / إبريل ٢٠١٧ تحت رعاية ولي العهد الأمير سلمان بن حمد آل خليفة، ووزارة الثقافة الشيخة مهي بنت محمد آل خليفة.

(٢) بلد قديم في آسيا الوسطى، يقع على بحر إيجه.



بكثير من العناء، ومن خلال تربة متكلسة في صلابة الأسمت،  
حفرنا حتى عمق ١٥ قدماً إلى أن قابلتنا طبقة من الحجارة الكبيرة  
غير الملتصقة ببعضها البعض، والتي كانت تمثل السطح المباشر  
لأحد المدافن.

أسفل تلك الحجارة، ومباشرة فوق بلاطات مسطحة هي سطح  
المدفن، سَعَف نخيل تحولت عبر القرون إلى نُدف، بيضاء هشة،  
وهو ما يؤكد أن مزارع النخيل كانت مزدهرة في زمن إقامة تلك  
المدافن، وأن السكان اعتادوا استخدام الحجر لبناء منازلهم.

ست بلاطات كبيرة من الجير الخام غير مستوية، يبدو أن  
مصدرها جبل الدخان، كانت ملقاة فوق المدفن المؤلف من غرفتين،  
إحدهما تعلو الأخرى، وتتصلان بممر طويل، على غرار تلك  
الممرات المشاهدة في المدافن الإغريقية. أما مدخل المدفن فكان  
موجهاً نحو الغرب مثل كل المدافن.

دخلنا، ثودور وأنا، الغرفة العليا، وكانت أرضيتها مغطاة بتربة  
حَصوية والمساحة الداخلية مغطاة بتربة صفراء مكونة من عظام  
الجربيع، وهي فصيلة من الفئران، تشبه إلى حد ما حيوان كنغر  
متناهي الصغر، موجودة بوفرة على ضفاف الخليج العربي. انصرفنا  
بعد ذلك إلى رفع النفايات وغربلتها على أمل اكتشاف شيء ما.

أهم الأشياء التي جذبت انتباهنا قطع صغيرة، كثيرة جداً، من  
العاج بقايا قوارير مستديرة، وعقود بها العديد من الثقوب لإتاحة  
تعليقها حول الرقاب، وحدوة ثور مثبتة أعلى منبر من العاج،  
وأدوات متنوعة أخرى، من العاج أيضاً. وقد علبت العديد من تلك  
القطع أشكال محفورة عليها وكانت تلك الزينة تشبه تلك التي تم  
اكتشافها في القبور الفينيقية على ضفاف البحر المتوسط وعاديات

نمرود في بلاد ما بين النهرين، المصنوعة من العاج والموودة والمعروضة في المتحف البريطاني، وكلها تم التوافق عالمياً على أنها من صنّع حرفيين فينيقيين.

عهدنا بقطع العاج التي اكتشفناها إلى السيد موراي، مدير المتحف البريطاني لتقييمها، وقد كتب إلى زوجي: «من واقع تقييمي للأشكال المنقوشة، وقدم الصور المصاحبة لها، لا يوجد أدنى شك لديّ في أنها من مصدر فينيقي».

استخرجنا أيضاً أجزاء من قشور بيض النعام، ملونة ومخططة بأشكال خشنة، أشارت مجدداً إلى مصدر فينيقي، أو على أقل تقدير إلى مجموعة من التُّجَّار حيث كان الفينيقيون، في ذلك العصر، الأناس الوحيدين الذين يضمّون إلى تجارتهم قشر بيض النعام والعاديات العاجية. كما وجدنا أيضاً قطعاً صغيرة، غير متسقة الأشكال، من المعدن المؤكسد أغلبها من النحاس.

إلا أننا لم نجد أي هياكل عظمية لبشر في الغرفة العليا، وعثرنا فقط على هيكل عظمي لحيوان كبير، الأرجح أنه حصان.

في النهاية، لم يمض ثيودور ومابل بنت سوى أسبوعين على الجزيرة، منقبين بين المئات من التلال الصغيرة في العالي، فضلاً عن قيامهما بزيارة أو زيارتين استكشافيتين أخريين، جالبين المرح للوجهاء المحليين. وكانت نتائج تنقيبهم متواضعة. وفي آخر شهر شباط / فبراير عام ١٨٨٩، رأى ثيودور أنه يهدر موسمه البحثي، وعاد الزوجان إلى بوشهر. وعلى عكس بعض بعثاتهما الاستكشافية السابقة، لم تكن القطع الأثرية التي عادا بها من رحلتها كثيرة. إلا أنها معروضة الآن في المتحف البريطاني.

جلس ياكين على مقعد في الفناء الخارجي، وسارع بإنذار  
شاكروماش:

- لعلمك، هذه آخر مرة أستقطع من وقتي لسماع هذه القصة  
الخرافية.

اكتفى العجوز بالرد:

- حسن. لكن قبل أن نبدأ، هل تفضل بالإجابة عن سؤال؟

- أسمعك.

- ما هي الأسطورة؟

- هي كذبة يؤلفها البالغون.

- لا، يا صديقي. الأسطورة حقيقة تبقى حين يختفي كل شيء.

على أي حال، أنا ممتن لك لأنك وافقت - ولو للمرة الأخيرة- على  
أن تعيرني انتباهك لما سوف أقول. لكنني ألفت انتباهك إلى أن ما  
سوف أقصه عليك مازال غير مكتمل تماماً. العديد من الفقرات  
والأسماء مازالت غائبة. بعضها محته الأيام، والبعض الآخر لم  
أتمكن بعد من الكشف عن أسراره.

تنحني شاكروماش وبدأ روايته بصوت بطيء:

- تخطى جلعامش أسوار المدينة مع أول شعاع للشمس. مضى

بعيداً في الخلاء الواسع وعيناه مغرورقتان بالدموع، لقد دفن بالأمس الإنسان الذي أحبه أكثر من نفسه، حباً فاق حبه للنهار البازغ. بفقدانه هذا الحبيب لم، يفقد صديقاً فحسب بل أخاً. لكنه أدرك حقيقة لا مراء فيها: الإنسان ميت لا محالة.

كان الليل قد حلّ لدى وصوله إلى قاعدة جبل شاهق، حيث استقبلته زمجرة وحوش متربصة في الظلام. سيطر عليه الرعب وجَمَدَ أوصاله، وتضرع بكل قواه لإله القمر والخصوبة «أستحلفك يا سين، ارحمني!» وإحتمى بجزع شجرة، تاركاً جسده ينزلق نحو الأرض، منهوك القوى، ثم غلبه النعاس.

في اليوم التالي، استأنف طريقه إلى أن وصل إلى جبل كبير، الجبل المقدس ماشو، من حيث تخرق الشمس كل ليلة النَّقْ الذي يتوغل تحت الأرض لتصل من خلاله إلى الشرق.

كانت مخلوقات غريبة تحرس المدخل، رجال - عقارب، قبيحة ومرعبة تقدم جلجامش نحوها رابط الجأش. وما كاد يقترب منها حتى استجوبه صوت رهيب:

- من أنت؟ وما اسمك؟

- اسمي جلجامش، جئت من المدينة ذات الأسوار البراقة مثل النحاس.

- لماذا جئت إلى هنا؟ عمّ تبحث؟ أجب!

- عن الخلود. أريد أن أفق على سر الخلود. لذلك يتحتم عليّ أن أجد زيوسودرا، ذاك الذي نجا من الأمواج، وهو الناجي الوحيد من الطوفان الذي قضى على سائر البشر.

رد الرجل - العقرب:

- أنت تهذي! ما من بشر قادر على القيام بهذه السفرة. إنها  
رحلة مرعبة عبر ليل لا ينتهي!  
أصراً جلعامش:

- لا يهّم! عبر الألم والهمّ، في البرد القارس أو الحرّ القانظ،  
سأذهب. اسمح لي بالدخول إلى هذا الجبل!  
بعد لحظة من التفكير، متأثراً، دون شك، بهذا القدر الهائل من  
الإصرار واليأس، أعلن الرجل - العقرب:

- ليكن، سأتركك تمر. لعلك تستطيع أن تبلغ قمة ماشو، وأن  
تصل إلى هدفك سليماً مُعافى. اذهب، الجبل في انتظارك!  
انطلق جلعامش غرباً. بعد ساعة مزدوجة كان الليل على مدى  
البصر يغلف المكان بمعطفه الأسود. حين تَعَدَّى رأس التسع  
ساعات، أحس بنسمة الصباح تداعب وجهه، إلا أن الظلام الدامس  
ما زال مخيماً. بعد مرور عشر ساعات مزدوجة أدرك أن ساعة  
الصعود قد حانت. عند الساعة المزدوجة الثانية عشرة بزغ النهار،  
أخيراً، ساطعاً. وظهرت أمامه حديقة رائعة حيث الأشجار حاملة،  
بدلاً من الفاكهة، حُلِيّاً خيالية من الكورنالين، وبدلاً من الأوراق  
مجوهرات محللة بالأزورد. إلا أنه لم يتمكن من إمتاع نظره، إذ برز  
أمامه أسدان يقطعان عليه الطريق، وهما مستعدان للقفز عليه. لم  
يرتعد جلعامش بل هجم عليهما، وبعد معركة نادرة الشراسة تمكن  
من الإجهاز عليهما. حينذاك دوى من علياء السماء، بقوة الرعد،  
صوت شاماش إله الشمس:

- يا جلعامش، أتابعك منذ فترة. أنت مجنون. لن تجد أبداً  
الخلود الذي تصبو إليه... تراجع عن مسعاك! فمالك الفشل لا  
محالة.

- لا! أرفض أن يعود جسدي غباراً! لا! أريد أن تستمر عيناى  
فى التملّى من الضوء، أريد ألا أتوقف عن ارتشاف روعة الحياة!  
أريد أن أعيش!

لم يعلّق شاماش وتوارى خلف سحابة.

استأنف جلعامش تقدمه، وبعد عدة ساعات مزدوجة، وصل  
إلى بحر واسع، تقع على شاطئه حانة متواضعة تديرها سيدورى إلهة  
الجعة والنبىذ. عندما رأت سيدورى هذا الإنسان المتدثر بجلد  
حيوان، وقد لوّحت قسماته المحترقة أشعة الشمس، وأحاطت دوائر  
زرقاء بعينيه وبدا زائغ النظر، خافت الإلهة وأغلقت الباب بمزلاج  
مزدوج.

صاح جلعامش:

- هل أربعتك هيئتي لدرجة أن تغلقى الباب فى وجهى؟ إفتحى

لي!

تعالى صوت مرتعب من خلف الباب:

- من أنت أيها الغريب؟ ماذا أنت فاعل فى هذا المكان المُحرّم

على البشر؟

- اسمى جلعامش! أنا من أجهز على الثور السماوى هومبابا،

حارس غابة الأرز!

ساد صمت قصير، ثم دار الباب على محوره ببطء.

- ادخل، قالت سيدورى.

دعته للجلوس، بعد أن تفحصته طويلاً قبل أن تلاحظ:

- إذا كنت فعلاً هذا البطل، كما تدعى، لماذا تبدو كمتشرد

بائس؟ ترتدى جلد حيوان. ولماذا جسدك ضعيف لهذا الحد وقلبك

مفعم بالألم؟

- وأي جسد أو أي قلب لن يكونا مكلومين ومكمودين بعد رحلة طويلة كرحلتي وبعد ما تعرضت له من عذاب. إذا أردت الحقيقة، فلتعلمي أن الموت وحده هو الذي منحني القوة لتحدي هذه الاختبارات والتغلب عليها، الموت فقط هو الذي منحني الشجاعة لأصل عندك.

استغريت الإلهة:

- الموت؟

- نعم. فقد خطف منّي صديقي، إنديكي، صديقي وأخي الأصغر. فقد عاد إلى ما يعود إليه البشر جميعاً: إلى التراب. بكيته، وتحسرت عليه ستة أيام وسبعة ليال، كنت واثقاً أنه سيعود إلى الحياة إكراماً لدموعي وبأسى. ولكن هيهات! انتظرت طويلاً قبل أن أواريه في التراب. احتفظت به في حضني إلى أن غطت الديدان وجهه، ثم انطلقت هائماً على وجهي في الصحراء.

جثا جلجامش على ركبتيه عند قدمي سيدوري مستحلفاً إياها:

- قولي لي! أيتها الإلهة. قولي لي إن الموت يُهزَم! قولي لي إنني سأعيش!

تهددت الإلهة:

- جلجامش... اعلم أن الآلهة عندما خلقوا البشرية خلقوا أيضاً الموت. أما الخلود فقد احتفظوا به لأنفسهم. هذه هي الحال. الموت مرتبط بالحياة. الموت والحياة واحد؛ لذا، إن كان لي أن أقدم لك نصيحة، اقبل هذا القدر الحتمي واستمتع باللحظة، بكل لحظة. احرص على أن تكون ممتلئ البطن، اجعل من أيامك ولياليك احتفالاً دائماً، ارقص، اسمع الموسيقى، أحب. والأهم من

كل ذلك، ارع الطفل الذي سيلوذ بك، ومتع الزوجة التي تحتضنها.  
عش يا جلجامش!  
هزّ جلجامش رأسه:

- أسمعك، لكنني لا أنصت إليك. يا صاحبة الحانة، يا من تعيشين على شاطئ الآسو، هذا المحيط السفلي الكبير، الذي يفصل بيني وبين زيوسودرا، الناجي الوحيد من الطوفان. أخبريني كيف لي أن أعبره؟ وإن كان هذا العمل الخارق ممكناً سوف أنجزه.  
قظبت سيدوري جينها:

- هذا المحيط الذي تتحدث عنه لم يستطع إنسان اجتيازه قط.  
الأفق ذاته يغرق في غياهبه. كيف تأمل أن تتغلب عليه؟  
- لأنني أريد. لأنّ عليّ أن أفعل ذلك.

تأملت سيدوري لبرهة، ثم أسرّت له بصوت مُتَعَب:  
- ليس بعيداً من هنا، يعيش رجل عجوز يسمى أورشانابي.  
يلقّب مراكبيّ الآلهة. في خدمة زيوسودرا. ويمتلك مركباً وحجراً غامض يسمح له باجتياز المحيط الكبير دون أن يتوه. اذهب، وجدّه. لعلك تستطيع أن تقنعه بأن يصطحبك إلى الشاطئ الآخر حيث يقيم زيوسودرا. إن لم تتمكن، استدر على عاقبيك، عُد إلى رُشدك وارجع إلى ذويك!  
هزّ جلجامش رأسه:

- أشكرك أيتها الإلهة، سأذهب لإيجاد أورشانابي.  
حينما رأى أورشانابي هيئة جلجامش تملكه الفزع: هل هو إنسان؟ أم حيوان؟ أم كلاهما؟ همّ بالفرار لكن، بسرعة السهم، أمسك جلجامش بيده.  
صرخ أورشانابي غاضباً:



- أيها الأحمق، ماذا فعلت! ومن أنت؟

- اسمي جلجامش. وقد اجتزت الأراضي المهلكة، وتغلّبت

على كافة العقبات. إن كنت قد جلت في هذه المساحات الشاسعة،

كما تعصف الرياح، فذلك لأن القدر المكتوب على كل البشر أخذ

مني صديقي. كيف لي أن أعيش بعد هذه الخسارة؟ وهل سيُحكم

عليّ بدوري أن أرقد إلى الأبد؟

رفع أورشانابي ذراعيه نحو السماء.

- ما أنا سوى رجل عجوز. مراكبيّ بسيط. خادم زيوسودرا. أنا

لا أتواصل مع الآلهة.

- إذن أرشدني كيف لي أن أصل إلى سيّدك. أتوسّل إليك،

ساعدني على عبور الأپسو!

فكر أورشانابي للحظات قبل أن يعلن:

- حسن. تعال لنصعد على المركب.

أطاعه جلجامش.

بعد ثلاثة أيام، قطعاً مسافة تساوي إبحاراً لمدة شهر ونصف.

تبدّى في الأفق خيال زيوسودرا، وقد وقفت زوجته بجواره.

تساءل: «من هذا الرجل بجوار المراكبيّ؟»

رسا المركب، ونزل أورشانابي وجلجاميش، الذي سارع

بمخاطبة زيوسودرا منفعلًا:

- يا زيوسودرا! لقد تمكنت من أراك أخيراً، أنت الذي يُسمّى

البعيداً بعد كل هذا التجوال، والمعاناة والحرمان يتاح لي أن أبثك

ألمي.

استغرب زيوسودرا.

- تدلّ هينتك على أنك قطعتم، دون شك، مسافة طويلة

للوصول إليّ. وجهك مكلوم وقلبك مظلّم، ما هذا الألم العظيم الذي يمزق أحشاءك؟

- إنه الموت. الموت الذي يترصّدني ويُفزعني. فقد خطف صديقي الوفي الأصغر إنكيديو. لذا قمت بهذه الرحلة الطويلة، تسلّقت جبلاً قيل إنها غير قابلة للتسلق واجتزت ودياناً وصحاري. أنجزت كل ذلك لهدف أوحد: العثور على الرجل الذي تغلّب على الموت وقاوم الطوفان العظيم الذي أتى على سائر البشر. ومشيراً بأصبعه إلى زيوسودرا:  
- أنت!

تبادل زيوسودرا وزوجته نظرة حزن.  
- جلجامش، قال زيوسودرا، لِمَ لا تحرر قلبك من هذه الهواجس، أنت يا من سُكّلت من نسيج الآلهة؟

عند هذا الحد من روايته توقف شاكروماش ليوضح:  
- اعتباراً من هنا ينقطع النص التمه غير موجودة.  
ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أن يتابع قائلاً:

ردّ جلجاميش:

- وقد استطعت أن أراك وأن أسمعك، يا زيوسودرا يتضح لي أن هيئتك لا تختلف كثيراً عن هيئتي. بل قد تكون أنت أنا. تخيلتك على هيئة محارب لا يعرف الشفقة، بطل، وها أنا أكتشف أنك هش ككل البشر. أخبرني كيف تمكنت من اختراق سر الحياة الأبدية؟  
هنا، سقط على ركبتيه وألحّ في السؤال:  
- أتوسّل إليك!

بعد أن فكّر مليّاً، قال الناجي من الطوفان :

- سوف أبوح لك بسر .

- قُل ! تكلم !

- توجد نبتة . نبتة تنمو هنا، في قاع المياه . لها انعكاسات فضية . إن لم تأخذ حذرك، جرحت أصابعك كما الوردة . إن وجدتها التهمها وسوف تنعم بالحياة الأبدية .

ما إن سمع جليجامش هذه الكلمات حتى سارع إلى ربط أحجار ثقيلة حول قدميه وغطس في المحيط .

هنا أعلن شاكروماش : الجُمْل التالفة غير مقروءة .

ثم تابع : تقدم برفق على المساحة الرملية، إلى أن رأى، النبتة التي وصفها زيوسودرا متجذرة في صخرة، بدت خشنة وذات حواف حادة . أمسك بها، واقتلعها من الصخرة، غير مبال بالجروح التي ألمت بيديه . ثم قام بفك الأحجار المربوطة بكاحليه واندفع نحو السطح .

حالما خرج من الماء أراد أن يشارك زيوسودرا فرحته، لكن زيوسودرا لم يكن موجوداً .

سأل المراكبي :

- أين هو؟

- لا أعلم . لقد انصرف .

قدّم جليجامش النبتة إلى أورشانابي .

- انظر ! وجدتها ! بها لن يخشى إنسان الموت !

سكت شاكروماش مجدداً، ورمق ياكين، ولدهشته، قرأ على

وجهه انطباعاً لم يعرفه عنه من قبل .

عندئذ، لا ذ شاكروماش بالصمت منتظراً.

بعد صمت طويل، طويل جداً، سأل الطبيب:

- هذه القصة، هل وقفت على مصدرها؟

رد العجوز نافياً:

- لا فكرة لديّ.

- على أي حال، على قدر ما بها من تشويق وشاعرية فهي لا

تفصح عن المهم. أنقل عنك: «توجد نبتة. نبتة تعيش «هنا» في قاع

المياه». إلا أن كلمة «هنا» لا تدل على شيء. لا تحدد موقعاً بعينه.

قد يكون في أي مكان، أي بحر أو محيط، أي مساحة ماء.

وبالتالي...

بقيت جملة معلقة. إذ اقتحم وارك الغرفة.

- أمي، قال متلعثماً، أمي تموت.

قفز ياكين كالمجنون نحو الغرفة التي ترقد فيها إيشا.

لم يتعرف على وجه زوجته.

كانت عيناها محدقتين في نقطة خفية فوقها.

جثا الطبيب بجوارها وانقبض قلبه للشحوب المخيف الذي

اعترى قسماتها. وضع أذنه على صدرها. كانت دقات قلبها تكاد لا

تُسمع.

- إيشا. إيشا، هل تسمعي؟

لم تبد المرأة حراكاً.

اقترب شاكروماش بدوره متمهلاً. وامتنع بصعوبة عن طرح

السؤال الذي يلحّ عليه: «هل ستموت؟».

أما ياكين فكان يحاول جاهداً السيطرة على الرعب الذي

اجتاحه. عليه الاحتفاظ بصفائه، أولى صفات أيّ آسو. بذل جهداً خارقاً لتذكر الأعراض التي شاهدها لدى مرضاه الذين كانوا على شفا الموت: شهيق قوي عميق تليه وقفة قد تطول، قبل شهيق قوي آخر، يليه زفير. إلا أن ذلك لم يكن حال إيشا. تنفسها بطيء، لكنه منتظم.

تحسّس يديها. ليستا باردتين. وأظفارها لم تزرّق. تفحص باطن قدميها ولاحظ أن الجلد خال من أي آثار حمراء أو أرجوانية. كما أن أطرافها لم تكن متنفخة. وأخيراً لم يلاحظ انسياب أي لعاب من فمها أو سائل من أنفها. وكلها أعراض علمته خبرته أنها مُعلّنة عن اقتراب الساعة.

مطمئناً بعض الشيء، عاد إلى الفناء الخارجي حيث الموقع المستخدم كمطبخ. ويبدو متلهفة فتح علبة من الخشب وانتقى من بين الأعشاب المتنوعة فيها نبتة ذات ورود على شكل أجراس، لونها أحمر، وقلبها مُنقّط.

تناول إحدى الورد، وأدارها بين سبّابته وإبهامه حتى تحوّلت إلى حبيبات متناهية الصغر أفرغها داخل كوب من الحجر اللين ثم عاد إلى جوار زوجته. وتحت نظرات واراك الغارق في دموعه، وضع الكوب بالقرب من إيشا ومد يده أسفل رقبته ليرفع رأسها قليلاً. ثم غمس إبهامه الأيمن في الكوب، محملاً إياه بالمسحوق المُحبّب الذي حصل عليه من فركه للزهرة، ثم أدخل أصبعه بخفة بين شفتي إيشا.

مرة أخرى، همّ شاكروماش بسؤال صاحبه، ومرة أخرى لاذ بالصمت.

كرر ياكين حركته عدة مرات، تاركاً الحبوب على لسان زوجته.

وبحنان بالغ أمسك بيدها وقبّلها . أحس برغبة ملحة في أن يقول لها ما كان يكتّه من حب لها ، ولم يبيح به حتى هذه اللحظة ، أن يقول إنه عاش لها ، ولها فقط ، فعالمه يدور حولها . كان يود أن يقول لها إنه في المرة الأولى التي منحته جسدها ذاق من دون حدود ، كل ملذات العالم ، وحينما غابت في النوم ، تلك الليلة ، بقي صاحياً ينصت إلى تنفّسها ، تعتريه رغبة مُلِحّة في البكاء من فرط السعادة .

ثم تتمم دون وعي :

- كل شيء على ما يُرام . كل شيء على ما يُرام .

هل كان يحاول أن يطمئن إيشا أم نفسه؟ حينذاك هُيئ له سماع صوت يقول :

«جلجامش . . . اعلم أن الآلهة حين خلقوا البشرية خلقوا معها الموت . أما الخلود فقد احتفظوا به لأنفسهم» .

قرّب أذنه مرة أخرى من صدر إيشا ، منصتاً بتركيز مضاعف لدقات قلبها ، وبقي هكذا ، دون حراك ، حابساً أنفاسه .

في أي لحظة خفقت جفون المرأة؟ في أي لحظة دبت الحركة في قسماّت وجهها؟ أول كلمة نطقت بها ، كانت : وارك .

هرع الولد راعياً إلى جوار أمه .

- أنا هنا يا أمي . بجوارك . أنا هنا .

لاحت على وجه إيشا ابتسامة خفيفة لا تكاد ترى ، لكنها مضيئة ، تحرك المشاعرا

- أحبك ، أردف وارك .

- أحبك يا ولدي .

لم يقدر شاكرو ماش على كبت مشاعره أطول من ذلك ، فصاح :

- الشكر والتقدير لـ إنكي! إنها معجزة.  
ظلاً ياكين صامتاً، منصتاً للصوت الذي يجاهر بمزيد من  
الكلمات:  
«توجد نبتة، نبتة تنمو هنا. في قاع المياه. إذا نجحت في العثور  
عليها سوف تحظى بالحياة الأبدية».

## جزيرة آجاروم.

آجاروم جزيرة صغيرة، لا تتعدى مساحتها ٢ «موزارو»<sup>(١)</sup>، تجتاح شواطئها الشمالية مياه طينية تجرفها روافد «البورانونو»<sup>(٢)</sup> الذي يقع مصبه بالقرب منها. ولكن، إذا إتجهنا غرباً نجد المياه الزرقاء الصافية في «بلد التجويف»<sup>(٣)</sup> التي تلامس بتراخ شواطئ الجزيرة. نظراً لموقعها الجغرافي، ولما بها من مصادر مياه عذبة، كانت آجاروم مقصداً مهماً للتجار والبحارة. ولذلك لم يكن من المستغرب أن يجعل الللمونيون، منها مستعمرة أهلة، تنمو في أراضيها تجمعات مبعثرة من أشجار النخيل، والتين، والأعشاب المتنوعة التي تمثل مرعى ثرياً للغزلان والنعاج، فضلاً عن حقول الشعير والشوفان. وكما في دلمون، يعتبر صيد اللؤلؤ والتجارة عنصراً أساسياً في حياة السكان.

في قلب هذه الظهيرة، كانت السماء صافية ذات زُرقة معدنية

(١) حوالي ٤٤ كيلومتراً مربعاً.

(٢) نهر الفرات باللغة السومرية.

(٣) الكويت اليوم.



تقريباً وما من سحابة تضلل مسار العشرين خيالاً الذين وصلوا إلى مشارف القرية. دخلوا مسرعين شارع الخزافين، الذي اكتسب تسميته من كثرة وُرْش الخزف المتجمعة فيه. ووسط دهشة السكان، اجتاز الخيالة المنازل وأكشاك بائعي الخضروات، ثم انحرفوا إلى اليمين، مارّين أمام معمل كبير لصنع الأدوات النحاسية، وخرجوا من القرية متجهين نحو المكان المقدس. في ظروف أخرى ما كان لجمع كهذا أن يلفت أنظار السكان، فآجاروم تستقبل أصنافاً متعددة من الزوار، لكنها لم تشاهد مثل هذا الجمع المتشع بالسواد والمدجج بالسلاح. خصوصاً وأن آجاروم، شأنها شأن دلمون، وعلى العكس من جيرانهما، لا توجد فيها قوات عسكرية حقيقية. وما الفائدة منها؟ فمن يخطر على باله أن يهاجم مملكة مباركة من قبل الآلهة متعرضاً بذلك لنقمتهم وغضبهم!

بعد أن قطعوا مسافة نصف «بيرو»<sup>(١)</sup> وصل الخيالة أمام معبد يناهز في حجمه أكبر معابد دلمون. بخلاف معظم منشآت الجزيرة المبنية بأحجار عادية مرصوفة ومتلاصقة بواسطة الطمي، كان هذا المعبد مبنياً بكتل حجرية من نوعية ممتازة يجمع بينها وِلاط نادر مما أكسب المعبد صلابة تتحدى الزمن أو الناهبين الذين قد تسوّّل لهم أنفسهم الاعتداء على هذا المكان المقدس. وكان على مدخل المعبد أمام الواجهة شكل برونزي للإله إنزاك.

استمر الخيالة في سيرهم إلى أن وصلوا إلى مقامين مقدسين أحدهما مزوّد بشرفة واسعة، والآخر على شكل بُرْج، وبجوارهما مخزن. في الشمال تبدّت بعض المنشآت الحرفية المزوّدة بأفران

---

(١) حوالي ٥ كيلومترات.

لصنع الأدوات النحاسية والخزفية. وفي الجنوب يقع مبنى كبير يحجب الرؤية، هو منزل حاكم الجزيرة، وأمامه حارسان يبدو أنهما لم يضطرا في يوم من الأيام لاستخدام السلاح.

توقف الجمع على بعد خطوات من الرجلين.

فقام أحد الحارسين بتحتيتهم بلهجة مرحة:

- نهاركم سعيد. عمّ تبحثون؟

بدل الرد على تلك التحية رفع حورابي، الذي كان يقود هذا الجمع، يده في الحال فانطلق سهمان، وفي لمح البصر سقط الحارسان التعيسان على الأرض، دون صرخة، ودون حراك، ودون أن يدركا شيئاً مما أصابهما، أو يعلما أن الموت يدركهما.

ومن دون أن يلقي أحد من الخيالة نظرة على ضحيتيهما، عبروا رواق المسكن ودخلوا إلى الساحة، حيث وجدوا مجموعة صغيرة من الرجال المسلحين. ففضوا عليهم. ثم ترحل حورابي، يتبعه رجاله واقتحموا المبنى وصولاً إلى القاعة. صعد حورابي السلم المؤدي إلى الدور الأعلى ليجد نفسه أمام بابين مغلقين، ومن دون تردد دفع أحدهما بقدمه فانفتح بعنف كان في الغرفة طفلان، صبي و بنت، جالسين على حصير.

- تقدم حورابي بلحيته الكثة والمتعبة صائحاً في وجه الطفلين:

- أين الحاكم؟ أين دمكور؟

- تكوّرت البنت بين ذراعي أخيها مرتعبة.

- ماذا تريد منه؟ استفسر الغلام بصوت هادئ لا تنم عنه سنوات

عمره الاثنتا عشرة.

- وأنت، من تكون؟ سأل طارد الشياطين.

- ابن دمكور!

- وهي؟

- أختي .

- أجبني إذن، أين والدكما؟

- وأنا أسألك، ماذا تريد منه؟

أطلق حورابي صرخة حيوان وبكثير من الغضب انقضّ على الولد شاهراً سيفه، وشد شعره بيده اليسرى وأجبره أن يحني رأسه للخلف .

- هل تتكلم؟

انكشمت الفتاة على نفسها .

بينما تلثم الفتى :

- لا... أدري .

مرّر حورابي نصل سيفه على رقبة الفتى مهدداً :

- ألم يلقنك أحد الاحترام؟

لم يصله من رد سوى قرقرة الدم وهو ينبثق على دفعات من الرقبة المنحورة .

قفزت الفتاة وحاولت أن تلجأ إلى أحد أركان الغرفة .

تقدم حورابي نحوها مكرراً سؤاله :

- أين والدك؟

خرساء من هول الموقف، جاحظة العينين، اكتفت الطفلة بالتحديق في وجه طارد الشياطين المكشر .

- تكلمي!

رفع حورابي سيفه الملطخ بالدم .

تقوعت الطفلة كسعة نخيل حين يطولها اللهب .

- تنهد حورابي وكمن أدركه الملل استدار على عقبه، محني الظهر، متمماً بكلمات غير مفهومة، وغادر الغرفة.
- في الخارج، كان رفاقه في انتظار تعليماته.
- يجب أن نعثر على دمكورا! فتشوا كل الأماكن.
- انتشر الرجال عبر المسكن، حيث اصطدموا، هنا أو هناك، بمزيد من الحراس الذين تم الإجهاز عليهم فوراً.
- أخيراً، صاح أحدهم:
- ها هو!
- اندفع حورابي نحو مصدر الصوت.
- كان الحاكم، وهو رجل في الثلاثين من عمره، ذو هيئة متغطسة، واقفاً في منتصف قاعة كبيرة، من دون خوف بادٍ على ملامحه، أو رجفة تعترى أوصاله.
- أحييك يا سيد آجاروم! أعلن حورابي. أتطلع إلى هذه اللحظة منذ زمن.
- من أنت أيها الغريب؟ كيف تجرؤ؟
- اسمي حورابي. أنا ابن الإلهة تيامات.
- اتسعت عينا دمكورا.
- ابن تيامات؟
- تماماً! تيامات أمنا، أم كل المخلوقات.
- علق الحاكم ساخراً:
- لم أكن أعلم أن الآلهة يلدون قتلة. هيا! اخرج من هنا!
- أذكرك أنني أخو ساريل ملك دلمون، ابن هاميل الكبير.
- تقدّم حورابي خطوة إلى الأمام، مفتعلاً التأثر.

- أرثي لحالك. أنت مفعم بغرور من يخالون أنفسهم فوق  
البشر. شأنك شأن أخيك، وشأن كل من يحيطون بكم، عشتم،  
وتعيشون في ازدرء القوم البسطاء. نعم، أرثي لحالك. لم تفهموا أن  
مُلِكِكُمْ وصل إلى نهايته، وأن عالمكم القديم يجب عليه أن يفسح  
المكان لعالم جديد، نافضاً آثار الماضي.

بصوت متهدج، وعينين تنضحان بالجنون، أضاف طارد  
الشياطين:

- حان الوقت ليحدد الإنسان هدفه بنفسه. حان الوقت ليزرع  
الإنسان بذرة أسمى آماله قبل أن تضعف التربة وتضحى عقيمة.  
ويحك، لقد حانت الساعة التي لن يتمكن فيها الإنسان من أن يقذف  
بسهم العدالة فوق سائر البشر، الساعة التي لن تقدر عندها أوتار  
قوسه أن تهتز! ويحك! لقد حانت الساعة التي سيطفى فيها الإنسان  
النجوم لطول عيشه في الظلمات! ويحك! لقد حانت الساعة! وحدها  
الفوضى، وعودة تيامات ستنقذنا وتنقذ المملكة وكل الممالك.

أقول لك يا دمكور: أنا جالب الفوضى وحامل أمل عالم آخر!  
ساد القاعة صمت جليدي. صمت خانق.

تفحص دمكور وجه حورابي واستقرت في يقينه حقيقة مؤكدة.

- عقلك مريض. أرثي لحالك. لا أفهم شيئاً مما تهذي به ولا  
أفهم الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه. أمل في عالم آخر؟ سفك  
الدماء؟ قتل الأبرياء؟ ألا تعلم أن الحياة هي أعز ما نملك؟ لقد  
ذكرت النجوم التي توشك على الانطفاء، لكنك أنت لست سوى نجم  
يا حورابي. نجم منطفى!

رد طارد الشياطين:

- لا تستحق أن ألوث سيفي بدمك .

استدار إلى رجاله آمراً :

- اقتلوه !

\*\*\*

أتارك .

ألقي تسورا نظرة تجاه الشاطئ، ورأى أن المكان مناسب . رتب  
المجاديف داخل المركب . على مدى البصر بدا البحر مسحوقاً تحت  
الأفق الأزرق . حصون أتارك والميناء، غير المرئية تقريباً، تبعث في  
الشروق البادي انعكاسات حمراء .

- هل أنت مستعد؟ سأل أوسر .

تردد الفتى .

منذ أن عادا من رحلة الصيد ظل يلح على والده ليجحرا مرة  
أخرى لكي يتدرّب على الغوص . فعلى غرار بعض الغواصين الذين  
رأهم يصمدون تحت الماء ما يقارب الاثني «أورو»<sup>(١)</sup> . كان أوسر  
يصبو، إن لم يتمكن من مجاراتهم، إلى رفع مستوى أدائه، إلا أن  
نوبة المرض الجديدة التي أصابت والده جعلته يندم على طلبه .

- أبي، رد أوسر بصوت متردد، سوف يتاح لي كل الوقت  
خلال طلعتنا القادمة للتمرين . هيا بنا نعود أدراجنا . هذا أفضل،  
صدّقني .

- لا، أبداً .

---

(١) أقل قليلاً من دقيقتين .

- لكنك لم تكن موافقاً حينما حدثتكَ في الأمر أول مرّة. لماذا  
غيّرت رأيك؟

مسح تسورا قطرات العرق التي غطت وجهه. بماذا يرد على  
ابنه؟ أين له بالكلمات المناسبة؟ فمنذ فترة، منذ لقائه مع آشار،  
يجتاحه إحساس بأنه غارق في نهر من النار! كلما استعاد الموقف  
كان رأسه وصدغاه يطئنان وأطرافه تؤلمه ألماً مبرحاً. في أحيان  
أخرى، كان يخال أنه محبوس في قاع بئر جنائزية غير واضحة  
الحدود مفروشة بعناكب وحشية تحمل كلها الأسماء ذاتها: الإذلال،  
اليأس...

ثم ألمت به هذه النوبة الجديدة التي أطلقها يد سين. ألم يطلق  
الأسو هذا الاسم على مرضه؟ بماذا يرد على ابنه؟ سوى أن عليه أن  
يسلمه الشعلة بأسرع ما يمكن، حيث أدرك فجأة قصر العمر. فإن  
أدركته المنية غداً يصبح لزاماً على أوسر أن يتحمل مسئولية أمه  
وأخته، وعليه إعدادها لهذه المهمة ولكن دون أن ينقل إليه الخوف.

عندئذ تجاهل السؤال وقال:

- أنصت جيداً. قبل الغوص، يجب أن تطرد من ذهنك أي  
خواطر قد تلهيك عن ما أنت بصدده، وأن تحصر تفكيرك في البحر  
شاخصاً إلى قاعه، بعد أن تتمطى لتلين عضلاتك وإطلاقها. سوف  
تقوم بالتنفس مرتين زافراً أقصى قدر من الهواء بعد كل مرة، مراعيّاً،  
وهذا مهم جداً، أن يتم التنفس من البطن. بمعنى أن تقوم بتلين تلك  
المساحة من جسمك. ثم بسط كفيه على الحجاب الحاجز لابنه حتى  
تشكلت أكبر قبة ممكنة.

ثم قال لابنه:

- تمدد على ظهرك.

أذعن أوسر رغم استغرابه الطلب :

- الآن، اثنِ ركبتيك، ثم ضع يداً على بطنك ويدك الأخرى على صدرك. تنفس: شهيق بطيء، لكن عميق. تيقن من الهواء. وهو يسري داخلك، تنفس: زفير، هذا التمرين الذي ستقوم به كل يوم في المنزل سيتيح لك تجديد الهواء داخل رئتيك بكمية أكبر من التنفس العادي.

أطاع أوسر وشرع في تنفيذ توجيهات والده بدقة. ولما رأى هذا الأخير أن ما قام به ابنه كافٍ، أمره بأن ينهض.

- هل فهمت جيداً؟

أوماً الولد برأسه.

ربط تسورا حجراً في كاحله، وحجراً آخر في كاحل ابنه.

اعترض الفتى بخجل:

- أبي، أستطيع أن أغوص بمفردتي، أنا...

- أنا أيضاً، لكن ما المتعة في ذلك؟

قاطعهما صوت غناء، متصاعد في الهواء. غير بعيد من مركبهما ألقى قارب مرساته، الحجرية، وكان على متنه عدد من الصيادين منهمكين في إعداد شباكهم وهم يغنون. لوّح أحدهم بإشارات عريضة إلى تسورا الذي رد له التحية.

التفت تسورا نحو أوسر، أمراً:

- هيا بنا!

وقفز في الماء محدثاً بقعة من الزبد. وتبعه أوسر.

خاصاً معاً في المياه الصافية. على عمق حوالي ثلاثة أذرع وحالما استقرت أقدامهما على القاع سحب تسورا ابنه نحوه وضمه



إلى صدره. حولهما، في قلب لوحة سحرية من الأعشاب البحرية والشعب المرجانية، تراقصت أسماك ذات ألوان هي من التنوع ما يبعث على الاعتقاد أن الآلهة ذاتها سكبت على حراشفها كل ألوان الشفق. الآلهة؟ طبعاً! ألم تكن الأعماق البحرية المحيطة بدمون جزءاً من دلمون؟ جزءاً لا يتجزأ من هذه المملكة «التي تشرق منها الشمس».

كانت المياه بشفافيتها الفريدة تتيح الرؤية بوضوح كامل. وإذا كان اللون الأزرق سائداً في بعض المواقع فما انفكت لمسات حمراء وبرتقالية وصفراء توجد بتباينها لوحة طبيعية مردها تنوع البيئة البحرية. كان أوسر مركزاً نظره على والده، بينما لم يرفع تسورا عينيه عن ولده.

كانا كالشخص الواحد في هذا العالم الذي ساده الصمت، ولا تُسمع أي مهمة يمكن أن تعترض تنفس الحياة وخفقات القلب. وانسلت حبات الزمن، غير المرئية، ببطء. وكان تشجيع الوالد الصامت يرنّ في رأس الابن. وُخِيْلَ لـ أوسر أنه يسمع: «تستطيع أن تصمد فترة أطول. المزيد. استرخ. تستطيع أن تصمد».

سمع أوسر هذه الكلمات وتراءى له أنها محمّلة بالهواء النقي الذي غمر رثتيه.

متى تحجّرت حبات رمل الزمن؟

متى ترك تسورا عناقه؟ وأبعده تشنج عن أوسر؟

ترك الأب جسده للأمواج تطفو به، بينما ظل كاحله مربوطاً بالحجر.

\*\*\*

كان ياكين يركض خلف أوسر محتضناً محفظته. كان يركض رغم إدراكه أن إسرعه لا فائدة من ورائه. لكن كيف له ألا يتظاهر أمام هلع الفتى؟ هل في مقدوره أن يعلمه أن لا طائل من هذه الهرولة؟ هل يستطيع أن يحرمه من آخر بارقة أمل، قبل أن يصدمه بالحقيقة المؤلمة. إذ لا يمكن تخيل أن تسورا ما زال على قيد الحياة. وفقاً لرواية الولد، أطبقت يد سينّ على أبيه. سجين مياه البحر، استحال عليه الافتكاك من الحجر المربوط في كاحله. حاول أوسر أن يحرر أباه من الثقل الذي يمنعه من بلوغ السطح، إلا أن ما تبقى له من نفس لم يسعفه. فاضطر أن يصعد. غاص مرة ثانية وتمكن من فك الحجر عن كاحل تسورا. أطلق سراح أبيه، إلا أن الصعود بجسمه بات فوق قدرته. صاح واستغاث، فانتبه الصيادون الذين كانوا على مقربة وهبوا للمساعدة. أخبر أوسر أن أباه مكث أكثر من ستة «أورو» تحت الماء. ما من بشر يستطيع أن يحبس نفسه طيلة هذا الوقت.

دخل الولد أولاً منزل الأسرة. كانت والدته آنام جاثمة على الأرض، منكفئة إلى الأمام، وقد غطت وجهها براحتيها. بدت الصغيرة ميلاً نائمة، متكورة في وضع الجنين، عند قدمي أمها. وكان بعض الصيادين مجتمعين في ركن من المنزل وقد بدا على وجوههم الحزن.

حينما دخل ياكين، رفعت آنام وجهها نحوه، ورأى في عينيها أنها اتشحت بالحداد. مدت يدها ببطء نحو باب بدا خلفه جثمان تسورا ممدداً على حصيرة.

- سوف تنقذه أيها الآسو! صرخ أوسر ممسكاً بِكُم الطبيب.  
سوف تنقذ أبي؟ أليس كذلك؟

لم يرد ياكين .

دخل إلى الغرفة، وجثا بجوار الجثمان . بدا على وجه تسورا شحوب الموت الرمادي، فما من نقط عرق ستداعب جبينه بعد الآن، ما من زفير سوف يخرج من رثتيه، لن يتفوه بكلمة، لن يأتي بحركة .

لقد انطفأ بريق حياته إلى الأبد .

تمتم أوسر الذي انضم إلى الطيب بصوت منكسر :

- هل انتهى الأمر فعلاً؟

- نعم يا بنيّ، انتهى . لن يتعذب بعد اليوم .

خلال تلفظه بهذه الكلمات التي أراد لها أن تكون مُعزّية لم يستطع ياكين أن يمنع نفسه من التفكير في إيشا وفي رواية شاكروماش .

يوماً ما، سيقول كما قال جلجامش: «الكائن الذي أحبته أكثر مما أحبت نفسي، أحبته كما يحب الإنسان النهار الجديد» .

حبس دموعه .

يجب ألا يبكي .

ليس أمام هذا الفتى .

ليس أمام كائن من كان .

ضغط على قبضته حتى ازرقّت أصابعه، بينما تعالي غضب أصمّ في داخله .

## المنامة، البحرين

بعد ثلاثة آلاف عام، ١٩٠٦-١٩٠٧

بعد رحيل ثيودور ومابل بنت، جاء باحثان آخران. أندريه جوانان، الذي يعتقد أنه بلجيكي أكثر منه فرنسي، وإنجليزي هو فرنسيس بيثيل پريدو، وكان ضابطاً بالجيش الإمبراطوري بالهند. أولهما، جوانان، تفحص، سريعاً إحدى قباب عالي، وكتب، بعد إنتهائه من التقيب تقريراً موجزاً عنوانه: قِباب البحرين. ثانيهما، پريدو، نقّب في الفترة ذاتها تقريباً، في الموقع نفسه لحساب إدارة الآثار في الحكومة الهندية. ويبدو أنه أرسل مكثفاته إلى بومباي. إثر ذلك، تمت ترقية پريدو إلى رتبة مقدم ونُقِلَ إلى بوشهر.

بعد بضع سنوات، في عام ١٩٢٥، وصل إلى الأرخبيل مستكشف، إنجليزي آخر، إسمه إرنست ماكاي. ولد في بريستول في تموز/ يوليو عام ١٨٨٠، والتحق بمدرسة «بريستول جرامر سكول» ثم بجامعة بريستول، لكن أسفاره المتعددة للخارج حالت دون إتمامه لدراساته العليا. في عام ١٩٠٦، تزوج من دوروثي ماري سيمونز، وأنجبا ولداً واحداً.

في البداية، استهوى علم المصريات ماكاي. لذا تتلمذ على يد

سير فلنדרز پيتري ما بين عام ١٩٠٧ و ١٩١٢ . وبين عامي ١٩١٢ و ١٩١٦ ، كرّس معظم وقته للتنقيب في مدافن طيبة (الأسراي) ، ونشر العديد من المقالات حول هذا الموضوع . بعد ذلك ، ما بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٥ وجّه اهتمامه لبلاد الرافدين . وتزامنت هذه الفترة مع اكتشاف موقع ماهنچو - دارو وحضارة بلاد الهندوس على يد سير چون مارشال ورفاقه في هيئة مساحة الآثار الهندية . أخيراً ، في عام ١٩٢٥ ، كلفت «المدرسة البريطانية لدراسة الآثار» في مصر أرنست ماكاي بالتنقيب في منطقة قباب البحرين . حيث أحصى ثلاثين مدفناً ، عشرون منها يناهز ارتفاعها اثني عشر متراً ، وُصّفت كـ «مقابر ملكية» .<sup>(١)</sup>

على أن البحرين ما انفكت تجذب اهتمام المولعين بعلم الآثار . ففي عام ١٩٤٠ ، جاء دور الباحث الأميركي پيتر ب . كورنوال لينكبّ على البحث عن أسرار الأرخييل ، فتفرّغ لجمع عظام الهياكل الآدمية في ما يزيد عن ثلاثين تجمّع للقباب . بعد انتهائه من حفرياته أرسل مقتنياته ، بعد طلائها بورنيش لحمايتها ، إلى مقر إقامته في مارين كاونتي في كاليفورنيا . وكتب تقريراً عن أعماله نشره بعنوان «تاريخ جزيرة البحرين قبل كسرى» .

في كانون الأول / ديسمبر عام ١٩٤٥ أهدى كورنوال مقتنياته من مجموعة الهياكل والعظام «متحف فيبي ا . هيرست للأثروپولوجيا» في بركلي ، الذي صنّفها تحت الرقم الرمزي ٨٣١ ،

---

(١) بغض النظر عن استنتاجاته النهائية ، تعتبر الحفريات التي قام بها «ماكاي» ، من أفضل الحفريات التي أجريت خلال هذه الفترة . فهو دون شك أفضل أثري في الحقبة ما قبل الدنمركية .

ووفقاً لخطاب وجهه المتحف إلى كورنوال انتهى حصر المقتنيات في أيلول / سبتمبر عام ١٩٤٩. وتشير المراسلات المتبادلة بين جيّفورد (أحد أمناء متحف «فيبي») وبين المكتشف إلى أن المتحف طلب عدة مرات من كورنوال المشاركة في فك طرود المقتنيات ووضع جردة بها، ولكنه لم يقم بهذه المهمة رغم طلب أمناء المتحف المتكرر.

تم تأريخ المقتنيات ما بين نهاية الألفية الثالثة ونهاية الألفية الأولى قبل الميلاد. وتم تصنيف الهياكل العظمية لإنثيين وثلاثين شخصاً، عشرون منهم وجدوا في مقابر فردية، وثلاثة مدافن في كل منها رفات شخصين، ومدفنان فيهما آثار وجود عدد من الأشخاص. في مجمل المقتنيات تبين أن ٣٤,٤٪ منها يخص هياكل عظمية شبه كاملة، و ١٢,٥٪ متوسطة الاكتمال و ٥٣,١٪ عبارة عن عظام متناثرة. كما تم التعرف على عشرين هيكلاً لبالغين، وثلاثة لشباب، فضلاً عن طفلين وثلاثة رُضع. كما تمت ملاحظة مجموعة من السمات التشريحية، من ضمنها أسنان مخلوعة - قبل الوفاة - ، والتهاب المفاصل، و«عقيدات شمورل»، وهي إصابة معروفة تحت مسمى «الفتق القطني - الانزلاق الغضروفي». كما تمت ملاحظة مجموعة إضافية من السمات التشريحية ما زالت تتطلب في عصرنا هذا دراسة أكثر عمقاً، منها كسر واضح وملتهم في جمجمة، ورضة في عظمة العُضد، وخلل في النمو يبدو أنه وراثي.

لكن، من كان يترب. كورنوال هذا؟ وكيف تمكن من تدبير

المبالغ اللازمة للقيام بأعمال التنقيب تلك؟

بالرجوع إلى أرشيف المتحف، في بداية عام ١٩٤٠، يتضح أن خريجاً من جامعة «هارفرد» سعى للحصول على انتساب مؤسسي وتمويل من «متحف هيرست» بغية القيام برحلة استكشافية في شبه

الجزيرة العربية. رفض القائمون على «هيرست» طلبه، إلا أنهم وافقوا على تحمّل تكلفة نقل اكتشافاته المُحتملة حتى كاليفورنيا. لم يكن الخريج المتقدم بالطلب سوى بيتر ب. كورنوال. وهذا ما يفسر إنتهاء مسار تلك الهياكل العظمية في متحف لدراسة علوم الإنسان. أما كورنوال فقد توفي في روما عام ١٩٧٢ عن ٥٩ عاماً، لتتقل رفاته إلى «پالو آلتو» في كاليفورنيا. ونجهل، حتى يومنا هذا، نوعية الأنشطة التي إضطلع بها خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياته. ووفقاً للمعلومات المتاحة لم يرزق كورنوال بذرية، وقد باءت جميع المحاولات للتعرف على سلالة له بالفشل.

على أي حال، فالجميع، سواء في ذلك كورنوال أو ثيودور ومابل بنت أو أندريه چوانان أو فرنسيس بيثيل پريدو أو حتى ماكاي، قد توصلوا إلى نفس النتيجة: هذا العدد المهيّب من القباب لا يحتمل سوى تفسير واحد: إن جزيرة البحرين لم تكن إلا مقبرة مقدسة هائلة. ويرى كورنوال أن عادة بناء القباب على القبور نشأت في جنوب شبه الجزيرة العربية، وتحديدأ في اليمن، حيث انتشرت منها، حديثاً، إلى المناطق المجاورة، وأن تلك المقابر كانت مخصصة «الرفات المحاربين الذكور»، وأن نسبة ضئيلة من الهياكل المدفونة تخص سكان الجزيرة؛ بينما الغالبية العظمى من تلك الهياكل منشأها المناطق المجاورة عبر الخليج العربي.

وما من ذكر لحضارة قديمة في تلك البقاع.

قصر ميلان.

كان سارييل يستشيط غضباً. أمسك بإناء وقذف به عبر القاعة، تحت النظرات المرتعبة لوزرائه، فتحطم أسفل سلّة من غصون الصفصاف حيث ترقد، متكورة، أفعى الملك غير السامة التي رفعت رأسها البيضوي من وقع المفاجئة.

- كيف تجرّأ؟ صاح سارييل. كيف سَوَّلَتْ لهم أنفسهم، هؤلاء الأشخاص، اعتراف هذه الجريمة النكراء؟ اغتيال أخي، وزوجته، وطفلهما! أين كان الحراس؟ هل الدخول إلى مبنى رسمي كالدخول إلى مخبز؟

أريد تفسيراً! ردّوا!

تحسس راماديل، المستشار الجديد، أرنبه أنفه بعصبية ثم تحدث بادِي الحرج:

- مولاي، هل أذكركم بالهجوم الذي تعرّضتم له؟ عندما كان الحرس الملكي متواجداً حولكم. إن دلمون، بخلاف جيراننا، ليست مملكة عسكرية. وليس تحت إمرتنا قوات قادرة على التصدي لهجوم حربي.



هزّ الوزراء رؤوسهم بالموافقة .

رفع ساربييل ذراعيه نحو السماء!

- إنكبي وإنزأك يشهد عليّ! من يتحدث عن حرب؟ وفقاً  
للمعلومات التي أدليتم، أنتم بها هؤلاء الأشرار لا يزيد عددهم عن  
العشرين، ودلمون ليست باتساع بلاد ما بين النهرين! كان من السهل  
التحفظ على هؤلاء الأفراد قبل اقترافهم لجريمتهم!  
ومشيراً بسبابته نحو قائد الحرس .

- أعطيك ثلاثة أيام، لا أكثر، للقبض على هؤلاء القتلة! هل  
فهمتني؟

في هذه اللحظة تدخّل أولام، الكاسو، الشاهد الصامت في  
النقاش:

- مولاي، إن أذنت لي، يمكنني أن أطلب من مليكي،  
جانداش، أن يرسل لكم محاربين أشداء . أخشى فقط أن يطول بهم  
الوقت قبل إدراك دلمون .

رفض الملك العرض بحركة من ذراعه .

- أقدّر عرضك يا أولام، لكن، إن لم تكن المملكة قادرة،  
منفردة، على حلّ ما يعترضها من صعوبات، فهي تعرّض نفسها  
للتهلكة .

أمام التعبير المتوجس الذي بدا على وجه ضيفه، رأى ساربييل  
أن من المناسب أن يفسر قوله:

- اطمئن يا عزيزي! لم يدر بخلدي أن يمثل الكاسو خطراً  
علينا، فتعليقي كان بصفة عامة . لا أتصور أن يفكر مليكك في  
احتلالنا في يوم من الأيام! ولعلكم منهمكون حالياً في حربكم مع

بلاد ما بين النهرين . وبالمناسبة، أما زلتم في صراع مع سامسو-  
إلونا، ابن حمورابي؟

تفادى أولام الرد على السؤال الذي أخرجته، وعلّق:

- المهمّ، مولاي، أن يوضع حد لأفعال هذا الحورابي.

توجه سارييل نحو القفص الصغير الذي يحوي السحالي،  
وأمسك بإحداها من ذيلها وجعلها تتراقص فوق الحيّة.

\*\*\*

مضت ساعة ونيف، وياكين ينتظر في الصالة المخصصة للزوار  
على أمل أن يأذن الملك له بلقائه. كان ينتظر، صابراً، عيناه  
زائغتان، وعقله يغلي من واقع هذا الهاجس المجنون الذي يسيطر  
عليه.

توفي تسورا منذ أكثر من ثلاثة أسابيع، ومنذ ذلك الحين تراوده  
رواية شاكروماش، تزعج لياليه، وتطرق باب نهاره. إن عاد أحد  
مرضاه يسيطر عليه إحساس بأن تلك الشخصية الخرافية جلجامش  
تراقبه جاثمة في الظل، وتفحص كل حركة يأتيتها. إحساس جديد  
فرض نفسه على مصير ياكين. إحساس لا يستطيع وصفه أو فك  
شفرته. طوال حياته، رفض تصديق الخرافات والمعتقدات  
المتوارثة، وما هو، فجأة، ينسحق في ضميره مفهوم «المستحيل»  
ليفسح المجال أمام الممكن. فناعة أوحى إليه بها قوة أعلى من  
إرادته أو ذكائه، أوحى إليه بها، أيضاً، حالة إيशा الصحية المتدهورة  
بسرعة غير منطقية. هيكلها العظمي في تدهور مستمر، وما زال هو  
مسلوب القدرة على إيقاف هذا المرض الغريب.

وإذا كان الأمر حقيقياً، إذا كانت هناك بارقة أمل، نقطة متناهية

الصغر من الضوء فيما يحيط به من ظلام دامس، نطفة من قبس، لو كانت هذه النبتة، القادرة على منح الحياة الأبدية، موجودة فعلاً، في مكان ما، في قاع بحر ما، لاستطاع إنقاذ إيشا من مخالب الموت.

نعم. لكن، أي بحر؟ أي بلد؟ في عمق الصراع الداخلي الذي يعترى الآسو، قوى عديدة تتصارع: المنطق واللامعقول! الحلم والحقيقة!

قبل ثلاثة أيام إنتهى به الأمر إلى الاعتراف لشاكروماش، مثل سباح أعياء التعب فألقى بنفسه على الشاطئ. لم يتساءل هل سيسخر منه العجوز، أم سيفرح لأن ياكين صدق روايته.

ملقياً بحيائه جانباً، ذهب إلى دار صديقه ليتوسل إليه دون مقدمات:

- لقد أوقعت الشك في روحي، يا شاكروماش. أنقذني!

وإذ تبين له أن شاكروماش لم يفهم قصده، سأله:

- هل تعتقد أن هناك ذرة حقيقة في رواية جلجامش؟ قل لي!

ران الصمت طويلاً، بينما كان العجوز يحدّق في الطبيب بجدية صارمة.

- لو لم أكن مقتنعاً لما سعيت إلى إقناعك. نعم، هذه الرواية حقيقية، تُغلّفها تفاصيل وهمية، دون شك، لكنني واثق أن جوهر الأمر واقع مؤكد.

- تلك النبتة التي تمنح الحياة الأبدية موجودة إذن.

أوما شاكروماش مؤكداً.

- لنفترض أنك على حق. أين هي؟

إن لم تختّي ذاكرتي، يذكر النص فقط: «أن هناك نبتة، نبتة تنمو هنا، في قاع المياه». دون أي تفاصيل.

توجه العجوز نحو المنضدة التي يعمل عليها. أخذ ورقة نخيل،  
وختماً صغيراً منقوشاً، ثم عاد إلى موقعه بجوار ياكين.

- يوم أن شعرت إيشا بالألم كنت على وشك أن أطلعك على  
استنتاجاتي، إذ على الرغم مما يبدو للوهلة الأولى تعطي رواية  
جلجامش دلائل مهمة. لقد سجّلتها، أنصت جيداً.

الدليل الأول: «خيمّ الليل عندما وصل إلى سفح جبل شاهق  
الارتفاع. فهنا، تجتاز الشمس، كل ليلة، النفق الذي يغوص في  
الأرض، لتصل من خلاله إلى الشرق».

هناك، إذن، جبل شاهق الارتفاع يقع في الشرق.

الدليل الثاني: «إمتدت أمامه، حديقة رائعة طرحت فيها  
الأشجار، بدلاً من الثمار، حُلياً خلاصة من العقيق الأحمر، وبدلاً من  
الأوراق، مجوهرات مُحلاة باللأزورد».

الدليل الثالث: «بعد عدد من الساعات المزدوجة، أدرك مساحة  
بحرية هائلة».

الرابع: «بعد ثلاثة أيام، قطعوا مسافة مساوية لشهر ونصف من  
الإبحار».

هذان الدليلان الأخيران في الواقع دليل واحد: يشير إلى بحر  
يتطلب اجتيازه شهراً ونصفاً. هل بدأت تفهم؟  
هز ياكين رأسه نافياً.

التقط شاكروماش نفساً سريعاً قبل أن يصرّح:

- ملوحة! البحر حيث تنمو نبتة الحياة الأبدية هو الذي تقع  
ملوحة على شاطئه.

انتفض ياكين.

- ملوحة؟

- نعم. تصوّر أنه بعد ما دبّ بيننا من خلاف لم أضع وقتي. كنت أتوجّه كل يوم إلى المرفأ وأسأل المسافرين القادمين من هذه المنطقة. وقد أكدوا لي جميعاً أن العقيق الأحمر واللأزورد من الأحجار الكريمة الأكثر انتشاراً عندهم، وأن لديهم «جبلأ شاهق الارتفاع» تلامس قمته القبة السماوية يُعرف باسم سقف العالم. من جانب آخر، أكد لي هؤلاء المسافرون أنك لتقطع المسافة بين دلمون وملوحة عليك أن تبخر لمدة شهر ونصف تقريباً. وهناك المزيد!

عرض شاكروماش الختم الذي أحضره. كانت عليه حروف بالخط المسماري. هي ذات الحروف المحفورة على الحجر الذي أطلع ياكين عليه ذات يوم، والذي ظهرت فيه امرأة مقلوبة رأساً على عقب، وأشخاص برؤوس حيوانات.

أما الختم الذي كان بين يديه فقد نُقش عليه رأس ثور وثمررة رمان وفي أسفلهما نص مكتوب بالخط المسماري ذاته.

قرأ شاكروماش بتؤدة:

- «على شاطئ جبل الموتى. بحار الآلهة».

ناول العجوز ياكين الختم.

- انظر بنفسك!

رفع الطيب نظره إلى السماء والحيرة بادية عليه.

- انظر إلى ماذا؟ لا أفهم شيئاً من تلك الكتابة. من أين لك

بهذا الختم؟ كيف حصلت عليه؟

- إشتريته كما اشتريت المخطوط، ولم يكلفني كثيراً، فلم يكن

يساوي، بالنسبة لمن باعه لي، أكثر من حفنة بلح.

رفع ياكين يده إلى جبهته، وهو يشعر بالدوار.  
ملوحة؟ ألم تكن ملوحة الوجهة التي دعاه نازيل للذهاب إليها  
بناء على رغبة الملك؟ محال أن تكون صدفة. الملابس تزايدت  
بحيث أن الأمر لم يعد مجرد صدفة.  
وهذا ما حمله على طلب لقاء ساريل.

- جلالتة ينتظرك.

إنتفض الطبيب الغارق في هواجسه، فلم يكن قد سمع الخادم  
يقترّب.

بعد لحظة، دخل غرفة تكاد تكون مظلمة، حيث استقبله  
ساريل.

صُدم في الحال بهيئة الملك الجادة المهمة، وبدا له كمن تقدم  
به العمر بشكل لا يصدق منذ لقائهما الأخير. هل أصابته علة؟  
أشار الملك لياكين بالتقدم.

انصاع الطبيب وهذه اللحظة بالذات أدرك وجود الملكة في  
الغرفة. كانت دالاما متكئة على فراش مصنوع من الأغصان  
المضقّرة، وقد بدت حافة نهديها من فستانها المتدلي بإهمال، بينما  
انسدل شعرها الأسود الفاحم، كالمطر، على كتفيها المرمرين. في  
الضوء الخافت الذي كان يعم القاعة، حيا ياكين الملكة بإيماءة من  
رأسه، ثم انحنى في خشوع أمام الملك.

- أهلاً بك يا صديقي، قال ساريل. أنا سعيد بلقائك. أمل أن  
تكون قد فكرت في عرضي وأنت جئت بنياً سار.

أفقدته رؤية دالاما التركيز، فتأخر الرد:

- سامحني، أي عرض تعني؟  
- ألم أطلب منك أن تصبح مستشاري؟  
أجاب الطبيب بارتباك:  
- آسف، جلالتك، لكن أحداثاً غير متوقعة تفرض عليّ رفض عرضكم.

ازداد الملك غضباً إلى غضب.  
- الجميع مُصِرّاً على إغضابي، زمجر الملك، خبر سيئ يضاف إلى قائمة طويلة! أي أحداث تعني؟  
فضّل الطبيب أن يعرض دون موارد الهدف من زيارته:  
- منذ فترة، وبتكليف منكم، دعاني المأسوف عليه نازيل، للقيام بمهمة. كان يرغب في أن أتوجه إلى ملوحة للتحري والوقوف على سبب هجرة أهالي تلك المنطقة بعيداً، وقد أبدى تخوفه من أن يكون مرة ذلك نفسي مرض هناك.

- تماماً، وهذا أحد أسباب همومي الحالية.  
واستطرد الملك رافعاً كفيه إلى وجهه.  
- الوضع خطير يا صديقي. إذ يبدو أن نبوءة نازيل المسكين تتحقق. مبادلاتنا التجارية تتضاءل يوماً بعد يوم وبمعدل سريع لا أجد له تفسيراً. فوفقاً لآخر الأنباء تتعرض بلاد ما بين النهرين لتقلبات و... .

سكت ساريل لحظة، وسدد نظرة استفهامية نحو ضيفه.  
- لا أفهم؟ لم آتيت فجأة لتحدثني عن هذه المهمة؟ ألم ترفض القيام بها؟ هل غيرت رأيك؟  
- نعم، جلالتك، غيرت رأي، ومستعد للسفر.  
برقت عينا الملك.

- رائع! لِمَ لم تقل ذلك من قبل؟ مضت أيام وأنا أبحث عن ترياق للهموم التي أثقلت قلبي! أشكرك يا صديقي على هذا الخبر السعيد، هل عقدت العزم حقيقة؟

أوماً ياكين بالإيجاب.

- متى؟ سأل ساريل.

- في أقرب فرصة، إعتباراً من الغد.

- تمام!

وقف الملك وتوجه نحو الباب، وإذا بصوت دالاما يقطع

الصمت:

- لماذا؟

تفحصها الطيب، متفاجئاً.

- نعم، استطردت الملكة. لماذا قررت السفر بعيداً، وهو الأمر

الذي رفضته سابقاً؟

لم يترك ساريل فُسحة للرد، وتوجه نحو عتبة الغرفة معلناً:

- انتظرنى هنا! سوف أصدر الأمر لوضع السفينة بكامل طاقمها

تحت تصرفك.

واختفى.

كانت شعلة واحدة مثبتة في الحائط، بجوار النافذة هي المصدر

الوحيد للضوء. وقد أضفى ضوءها المائل للاصفرار هيئة غير حقيقية

على وجه الملكة.

- ماذا إذن؟ كررت استفسارها ونظراتها مسددة إلى عيني

الطيب.

كانت شفتاها منفرجتين ويكاد الناظر يرى نهديها يرتفعان



وينخفضان وفقاً لإيقاع تنفسها. سيطر على ياكين ذات الإحساس  
بالسحر الذي تمكن منه ليلة تضييده جرحها.

- أنا... قَدَّرت أن الوقت قد حان، ردّ متلعثماً.

سيطر عليه خاطر: الابتعاد، الهروب، الابتعاد بعيداً عن هذه  
المرأة.

ماذا أَلَمَّ به؟ لم يكن قط من هذه النوعية من الرجال الذين هم  
دوماً على استعداد للقاء جديد، لمغامرة عشق جديدة؛ هؤلاء الرجال  
المستعدون دوماً للاندفاع في مجهول مغامرة غرامية أخرى، والذين  
لا تفوتهم أي فرصة لتسلل نظراتهم، متحقة من درجة الشهوانية في  
جسد كل امرأة من دون تفرقة ما بين زوجة أو خادمة فاختلطت  
الأموار في عقل ياكين الذي كان قد تشوّش.

نظرة دالاما الحارقة، صوتها، فمها، بشرتها، أجمت فيه  
أحاسيس غير معقولة كان يظن أنها فارقت منذ زمن بعيد منذ أن  
مرضت إيشا.

وقفت دالاما.

تراجع فوراً خطوة إلى الوراء.

تقدمت.

استمر في التراجع إلى أن اعترضه الحائط من خلفه. همست:

- هل تظن، أني، رغم آلامي، لم ألاحظ شبكك ليلة كنت قريباً

مني؟

حاول أن يعترض.

- زوجك...

- ساريل ملك عظيم، لكنه عشيق خائب.

خلال حديثها، رفعت دالاما ذراعيها وثبتت كفيها على الحائط، حول وجه ياكين. أوضحت شفتاها على بعد زفرة من شفتي ياكين. إلتصقت به، شعر بالحرارة المنبعثة من جسدها وأحس بكل خلية من جسده تصحو من سُبات عميق. تلك الرغبة العارمة في تحسسها وعناقها وفي أن تتحسسه وتعانقه في المقابل تمكنت منه في أعماق لحمه. أحس بنفس دالاما على خدّه، وتملكته رعشة عنيفة. وفي حالة من شبه فقدان للوعي، أو في حالة من الجنون، التصق بها، بينما انفرج فخذهاا تلقائياً، وكاد يسمعها تتوسل:

- المزيد، أريد المزيد!

أخذت وجه ياكين بين كفيها، وضغطت شفتيها على شفتيه. وفي اللحظة التي التقت فيها شفاههما أحس بصاعقة تضربه. من أين استجمع القدرة على كبت شبقه؟ وفي انتفاضة غير مُتصورة في اللحظة السابقة، أزاح الملكة، وابتعد عنها، تاركاً إياها لاهثة.

فجأة، احتلَّ هواء بارد المساحة بينهما فارتجفت، وظنها فاقدة لوعيها.

- لا أستطيع، همس متلعثماً، لا يمكن أن...

قاطعته، متضرّعة، أو تكاد:

- أعطني سيباً واحداً.

- لأن ما يعترينا رغبتان تتحدان، دون حب، دون أمل في

مستقبل، عناق حيواني، لا أكثر.

اعترتها ضحكة ساخرة.

- هذا كل ما في الأمر؟

- لا ، هناك امرأة تنتظر أن أنقذها .
- زوجتك؟ ماذا يمنعك من علاجها ، ألسنت طبيياً؟
- لست بصدده علاجها .
- ماذا إذن؟
- أريد أن أمنحها الحياة الأبدية .



## القسم الثاني



## المنامة، البحرين

ثلاثة آلاف عام بعد ذلك، عام ١٩٥٣

ولد جيفري بيبي عام ١٩١٧، في هافرشام في إنجلترا وهي قرية صغيرة من مقاطعة كامبريا. بعد أن أنهى دراسته في علوم الآثار في جامعة كمبريدج، وفقد الأمل في إيجاد وظيفة في مجال تخصصه، انتهى به الأمر بقبول وظيفة في البحرين، في «شركة بترول العراق» التي أمضى فيها ثلاث سنوات، ما بين عام ١٩٤٧ و ١٩٥٠.

خلال إقامته في الأرخبيل، أمضى جيفري بيبي (الذي كان قبل أي شيء عالماً في الآثار) الغالبية العظمى من وقت فراغه في تفقد الآثار المنتشرة في الجزيرة، بل تجاسر على حفر قبة، لعلها الأصغر من ضمن القباب، بواسطة رافعة بسيطة. بدأ في حفر سرداب من أعلى القبة ليجد بلاطتي تغطية غرفة دفن بالكاد تتسع لهيكل واحد. بعد أن رفع البلاطتين بواسطة الرافعة تفحص سنتيمترات التراب المتراكمة على أرضية المدفن دون أن يجد شيئاً، مع الأسف. كانت حفرة هاو، كما اعترف فيما بعد.

إثر عودته إلى الدانمرك اكتشف، بمحض الصدفة، أنه بناءً على مبادرة من قبل «متحف آرهُوس لمقتنيات ما قبل التاريخ»، نُشرت قائمة منح على مدى الإثنى عشر شهراً المقبلة، من ضمنها مبلغ أربعة آلاف دولار مخصصة لتمويل بعثة أثرية في... البحرين.

لم يتردد چيفري في طلب مقابلة مع القائمين على شؤون المتحف، باعتباره الأفضل خبرة للتحدث عن هذا البلد حيث مكث ثلاث سنوات واستكشفه طويلاً وعرضاً؟ وأمام لجنة، لا تعلم، بطبيعة الحال شيئاً عن الأرخييل، أخذ يشرح، كما يكون الشرح لمجموعة من الأطفال: «البحرين جزيرة متناهية الصغر تقع في الخليج العربي. هي إحدى أصغر الأمم المستقلة في العالم. سكانها حوالي مئة وخمسين ألف نسمة من أصل عربي، كلهم مسلمون، تحكمهم إدارة خَيْرَة، ممثلة في شيخ حاكم - سمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة - يعاونه مستشار بريطاني، سير شارلز بيلغريف. على الرغم من ذلك، سارع چيفري بالتأكيد أنه لا يجب أن نفترض أن البحرين محمية بريطانية. إذ لو كانت محمية لَفُرِضَ عليها حاكم إنجليزي، تحت إمرته قوات مسلحة، يتولى إدارة البلاد باسم الشيخ أو بالتنسيق معه؛ وهو ليس الوضع السائد في البحرين التي يكتفي البريطانيون بمجرد حمايتها. تأكيداً لذلك، تنص معاهدة ترجع إلى مئة عام على أن تضمن بريطانيا العظمى استقلال البلاد، مؤكدة امتناع تدخل الحكومة البريطانية في شؤونها الخاصة».

ما إن انتهى چيفري من عرضه، حتى طُرِحَ عليه السؤال التالي: «أنت تسعى للسفر إلى هناك بصفتك عالم آثار. لماذا؟ هل تعتبر الجزيرة محل اهتمام بهذه الصفة؟ «نعم»، رد چيفري، هي أكبر مقبرة أثرية في العالم»<sup>(١)</sup>.

(١) چيفري بيبي، دلمون، إكتشاف أقدم حضارة. كألان ليثي، ١٩٧٢، باريس. العنوان الأصلي (بالإنجليزية) "Looking For Delmoun".



بناءً على ما تقدم، في صباح يوم من أيام كانون الأول / ديسمبر عام ١٩٥٣، قبل أعياد الميلاد بقليل، وبعد أن حصل على دعم مالي قدره ثلاثة آلاف دولار من الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة<sup>(١)</sup>، استقر جيفري في البحرين على رأس فريق مكون من اثني عشر باحثاً، من بينهم بيتر فيلهلم جلوب أستاذ علوم الآثار في جامعة آرهوس ومحافظ المتحف الوطني في كopenhagen. وجلوب ليس بالشخص المجهول، فهو يُعتبر امتداداً لتلك السلسلة من علماء الآثار الذين يتمتعون بقدرة فريدة على استخلاص منظور شامل من خضمّ كمّ هائل من التفاصيل غير المرتبطة ببعضها البعض، والذين يستطيعون استخراج العنصر الشاذّ من رسم بياني يبدو للوهلة الأولى مُتسقاً. كما أنه قادر أيضاً، بمجرد الحدس، فيما يبدو، على أن يستنتج التاريخ، والمصدر، والمعنى الكامن وراء اكتشافاته.

بطبيعة الحال انكبّ جيفري قبل أن يقوم برحلته، على دراسة التقارير المعدّة من قبل من سبقوه، خاصة تقارير ماكاي والرائد دوران. وإذا كان يعترف ببعض الفضل لدوران، وإن اقتصر ذلك على اكتشافه لحجر البازلت الأسود الشهير الذي سجلت عليه تلك الكلمات الغامضة: «قصر ريمون، خادم الإله إنزاك، رجل من (قبيلة) أجاروم»، فهو في المقابل لا يعتقد بما ذهب إليه ماكاي من أن البحرين ليست إلا مقبرة عملاقة دفن فيها أفراد من القارة العربية وأن الجزيرة لم تكن مأهولة خلال عصر بناء القباب، وهو العصر الذي حدده ماكاي في غضون عام ١٥٠٠ قبل الميلاد. كما كان يعترض على العقيدة السائدة التي مُفادها أن بناء تلك القباب يعود إلى أصول فينيقية. فمن سبقوا جيفري، وخاصة بريدو، كانوا مقتنعين أن

---

(١) بشرط أن تصبح نصف الاكتشافات ملكية خالصة للبلاد.

الفينيقيين عاشوا في البحرين قبل هجرتهم إلى ساحل البحر الأبيض في المشرق. تلك النظرية المُحتملة، وإن كانت خاطئة، تستند إلى مخطوط لهيرودوت يشير إلى أن الفينيقيين ينتسبون لأسلاف أتوا من الخليج العربي.

أين كانت الحقيقة؟ وكيف لنا أن نقف عليها وسط هذا اللغز الهائل؟

خلال السنوات ١٨٣٠-١٨٤٠ حاول أبرز علماء فقه اللغة، دون نجاح يذكر، فك شفرة الخط المسماري الغامض المنسوخ في ثلاث لغات الذي تم اكتشافه على ألواح پرسببوليس، وقد ضاعف من صعوبة فك تلك الشفرة كون النصوص الثلاثة لا تتعدى ثلاثة أو أربعة أسطر.

إلا أن الحظ يقرر، أحياناً، أن يكون في عون الباحثين. ففي عام ١٨٣٣ قررت شركة الهند المرموقة إيفاد ضابط صغير، عمره ثلاثة وعشرون عاماً، إلى بلاد الفرس، في مهمة لتحديث الجيش الفارسي، وكان اسمه هنري كريزويك راولينسون.

ما إن وصل هذا الشاب حتى بدأ اهتمامه بذلك الخط الغامض. وفي أثناء تجواله في البلاد شاهد على قمة جرفٍ صخري يشرف على مدينة بيهستان، رقيماً تذكاريّاً يعود إلى خمس مئة عام قبل الميلاد ويعلو مئة وخمسين متراً عن مستوى الأرض، يصف في لغات ثلاث: الفارسية القديمة، والعيلامية والأكادية، فتوحات دارا الكبير.

بدأ راولينسون بحثه بنقل معظم التسجيل بالفارسية القديمة لكونها الأسهل منلاً. وكان، لثلاث أو أربع مرات في اليوم، يتسلق الجدار المنحدر، ويثبت سلماً صغيراً على المنحدر الذي لا يتعدى عرضه خمسة وأربعين سنتيمتراً أسفل الرقيم، ليعتلي آخر درجة من

السلم «دون أي سند غير احتضان الجدار بجسده، ولصق ذراعه اليسرى بالصخرة، بينما يمسك دفتره بيده اليسرى ويسجل عليه ما ينقله بيده اليمنى».

بعد عامين من العمل الدؤوب، ودون أن يقف على أبحاث علماء فقه اللغة الآخرين، نشر في عام ١٨٣٧، في لندن، ترجمة نص دارا.

في الواقع كان رقيم بيهستان بالنسبة للكتابة المسمارية ما كان حجر رشيد بالنسبة للهيروغليفية المصرية: الوثيقة الحاسمة لفك شفرة هذه الكتابة.

اضطر راولينسون لمغادرة إيران بسبب الخلافات القائمة بين البريطانيين والسلطات المحلية لكنه عاد إليها عام ١٨٤٤ واستأنف أعماله.

بعد مرور ثلاثة عشر عاماً، وبمعاونة باحثين آخرين، نجح راولينسون في فك شفرة مجمل الكتابة المسمارية لبلاد ما بين النهرين، وطريقة التعرف على حضارة بابل وأشور وقدر كبير من تاريخهما. خلال هذه الفترة، عثر راولينسون على ألواح آشورية، تحمل قوائم مدن، وأجزاء من مزامير وتعويزات، واتفاقيات تجارية، وصوراً من تسجيلات قديمة منشأها أجزاء أخرى من الإمبراطورية الآشورية، ومقتطفات شعرية وروايات أسطورية، وحتى قواميس فيها حصر حقيقي للرموز مشفوعة بمعانيها المختلفة ونطقها الصحيح. بعض الفقرات كانت مسجلة بلغة مجهولة، مترجمة أو بدون ترجمة إلى الآشورية. ومجرد عدد الألواح - الذي بلغ حينها خمسة وعشرين ألفاً - جعل عملية الاختيار صعبة لدرجة تكاد تكون مستحيلة.

نجهل المبدأ الذي اعتمده راولينسون لاختيار ما ينشر من بين الألواح، إلا أن أحدهم تضمن التنويه التالي:

«الإله إنزرك، الإله نابو لدلمون».

أي أن الإله إنزرك لم يكن سوى الإله نابو، أهم آلهة دلمون. وهي دلمون ذاتها، التي، جاء في حوليات سرجون ملك آكاد، إنها الدولة التي كان يسكن مليكها «على بعد ثلاثين ساعة مزدوجة وسط بحر الشمس المشرقة».

في عام ١٨٨٠، سجّل راولينسون التالي:

«يجب أن نلاحظ أن كافة الألواح الآشورية تشير إلى جزيرة تسمى نيدوكي باللغة الأكادية، وتسمى تلفون أو تلمون باللغة الآشورية وأن هذا المُسمّى ينطبق حتماً على البحرين».

كان سير هنري راولينسون قد توقع بفضل حدسه المدهش أن دلمون بلد يتبوأ موقعاً رئيسياً في نظر الشعوب القديمة في بلاد ما بين النهرين. على الرغم من ذلك بقيت الحجج التي قدمها لدعم نظريته هشة. لذلك كان عقد جيفري بيبي وفريقه مصممين على تعزيزها، فانحصرت مهمتهم في الكشف عمّا حدث في البحرين منذ يوم ظهور أول إنسان فيها حتى بداية التاريخ المدوّن، منذ خمسة آلاف عام تقريباً. أي لا أكثر ولا أقل من إدراج حضارة ظلّت مجهولة حتى تلك الفترة ضمن تاريخ العالم.

ثُلثاه إله، وثُلثه بشر.

على غرار ثور برّي، قوته لا مثيل لها وأسلحته لا تقهر. لباسه كلباس إله قطعان الماشية والحيوانات البرية. لا يعرف البشر أو البلاد. صاحبه الوحيد هو الحيوان. يرعى العشب مع الغزلان ويرتوي من ينابيع الماء.

تمتد الغابة أمامه، من كل جانب. هل يجروء على اقتحامها؟ لماذا أصرّ على القيام بهذه الرحلة؟ ألا يعلم أن هومبابا لا يقهر؟ فإله المصير عينه حارسه الخاص وزوّده بالسبع المرعبات لحماية غابة الأرز.

خَيّم الليل.

أم هو النهار؟

المومس تتقدم.

تخلع ملابسها، تعرّي ثديها، تبدي المستتر، وهو، مغلوب، يبتهج لمفاتن جسدها، لا يتهرب. تخلع سائر ملابسها. رغبة في تلقين هذا الرجل البريء ما تلقّنه المرأة. حينذاك، يتحرر من ترده. يتخلّى عن مقاومته: الرغبة التي أججتها كاسحة. ستة أيام وسبع ليالي، دون توقف، يضاجعها. بعد أن شبع من مفاتها، رفع نظره

نحو رفاقه، الغزلان، غير أنها أشاحت عنه. حتى الحيوانات المفترسة تهرب منه. وها هو الآن خائر، خارت قواه تماماً. ضعيف، مكسور، لا يقوى على الجري كسابق عهده.

تهمس المومس في أذنه:

- تعال، كُنْ عشيقتي، دعني أستمتع بثمره جسدك، كُنْ زوجي، وسأكون زوجتك. سوف أمنحك عربة من اللآزورد، عجلاتها من الذهب والعنبر. بدلاً من البغال القوية، سوف تجرها شياطين العاصفة. حين تدخل منزلنا المعبأ برائحة الأرز، عتبة الباب ستُقبَلُ قدميك. سوف يسجد أمامك الملوك، والحكام والأمراء ويقدمون لك قرباناً فاكهة الجبل وحصاد الوادي. نعاك ستلد ثلاثاً، وخرافك ستضع توائم، وحميرك ستنقل حمولة أكبر من البغال، وخبيل عرباتك لن تضاهيها خيل في السباق، وثورك تحت النير لن يكون له مثيل.

وهو، مرتعداً، سمع نفسه يجيب:

- وأنا، ماذا عليّ أن أعطيك إذا اتخذت زوجة؟ هل عليّ أن أعطيك زيتاً وملابس لجسمك؟ هل عليّ أن أعطيك خبزاً ومأكلاً؟ ولكن، أيّ مأكّل ومشرب يناسبك؟ ماذا أجنبي إن اتخذت زوجة؟ ما أنت سوى موقد ينطفئ في الشتاء، أنت الباب المفتوح على مصراعيه فلا يحمي من الهواء أو العاصفة، أنت قصر يبني الأبطال، أنت العمامة التي تخفق من يعتمرها، أنت القطران الذي يلوّث من يلمسه، أنت القربة التي تلوّث حاملها، أنت الجير الذي يفلق الحائط، أنت تعويذة من العقيق تجذب وتغري العدو، الخُفّ الذي يجرح القدم. أيّ من عشاقك أحببته إلى الأبد؟ أتريدين أن أقصّ عليك الويلات التي ألمّت بعشاقك؟

أطلقت المومس ضحكة عالية زلزلت الأشجار والسماء وكواكب  
النجوم.

- أيها المخلوق البائس. كل شيء! ستعطيني كل شيء!

ممدداً على سطح المركب، استيقظ ياكين مذعوراً، مطلقاً  
صرخة رعب. كان مقروراً مرتعد الأطراف، يتصبب عرقاً. هذا  
الكابوس مزق قلبه.

دالاما، المومس، إيشا، دالاما.

الأوجه الثلاثة يركب بعضها فوق بعض في ذاكرته لتنصهر في  
وجه واحد.

ماذا ألمّ به؟ ما مصدر هذه الرؤيا الفظيعة التي تسيطر على عقله؟  
هل هي نتاج خياله ليس إلّا؟ هل هي انتقام الآلهة لقيامه بهذه الرحلة  
بحثاً عن نبتة الحياة الأبدية؟ هل هناك من يحاول عقابه؟  
بمجهود يتعدى طاقة البشر تمكن من الوقوف مترنحاً، وتقدّم  
نحو مقدمة المركب. في الليل الحالك يختلط البحر بالسماء وتختلط  
السماء بالبحر.

صدح صوت القبطان خلف ظهره.

- عدم النوم مُضِرٌّ. أراقبك منذ أبحرنا. أنت حبيس عذابك.

ستكون منهار القوى حين ندنو من ملوحة، لن تقدر على الحركة.

الرجل قصير، لكنه مفتول العضلات. ذو لحية كثيفة تكسو  
وجهه، ورغم أن التجهّم لا يفارق سحنه كانت عيناه تشعان بنظرة  
كلها طيبة.

بدلاً من الرد، سأل ياكين:

- متى نصل؟

- منذ واحد وعشرين يوماً وأنت تطرح عليّ نفس السؤال،  
وواحد وعشرين يوماً أجيبك ذات الإجابة: سوف نصل، حين نصل!  
- لكن من المفترض أن تعرف، فوقاً لما قاله الملك، أنت  
بَحَار متمرّس قطع تلك المسافة أكثر من مرة.

عبث القبطان بلحيته شارداً، كمن يبحث عن شيء فيها.

- صدق الملك، لكن الرحلة لم تستغرق أبداً نفس المدة في كل  
مرة. فالمدة تختلف باختلاف الرياح، والتيّار، وهدوء البحر، وقوة  
تَحْمُل المركب. ثلاثون يوماً، أربعون... الألهة تقرر.

قُل لي، بدلاً من هذا الحوار، ماذا تنوي أن تفعل في ملوحة؟  
ماذا تنوي أن تبيع، أو تشتري؟

لم يرد ياكين وعاد ليتمدّد على سطح المركب.

أغمض عينيه، مبتهلاً أن تتركه الكوايس التي تحاصر خلدته منذ  
ليال طوال، حتى بزوغ الشمس.

\* \* \*

آتارك.

أخذت آنام - أرملة تسورا - يد إيشا ولثمتها.

- تحلّي بالشجاعة، أنا واثقة أن زوجك سيعود إليك. إنكي لن  
يسمح بأن تُشكل عائلتان في مثل هذه المدة القصيرة. تسورا فارقتنا.  
فقيّد واحد يكفي.

أومأت إيشا برأسها، دون اقتناع بادٍ. كانت قد نجحت هذا  
الصباح، استثناءً، في مغادرة الفراش لتجلس في الفناء الخارجي.  
عندما جاءتها آنام ليلة سفر ياكين تفاجأت. فالمرأة ليست



بالغريبة، قطعاً، وياكين طبييها وطيبب تسورا وأطفالهما منذ فترة طويلة. لكن ما أدهش إيشا هو أن تقطع المرأة جِدادها، وتتكبّد مشقة زيارتها للسؤال عن صحتها. إلا أن آنام أوضحت لها أن هذه الزيارة ليست مجرد مجاملة، فسيبها مختلف تماماً.

كان ياكين، قبل إبحاره بوقت قصير، قد زارها في بيتها وعرض عليها:

«الآن وقد أصبحت بمفردك مع أطفالك، محرومة من دعم زوجك ودون مصدر للرزق، أود أن أطلب منك أن تفضلي برعاية زوجتي. فأنا بصدد سفرة طويلة، وأخشى تركها بمفردها. في المقابل، سأكافئك بمنحك قمحاً وشعيراً وفواكه... كل ما تهفو إليه نفسك،. فهل توافقين؟»

قّطبت آنام حاجيها، مأخوذة بمفاجأة هذا الطلب غير المتوقع. «أَتفضّل؟ تطلب مني أن أتفضل أيها الآسو؟ على العكس، فأنت من يغمرنني بفضلك! كيف لي أن أرفض؟ طبعاً أوافق.»

ما كادت تبدي موافقتها حتى سدّدت نحوه نظرة متوجّسة.  
- هل أنت فاحش الثراء؟ لا أريد أن تجلب تضحيتك مشقة أو تعتيراً على من تحب. أنا على أتمّ استعداد لرعاية إيشا دون مقابل... و

- لا تقلقي يا آنام. ففي واقع الأمر، لقد غمرنني الملك بعطاياه مقابل قيامي بهذه الرحلة، فلن يحس أحد بنقص أي شيء كان.  
لي رجاء آخر: إن ساءت حالة إيشا، أرجو أن تطلبي من سيلون عيادتها، فهو آسو صديق، يتمتع بثقتي التامة.

- سيلون، لكنّه صغير السن! فهو لم يبلغ العشرين بعد!

- أعلم ذلك. لكنّه الآن طيبب مخضرم».

- اثنان وثلاثون يوماً، تنهدت إيشا. اثنان وثلاثون يوماً مرت منذ رحيله. أبداً، لم أفرق عن زوجي أكثر من بضع ساعات.  
ردت آنام محاولة الابتسام.

- أكرر ما قلته لك، ياكين سيعود.  
- هي رحلة خطيرة جداً تلك التي يضطلع بها. لا أرى فائدة من ورائها. حقاً.

الإبحار بعيداً، التعرض لآلاف المخاطر، لماذا؟

- ألم يغمركم الملك بعطايا؟

- عطايا يمكننا الاستغناء عنها. أليس الحب الذي يغمرنا أكبر العطايا؟ لا، أنا لا أفهم. حدسي يوحي لي أن هذه السفرة تخبيئ شيئاً آخر. لقد حاولت استجواب صديقه شاكروماش، دون جدوى. لم أسمع منه غير أكاذيب. ماذا يظن؟ أني امرأة دون عقل؟ غير قادرة على التمييز بين الحق والباطل؟

مررت يدها في شعرها الأسود وقالت بنبرة حزينة:

- ما هذا الهُراء؟ أعلم أن ياكين يحبني. والدليل على ذلك أنه لم يستغل القانون الذي يسمح للزوج إذا أصيبت زوجته بمرض عُضال أن يتزوج امرأة أخرى. لم يفكر في هذا الأمر قط.

كادت آنام ترد عليها أنه وفقاً لذات القانون يتحتم على الزوج أن يُبقي زوجته المريضة في بيته، طالما ظلت هي، أو ظل هو، على قيد الحياة، إلا أنها امتنعت عن التعليق، فالملاحظة عقيمة ولن تسبب غير الألم.

صاحت إيشا كمن مسها قلق مفاجئ:

- أين الأولاد؟

- اطمئني، هم يلعبون في الحارة، أمام المنزل، وقد نبهتهم بعدم الابتعاد.

\*\*\*

أوسر، وارك ميلا كانوا فعلاً في الحارة. إلا أن البنت كانت مبتعدة عن الولدين، جالسة أعلى جدار منخفض، عابسة. فمنذ أن ظهر وارك في حياتهم، لم يعد أوسر يهتم إلا بهذا الصديق الجديد. لم يعد لأخته وجود في حياته. حتى لو اختفت، ما كان لأخيها أن يدرك اختفاءها! ليتهما يلعبان ألعاباً، أياً كانت! لكن لا. كانا يمضيان وقتهما في نقاش جاد كالكبار. ولما كان نقاش الكبار مملأً فلنا أن نتصور معاناة الطفلة.

كان أوسر يتحدث عن اللؤلؤ وعن الغوص لاصطياده وعن الأسماك الغريبة الموجودة تحت المياه، وكان وارك ينصت، مسحوراً.

بدأت الشمس تهبط على الميناء، وآخر أشعتها تنزلق على جدران وحوائط المعبد المكرّس لإنزاك. دلمون ستخلد للنوم، بعد قليل.

تنهدت ميلا تنهيدة كبيرة، وابتعدت عن الجدار التي كانت جالسة عليه إلى الأمام، وفي هذه اللحظة رأت الرجال الثلاثة الجائمين في ظلمة الحارة. ابتسمت لهم ووجهت إليهم تحية صغيرة بيدها، فابستموا لها بدورهم ودعوها للاقتراب.

\*\*\*

وهو جالس إلى المنضدة التي يعمل عليها، أطلق شاكروماش صرخة غضب، أو لعلها كانت صرخة ألم، ترتب عليها ظهور فوري

لعبدہ شاباکا مذعوراً، وعندما رأى، قسمت وجه سیده مشوّهة، هرع إليه .

- ماذا ألمّ بك؟ ماذا يؤلمك؟

بدلاً من الرد، أطلق شاكروماش صرخة غضب أخرى .

- أنا ذاهب لإحضار الأسوا قرر شاباکا .

- لا! لست بحاجة إليه! ما أحجاجة هو أن أضع على وجهي،

أن أضرب بالعصا، أن أشق!

حدّق العبد في سیده منهاراً واثقاً أن المسكين يهذي، ولكن ذلك لم يثر استغرابه، فبعد فترة من سفر صديق سیده، ياكين، لاحظ شاباکا تغييراً في شخصية الرجل العجوز، تغييراً أخذ يتزايد خلال الأيام المنصرمة. إذ كان يمضي ساعات في التأمل الصامت، متأرجحاً بين الغضب والحزن، بين اليأس والضجر، وكلها أحاسيس (صار شاباکا واثقاً) تشير إلى عقل أصابه أحد هؤلاء الشياطين الخبيثاء المستعدين دائماً للسيطرة على جسد ضحيتهم .

فجأة، أمسك شاكروماش بالعصا - التي لم يعد قادراً على المشي بدونها منذ سفر ياكين - وبضربة أطاح بكافة الأشياء المرتبة على المنضدة التي يعمل عليها. من مخطوطات وأحجار وأوراق نخيل، وأختام .

- سيدي! قال شاباکا . هدى من روعك!

- أهدأ، أيها الأبله؟ كيف لي أن أهدأ وقد أرسلت صديقي،

أخي، الإنسان الأحب إليّ في العالم، إلى الموت؟ أهدأ، بينما، بسبب غبائي وغروري، سيتيم ابن وترمل زوجة!

- عمّ تتحدث سيدي؟ عمّن؟

- اخرج يا شاباكا! اخرج وأخضِرْ لي برميلاً من عصير البلح،  
الأكثر تخميراً. أسمعني؟ الأكثر تخميراً!

وإذ همَّ العبد بالاعتراض، رفع شاكروماش عصاه في حركة  
منذرة بسوء.

ما إن انفرد العجوز بنفسه حتى انكفأ على ذاته محاولاً أن يتخيل  
اليأس الذي سيصيب ياكين، لا محالة. لكنه فشل. فمهما بذل من  
جهد في التخيل فلن يتعدى قدرة أي قلب على التحمل. وهمس بينه  
وبين نفسه: «هل يستطيع المرء أن يستمر في الحياة وهو مسؤول عن  
موت صديق؟ لعل من بقي على قيد الحياة هو الميت».

\* \* \*

أضحت ميلا على بعد خطوة من الرجال الثلاثة.

شجعها الأقرب إليها على الاقتراب ففعلت. فجأة، سحبها  
الرجل بعنف من ذراعها ورفعها ضاماً إياها إلى صدره. وسرعان ما  
خُنِقَت الصرخة الضعيفة التي أطلقتها، إذ أدخلت يدٌ قطعة قماش  
مُكَوَّرَةً في فمها. أخذت الفتاة تلبط محاولة أن تتخلص من قبضة  
الرجل، لكن هيهات.

أدركت أنهم اختطفوها تذكرت الحادثة التي تعرّض لها واراك  
والتفاصيل المرعبة التي سردها لها، متخيلة أنها ستلاقي المصير  
نفسه. سيطر عليها الخوف بل الهلع، من رأسها حتى قدميها.  
انهمرت الدموع على خديها، ويرد قارص اخترقها. تضرعت بكل  
قوتها أن يعود أبوها، تسورا، من بلاد الموتى لإنقاذها.

هل يسمع الموتى تضرّعات الأحياء؟

فجأة ظهر عشرة جنود وكأنهم خرجوا من باطن الأرض وانقضوا

على المختطفين. استلَّ أحدهم خنجرًا، لكن لم يسعفه الوقت لاستعماله. إذ اخترق سيف نصل من صوّان صدره وخرج من ظهره. أخذ بعض المارة، ممن شاهدوا الحادث، في التصايح من الدهول، بينما هرع آخرون بحثاً عن مخبأ، مسقطين في طريقهم عربة محملة بالفواكه.

في الطرف الآخر من الزقاق لفتت الجلبة انتباه وارك فاندفع بوازع خفيّ إلى مكان الواقعة وهو يصيح:  
- ميلا!

أخرسه المشهد الذي رآه.

بدأت الفتاة سليمة معافاة في حماية رجلين. أحس وارك سريعاً بالاطمئنان عندما لاحظ وجود شريط أخضر وأحمر يزيّن صدرهما، فهو العلامة التي يضعها من يوكل إليهم استتباب الأمن في «آتارك». رأى أيضاً، عند أقدامهم، رجلاً مضرجاً بالدماء. بينما كان شريكه يساقان بعيداً في حراسة مشددة.

صاح وارك:

- ماذا جرى؟

إلا أن التجربة التي مرّ بها أوحت له بالرد.

تقدم أحد الحراس.

- كل شيء على ما يرام، شرح بصوت هادئ، خذني إلى أولياء أمركم.

أنصتت المرأتان في صمت مطبق، لتقرير الحارس، الذي اعترضته تعليقات عصبية من الأطفال الثلاثة.  
اختتم الرجل:

- نراقب هؤلاء الأفراد منذ فترة. وبفضل المعلومات التي تمكّنا من جمعها علمنا أنهم بصدد ارتكاب جريمة وأن أطفالكم هدفهم الأول. لكن اطمئنوا فنحن بصدد القبض على باقي أفراد تلك العصابة ورئيسها.

- تبارك إنكي! قالت إيشا.

مدت ذراعيها تجاه واراك محاولة ضمّه إلا أن الإعياء منعها، وكان هذه الانفعالات الأخيرة كانت قد قضت على ما تبقى لها من قوة.

سأل أوسر بكل براءة سنّه الصغير.

- أمي؟ هل نستطيع غداً أن نشارك في الحفل الكبير؟

هزت آنام رأسها.

- قطعاً لا. ما لم يتم القبض على هؤلاء الناس فلن يغادر أيّ منكم المنزل.

\*\*\*

آتاراك، صباح اليوم التالي.

الحفل الكبير الذي ذكره أوسر، هو الاحتفال السنوي المكرّس لحامي دلمون الإلهين إنكي وإنزاك.

بدأ الاحتفال منذ الصباح الباكر.

كانت الجماهير قد تزاومت عبّر الطرقات، ووسط الميادين وفي الميناء. وكانت المراكب مزدانة بالورود، والمناديل البيضاء والحمراء الصغيرة معلقة أعلى الأشربة.

كانت وجنات عازفي الناي منتفخة وكان الصيادون يغنون

مصاحبين النغم بصفق الأيدي. والكل يرتدون أجمل الملابس، وبعض الأطفال يضحكون ملء أشداقهم وهم يركبون الحمير وآخرون يتزاحمون أمام الأكشاك المغطاة بالحلوى الصغيرة. وكانت حمائم مزدانه أرجلها بشرائط ملونة تطير في السماء. حتى وراء الجدران، حيث تمتد المدافن كانت السعادة تغمر القبور بقدر ما كانت تسود الأحياء السكنية الأكثر جَلْبَة، نظراً لاختناغ السكان بأن الموتى يشاركون الأحياء كافة مُتَع هذا اليوم الصاحب.

اجتمع الناس، وفي أيديهم عُصينات الأشجار وسعف النخيل، ووقف الكهنة يستقبلونهم، في أفنية المعابد. من يُسمح له منهم بارتياذ المكان المقدس، عليه أن يُحضر مصباحاً صغيراً مملوءاً بالملح والزيت يطفو فتيله على سطح المزيج ليقدمه قرباناً للمعبد ويبقى متقدماً طوال الليل لينير ضوءه غدير الدم الأسود المنساب من ثورٍ نُحِر كأضحية على المذبح.

على بعد خطوات، كان راع ينفخ في قرن ماعز، مصاحباً صوت دوران عجلات العربات التي تجرّها البغال، وعليها تماثيل صغيرة من الحجر والخشب لأهم آلهة دلمون.

كانت جرار من الخزف مملوءة بالجعّة والنيذ، وأصناف من الأغذية معروضة في أرجاء المدينة تشهد على كرم الملك سارريل تجاه رعيته المحبوبين، ونُحِرَ بهذه المناسبة العديد من الثيران والخراف، وطُحِن المئات من «بيلتو»<sup>(١)</sup> حبوب الشعير ليصنع منها الطحين المستخدم كعجين.

خلال هذا اليوم وحده يستهلك الدلمونيون أكثر مما يستهلكون على مدار العام.

---

(١) بيلتو واحد يساوي ٣٠ كيلوغراماً.



في الحقيقة يحترم هذا النوع من الاحتفالات الدائرة هنا معتقدات الأهالي احتراماً تاماً باعتبار أن البشرية ما خلقت إلا لخدمة الآلهة وإرضائهم، والحرص على أن تُشَيَّدَ معابدهم، ويُحَافَظَ عليها، وأن تُجَمَّلَ، وأن تقام فيها الشعائر.

ما من شيء كان له أن يُعَكِّرَ صفو لحظات السعادة هذه.

ما من شيء... .

لكن، ما إن بلغت الشمس ذروتها، وبدا القوم في قمة سعادتهم، حتى قرر حورابي وزبانيته أن ينشروا سُمَّهم. ومثل خيالات سوداء انشقت عنها الأرض اندفعوا مطلقين عويلاً أقرب إلى نباح بشع لوحوش جائعة، وانقضوا على الجموع ضاربين الشباب والكبار، النساء والأطفال بخناجرهم. وعصفت رياح الذعر على الميناء، وعبر الحواري، وفي الميادين، وداخل المعبد.

وكانت ترى نساء جريحات يسمع أنينهن. ولم تكن تلك الأصوات صادرة عن الخوف بل صخب آلام مبرحة.

كم دامت هذه اللحظة التي بدا خلالها أن الزمن قد توقف؟

في هذه الأثناء ظهر الحرَّاس الذين اتخذوا مواقعهم منذ الفجر. كانوا حوالي مئة على الأقل. وبسرعة مذهلة حلَّوا بين المهاجمين والجمهور وجرت مواجهة لا مثيل لها في العنف، انتهت بهزيمة المهاجمين وسقوطهم الواحد تلو الآخر. وكان آخرهم حورابي الذي حاول أن يقاوم وحده إلى أن سيطر عليه ثلاثة من الحرس بينما غرس رابع نصل رمحه في أحشائه. حَرَّ الأشيپو على الأرض، ورغم مفارقتة الحياة ظل وجهه المقطب يعبّر عن كرهه ورفضه للعالم.

كانت أظفار الوحش كمخالب صقر.

خلع ملابس ياكين وأمسك به بين مخالبه، وضَمَّهُ بقوة فانقطع نَفْسُهُ. عندئذ، تحولت هيئة الوحش، وأصبحت أذرعُه أجنحة طير يكسوها الريش. حَمَلَ ياكين ونقله إلى دار الظلام، دار اللاعودة، عَبَّرَ طريق اللاعودة، نحو الدار المحروم قاطنوها من النور غذاؤهم التراب وخبزهم الطين.

في هذه الدار، قابل ياكين الملوك والحكام، نعم، رأى الكبار الذين اعتمروا التيجان وتحكموا في البلاد. هؤلاء الذين كانوا يمثلون الإله آنو، سيد السماء، والإله إنليل سيد الرياح، ويقدمون لهم القرابين من اللحوم المشوية، فضلاً عن الخبز والماء القراح من القَرَب. رأى أكاليلهم ملقاة فوق بعضها البعض، على الأرض. في دار التراب التي سيق إليها، رأى الكاهن الأعظم وخدم المعبد، والكهنة المطهرين، والسحرة والمعزّمين، هؤلاء الذين يقدمون زيت المَسْح لملكة العالم السفلي، المومس. كانت ممسكة بلوحة في يدها، تقرأ منها. وحين رفعت رأسها رأت ياكين، وقالت: «من أتى بهذا الإنسان إلى هنا؟ أبعده عني!»

حينذاك، عاد ياكين أدراجه.

بعد ثلاث ساعات مزدوجة، ظهر أسدان في ضوء القمر. استل  
خنجره من حزامه، وبسرعة السهم انقضَّ عليهما، فأصابهما  
وأجبرهما على الفرار.

بعيداً، أبعدُ من البُعد، امتدت طريق من الدماء والنار. يحرس  
مدخلها رجال -عقارب، يوحون بالخوف والرعب، وهم يحرسون  
أيضاً الشمس عند مشرقها ومغربها. عندما رأهم ياكين شحب وجهه  
من الهلع، ولكنه استجمع قواه واقترب منهم. نادى الرجل - العقرب  
زوجته وقال لها: «إنسان يتجه نحونا، جسده مصنوع من لحم  
الآلهة!». ردت عليه زوجته: «ثلاثاء إله وتُلكه بشرا!»

سأل الرجل - العقرب ياكين: «لماذا تكبّدت مشقة هذه السفرة  
البعيدة؟ لماذا قطعت هذه الطريق الطويلة واجتزت البحار الموحشة؟  
أريد أن أعرف سبب مجيئك إليّ».

رد ياكين بصوت مرتعش: «أردت أن أقوم بهذه الرحلة بين  
الأحزان والآلام، في البرد القارس والقيظ الشديد، ما بين الأنين  
والدموع».

«لم تردّ على سؤالي: لماذا؟»

«أبحث عن زيوسودرا، الناجي الوحيد من الطوفان. الإنسان  
الذي وجد الخلود. أريد أن أسأله عن الحياة والموت. دعني أمر».

رد الرجل - العقرب «أنت أحمق!، ما من أحد قطع هذا  
الطريق، ما من إنسان اجتاز الممر أسفل الجبل، فالرحلة تستغرق  
اثنى عشرة ساعة مزدوجة، والظلام دامس، فما من نور من مطلع  
الفجر حتى الغروب».

تأمل الرجل - العقرب الموقف لبرهة ثم قال أخيراً: «لعلك

تتمكن من اجتياز الجبل والعودة سالماً آمناً: ها هو الباب مفتوح أمامك».

اتجه يا كين نحو الجبل، وبينما هو يتقدم إذا بصوت يهمس له أن محبوبته تكاد تفارق الحياة. حالة إيشا ساءت. هي ممددة على فراشها. سمع صوتها يقول له: «يا فجر حياتي، اللعنة أصابتنني. سوف أموت رغماً عني يا صديقي». إزاء سكرة موت زوجته لم يجد يا كين سوى الدموع والعويل.

حينذاك، أسرع الخطى، أسرع، فأسرع، فسلك الطريق نحو الشمس. بعد ساعة مزدوجة أطبق الظلام تماماً. ما من ضوء حوله، لا يرى ما أمامه أو ما خلفه. مشى خمس ساعات مزدوجة، ست، سبع، ثماني ساعات مزدوجة. بعد تسع ساعات مزدوجة أحس بريح الشمال تلفح وجهه.

لم يعد يا كين يعيش الحلم. لكن، هل كان حلماً؟ منذ عدة ساعات دخل إلى الميناء: «جبل الموتى»، دون أن يلتقي بحيٍّ يُرْزَق.

هو الآن يهيم من زقاق إلى زقاق. شوارع تتوالى على استقامتها وبعضها يتعامد على شوارع أخرى. مرّ بجوار حوض هائل، فارغ. فيمَ كان يستخدم؟

أبعد قليلاً إلى الشمال، أحواض أخرى، أصغر، موضوعة كل أربعة على حدة.

كانت المنازل المهجورة مبنية بالطوب الأحمر، من دون نوافذ، محاطة بحوانيت، فارغة بدورها. وهناك صرحان من الخشب

يرتفعان على قاعدة مجزأة إلى كُتْل . لاحظ ياكين أن الكتابة المنقوشة على واجهة أحد الحوائط مطابقة للكتابة التي كان شاكروماش قد عرضها عليه، هي ذاتها . ذات الأشكال .

تابع ياكين سيره . ما من معابد كتلك الموجودة في دلمون . بل هياكل عظمية هنا وهناك ، وأوان خزفية نصف مدفونة ، ومزيد من الهياكل العظمية ، وجثث متحللة أسفل سُلم يهبط من الشارع نحو بئر . جسد آخر ، في منتصف السُّلم جسد امرأة ، كأن الموت أدركها وهي صاعدة الدرجات ، وحوائط منهارة .

فجأة ، ناداه صوت كأنه خارج من طيّات الأرض لمح خيالاً منحنيّاً ، جالساً عند مدخل منزل . كان ثمة رجل متكئ على عصا ، لوّحت الشمس قساماته التي بدت متجعّدة بشكل غير معقول .

- أيها الغريب ! صاح في ياكين بصوت أجشّ ، مهما كان الشيء الذي أتيت تبحث عنه فقد جئت متأخراً . ما من أحد هنا ، وأنا عجزوز جداً ، ومتعب جداً . لم أقوَ على المضيّ مع الآخرين .

- أين السكان ؟ ماذا جرى ؟

تنهد الرجل تنهيدة بدت كرتاء طويل .

- السندهو ! السندهو وآلاف أخرى من صنوف العذاب .

- لا أفهم .

- السندهو هو النهر الذي يجري هنا . هو قوي بقدر ما هو

متقلب .

غمرنا طويلاً بخيراته . إلا أنه تحوّل ، بين ليلة وضحاها ، أصبح عدوّنا ، وفاض مغرقاً أراضينا ومنازلنا .

ارتفعت المياه بشكل مخيف . مياه حمراء كالدم . سرعان ما

دمّرت زراعاتنا. مات الناس من الجوع، والمياه ما زالت ترتفع،  
على مدى أيام وأيام، إلى أن زادت عن ضعف طول الرجل.  
زادت الأمطار من آثار الفيضان، أنهار من الأمطار. ولم تتوقف  
السماء عن إفراغ ما بها من مياه فوق منازلنا. الجداول والترع تفرغ ما  
بها في كل مكان<sup>(١)</sup>.

تهدّج صوت الرجل. وسكت.

- وذات صباح جاء الهمج من الشمال. كانوا مدججين  
بالسلاح، وعنيفين. بسبب حالة الإعياء التي ألمت بنا لم نستطع أن  
نقاوم، فحطّموا ما تبقى لنا من قوى ضعيفة. وفرّ من تبقى منا شرقاً.  
- لم يكن السبب إذن وباء، استدرك ياكين.

لم يبد على محدثه أنه سمعه، وأكمل:

- كئنا، قبل الاضطرابات الكبرى، نستيقظ كل صباح على  
صوت ضوضاء العربات التي تجتاح الشوارع تجرّها الثيران، وعلى  
نداء أصحاب الحوانيت ينادون على بضاعتهم من أساور مصنوعة من  
القواقع أو عقود من الأحجار الكريمة الدقيقة. يوجد هنا، منذ فترة  
قصيرة، تجار أثرياء، قادمون من بلاد بعيدة، من دلمون وغيرها...  
توقف الرجل.

- أتعرف دلمون؟

أوما ياكين إيجاباً.

---

(١) وفقاً للفرضية الأكثر انتشاراً، يعتبر اختلال الطقس أحد أسباب اندثار  
الحضارة المعروفة بمسمى «الهاربان». فرضية أخرى، لم تثبت قط، تشير  
إلى ظهور جدار هائل من التراب مصدره دفع قوي من تحت الأرض، جدار  
ارتفع منذ أكثر من أربعة آلاف سنة عبر نهر السند، قبل أن ينهار محدثاً  
موجة عاتية من الماء والطين اجتاحت مهنجو- دارو.

- أنا جئت من هناك .

- فعلاً! يقال إنها أرض مباركة من الآلهة .

ثم استأنف حديثه :

- نعم، هنا كانت تدبُّ الحياة، ما كان عليك سوى سماع التُّجَّار يفاصلون في أسعار اللازورد أو الذهب أو الفضة، ويغادرون . بعد بضع ليال يعودون حاملين في أمتعتهم كل ما قاموا باقتنائه من بقول، أو أقمشة الحرير والقطن، أو لآلئ العقيق الأحمر أو تلك الأساور المبهرة المصنوعة من القواقع والتي أضفت على حرفينا هذه الشهرة الذائعة .

هذا الزمن ولَّى، فمن الأربعين ألف نسمة، الذين كانوا مصدر رخاء هذا الوادي لم يتبق سوى .

أحس ياكين بالضياح .

طرح السؤال الذين كاد يحرق شفاهه منذ فترة، لكن، ما إن طرحه حتى أدرك سخفه .

- هل سمعت عن نبتة غريبة تقبع في قاع البحر؟

قَطَّب الرجل حاجبيه .

- نبتة؟ ما من شيء ينمو هنا منذ زمن . أما قاع البحر فلم أذهب إليه لأرى . عن أي نبتة تتحدث؟

- نبتة حاملة للخلود .

قهقه الرجل .

- أيها الغريب، واضح أنك مشيت طويلاً وأن الشمس أذابت مُخك . الخلود؟ لا أكثر؟

رغم السخرية البادية، استطرد ياكين مُصرّاً:

- وهل سمعت عن شخص يُسمّى «مراكبي الآلهة»؟

- لا مراكبي، ولا رجل، ولا امرأة، ولا أطفال. قلت لك إن  
مدننا صارت خالية من أي شكل للحياة.  
أسدل ستار أسود على الطيب.  
شاكروماش أخطأ إذن؟  
على أي حال، يا له من مجنون لقيامه بهذه الرحلة، اعتماداً  
على أقوال صديقه فقط! عضّ بأسنانه على شفّتيه حتى تخضبت  
بالدماء.

بدا له وجه إيشا خلف الستار.  
عندئذ، جثا ياكين على ركبة واحدة، وانخرط في البكاء، تحت  
نظر الرجل المشدوه.



## المنامة، البحرين

ثلاثة آلاف عام بعد ذلك، عام ١٩٥٤

فور وصول جيفري بيبي وبيتر جلوب ، خلال شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٥٣، اتصلا بمقاول عراقي وافق على تزويدهم بعمال، ومراقب وحارس، وأخيراً بخزّان حلزوني كبير من الحديد المجلفن لمياه الشرب. وأمضيا يوماً كاملاً لاقتناء معاول ومجارف وأمتار ومصدات... إلخ. وفي ٩ آب/ أغسطس عام ١٩٥٤ شرع الفريق في العمل.

القبة الأولى التي اهتموا بها تقع شمال غرب الجزيرة وكانت تفي بمتطلبات محددة: إلى كونها الأبعد عن القرية، كان الوصول إليها يسير من الطريق وعلى بعد كاف من المنطقة التي فُتّشها، قبل سنوات، كلّ من دوران پريدو وفيما بعد ماكاي، وتركّزت المهمة الأولى على التحقق من أن كل حقول القباب تحتوي على مدافن وأشياء متسقة الشكل.

هذا اليوم، رغم الشمس الساطعة، كانت الريح تهبّ بعنف شديد، بل كان الهواء لاسعاً، وهو أمر غير مألوف في البحرين حيث يتميز الشتاء بنعومة رائعة. كانت سحب ضخمة تجري في زرقة السماء الباهتة. وانقشع الضباب الذي عادة ما يطمس الأفق، وظهر

شاطئ المملكة العربية السعودية، إلى الغرب، عبر شريط البحر الضيق، بوضوح شديد، وامتد أمام الفريق شريط من التلال الصغيرة والأجمات العطشى على مدى الأفق.

بدأوا حفرياتهم في موقع باربار منتصف نيسان / أبريل. كانت الشمس تسطع ببريق شرس، وإن كانت الحرارة محتملة، لكن على عمق أربعة أمتار، في الخندق الذي حفروه، كاد الفريق أن يختنق وسط السكون التام، مما اضطرهم للانتظار حتى غروب الشمس لاستئناف العمل.

بعد بضع ساعات، انكشف رصف مبلط تحت أقدامهم. كان رمل التربة التي يحفرون فيها مختلطاً بالحصى، بل اتضح أنه تم ضغطه أسفل طبقة رقيقة من الأسمنت المجبّس، كل ستين سنتيمتراً تقريباً وهذا ما أكد أن هذه الإنشاءات وضعت لغرض محدد؛ وأنها من صنع الإنسان.

استمروا في حفرياتهم. وبعد عشرة أمتار تقريباً، صادفهم حائط مستعرض مكوّن من ثلاثة صفوف من كتل الجير ذات الحب الدقيق منحوتة لتنضبط تماماً دونما حاجة إلى مونة لتربطها.

امتد الرصف إلى ما بعد ذلك. بعد سبعة أمتار وجدوا حائطاً آخر مماثلاً للأول؛ إلا أنه يشكل درجة وعلى الجانب الآخر من الحائط رصف مماثل وإن كان على مستوى أعلى مساو لمستوى الدرجة الإضافية.

اقتربوا من مركز القبة، وأضحت الحوائط الترابية على إرتفاع ثلاثة أمتار ونصف. بعد ستة أمتار إضافية، كشفوا عن كتل إضافية، منحوتة بذات الدقة، لكنها، مرصوفة على شكل دائرة يبلغ قطرها متراً وثمانين سنتيمتراً.

اضطر چيفري ورفاقه على مضض إلى انتظار وصول تعزيزات من الدانمارك قبل استئناف حفرياتهم. وصلت التعزيزات بداية آذار/ مارس، وفي نيسان / أبريل ظهر أخيراً الفناء الداخلي لمعبد. لم يكن أي من أعضاء الفريق قد شاهد معبداً على هذا الطراز من قبل.

في المركز، اتضح أن الهيكل الدائري عبارة عن منصة بيضوية يقع عند طرفيها نصف دائرتين غريبتين؛ لعلهما مخصصتان لتوضع عليهما قواعد تماثيلين متطابقين. بجوار إحدهما وجدت بلاطة مغروزة في الأرض وعلى بعد ثلاثين سنتيمتراً منها، بلاطة أخرى مسطحة مع آثار للجنبس تحدد موقعها بدقة على المساحة المرصوفة. كلتا البلاطتين كانتا مفرغتين من أعلى، وحينما تم رفع الثانية اتضح جلياً أنهما رجلا مقعد أو منضدة صغيرة.

هناك ارتفع مذبح هو عبارة عن مكعب هائل من الجير. أمام تلك المجموعة، في منتصف الفناء، يوجد بئر مربعة مكونة من بلاطات من الحجر. هنا، حيث ظهرت فوضى تشير إلى مرور ناهيين، وجدوا مجموعة من القرايين. وبين كمية من كسر الزجاج وجدوا لآلي من اللازورد، ومزهريات من المرمر، وتمثالاً صغيراً لعصفور من النحاس، وكدليل دامغ عثروا على تمثال صغير لرجل عار في وضع التوسل ذاته الذي شاهدوه على الأختام الحلزونية التي سبق لهم اكتشافها.

كان قد تم اكتشاف العديد من التماثيل النذرية المماثلة في الحفريات التي أجريت في بلاد ما بين النهرين وكان معظمها مصنوعاً من الحجر أو الفخار، إلا أنها اكتشفت جميعاً، من دون استثناء، داخل المعابد.

إتضح كل شيء.

بالنظر إلى أعمال الحفر، التي تتسع شيئاً فشيئاً، أمكنهم أن «يروا» (يتخيلوا) الطقوس التي كانت تقام في الماضي في هذا الفناء. «رأوا» العباد، عراة الصدور، ينتظرون في خشوع أن يقدمهم الكاهن للإله الجالس على عرشه، ليقدموا، واحداً تلو الآخر، قرابينهم وليريقوا ما أحضروه من نبيذ أو جعة أو لبن (وربما من الدم) في تجاويف المذبح.

على غرار چيفري، كان هؤلاء الرجال من الماضي السحيق، هؤلاء الدلمونيون، محاطين بالذباب، ومثله كانوا يتحملون لفحة الشمس خلال تلاوتهم لأدعيتهم من أجل الحصول على ابن ووريث، أو التوسل لشفاء أحد الأبناء، أو ليُنعم عليهم بمحصول جيد أو بصيد وافر.

تلا اكتشاف بقايا هذا المعبد كشفٌ جديد لآثار قصر.

لقد تطلب الأمر سنوات من جلوب وبيبي لتجميع أول قطع اللغز الهائل والتوصل إلى نتيجة لم يتخيلها أحد قبلهم، ألا وهي: أن مملكة دلمون، كانت، قبل أربعة آلاف عام قبل الميلاد، مركز الطرق التجارية التي ربطت بلاد ما بين النهرين ببلاد الهندوس. دلمون، «البلاد التي تشرق منها الشمس» وفقاً للألواح الآشورية. دلمون جنة عدن، حيث أقام، وفقاً للتراث السومري، الناجي الوحيد من الطوفان.

## آتاراك

- شاكروماش يحتضر! صاح شاباكا .  
 أمسك بكمّ سترة ياكين ليجبره على أن يتبعه .  
 لم يصدر عن الطبيب الجالس إلى جوار فراش زوجته إيشا أي  
 رد فعل .

- أيها الآسوا تعال، أتوسل إليك! كرر العبد .  
 كان ياكين واهن القوى، متجمداً ككتلة حجر، ما من كلمة تعبر  
 عن يأسه، عن تخليه المطلق عن كل شيء، عما يعتريه من ضجر  
 عارم يمنعه من التفاعل مع أي شيء، كل شيء .  
 كان قد عاد إلى دلمون منذ يومين .

عاد منكسراً، مهدوداً . بل زاد انكساره عندما دخل المنزل  
 ووجد أن المرض قوّض إيشا أكثر من ذي قبل، فصارت غير قادرة  
 على أن تنفّوه بكلمة، أو أن تفتّر شفتها عن ابتسامة .

هل تعرّفت على زوجها؟

يتعين القول إنه تغير لدرجة يستحيل معها التعرف عليه .  
 شاب شعره .

وغطت لحية كثيفة خديه وذقنه .

وغارت عيناه في مداريهما .

لقد ارتجفت جفون إيشا عندما قَبِلَ يدها، وعندما أغرقها

بدموعه .

لكن منذ تلك اللحظة، ما من حركة أو رد فعل يشير إلى كونها

ما زالت في عالم الأحياء .

لم يبق لها سوى يوم، بل بضع ساعات، قبل أن تغادر نهائياً

نحو المياه المُرَّة .

إيشا ستموت، وتصبح دلمون كنفها .

رجته أرملة تسورا أن يبقيا إلى جوارهم .

لكنه رفض بإصرار، فعادت إلى دارها، مصطحبة أطفالها

والأسى يعتصرها .

للحظة، نَفَسُ ياكين راودته على أن يصاحب زوجته في الموت

متى حَلَّت الساعة، إلا أنه تذكر وارك، مدركاً أن جعله يتيم الأم

والأب معاً ضربٌ من القسوة المُفرطة .

يا له من ساذج لتصديقه أقوال شاكروماش!

نبته تمنح الخلود؟

في نهاية الأمر، كانت الفائزة الوحيدة التي عادت عليه هي أنه

عاش تجربة لم يخضها إنسان من قبل، ولن يخوضها إنسان من بعد .

من دون هذه المغامرة ما كان ليدرك قدرة الطبيعة المبهرة

والخيالية على أن تجمع في زفرات سريعة كل ما بداخلها من حرارة

وثلج، من حياة وموت، من أمل ويأس .

والليالي التي عاشها امتلأت بصراعات، بصخب وسكون،  
بغضب وكراهية، بدموع تَوَسَّلْ لدرجة جعلته مقتنعاً أنها دامت ألف  
عام.

- أيها الآسو، ردّ عليّ، أستحلفك، تعال!

أخيراً، رفع ياكين رأسه.

- اخرج من هنا! لن أذهب إلى أي مكان! ولا أعرف أي

شاكروماش!

خَرَّ شاباكا جائئاً على ركبتيه محاولاً تقبيل يد الطبيب الذي  
انتفض واقفاً ملوحاً بقبضة يد مُهَدَّوَةٌ.

- توقف!

أقبل وارك منجذباً بالصياح وحال بين الرجلين.

- لا يا أبي، لا تضربه، لا يليق.

- فليخرج إذن!

- شاكروماش يحتضر، مولاي ياكين. هو صديقك، بل هو

أخوك، والدك، هو...

- سبق أن قلت لك إنني لا أعرف أحداً باسم شاكروماش!

أشار إلى باب الدار بيده وأمر:

- اخرج!

مذهولاً، مغلوباً على أمره، استدار العبد على عاقبيه وعلى غرار

عجوز منحني توجه نحو الباب.

لم يفصل بينه وبين الباب إلا خطوة واحدة حين ارتفع صوت

إيشا، صوت يكاد لا يُسْمَع، صوت ضعيف كخبر ساقية في نهاية

مجراها.

- يا حبيبي . . . اذهب . . . اذهب أرجوك . . . لأجلي .
- صُعبق ياكين وزوجته كمن يراها لأول مرّة .
- لكن . . .
- اذهب . . . اذهب، أرجوك .
- تردد الطيب وقد غدا فريسة لصراع داخلي .
- همست له إيشا :
- لا أريد أن أفارقك وغضبك ذكري الأخيرة . . .
- لا أستطيع أن أتركك !
- اطمئن، أنا . . . أنا . . . لن أغادر قبل عودتك . اذهب !



- ظهرت على وجه شاكروماش ابتسامة باهتة حين رأى وجه صديقه قريباً منه وهمس :
- تأخرت كثيراً . خِلْتُكَ لن تعود أبداً . أين كنت؟
  - لم يرد ياكين، بل فتح محفظته التي تحتوي المساحيق والأدوات .
  - أين مصدر ألمك؟
  - أنا لا أتألم، أيها الأسو . أموت وأنا متعافى . أنا . . . .
  - انتفض العجوز واعتدل ممسكاً بذراع ياكين ويكاد يصرخ :
  - سامحني ! سامحني ! لقد أخطأت .
  - ضمه الطيب إلى صدره والعبرات تخنقه :
  - ما من شيء أسامحك عليه . المرء لا يسامح صديقه، هل يسامح المرء نفسه؟



أجبر ياكين العجوز على أن يرقد مرة أخرى .

- انتظر . لديّ شيء مهم يجب أن أخبرك عنه . . . . .

- أصمت . . . هذئ من روعك . سوف أطلب من شاباكا أن يُعدّ

لك نقيعاً يساعدك على النوم . أنا . . .

- لا ! يجب أن تسمعي . لقد فهمت . نبتة الخلود التي تنمو في

قاع البحر . . .

- لا تتكلّم ، أرجوك .

استخرج الطيب أعشاباً من محفظته وسلّمها للعبد .

- دعها تغلي في الماء .

- ياكين ، استطرد شاكروماش . . . أعرف مكان النبتة .

أعرف . . . هي هنا ، في مياه الميناء . في دلمون . هي هنا !

اكتفى الطيب بهز رأسه ، ومسح على جبهة العجوز كما يفعل

أبّ لتهدئة طفله .

استمر العجوز في حديثه متهدج الأنفاس ، مسترجعاً آخر ما تبقى

له من قوى .

- أنصت ، إنه جزء من الرواية كنت أفتقده .

أنصت يا ياكين .

وأخذ يسرد بصوت مرتعش :

- «توجد نبتة مثل الشوكة ، تنمو في قاع المياه ، شوكتها ستدمي

يديك كما يدميها شوك الوردة . إن اقتلعت يداك هذه النبتة تجد الحياة

الجديدة . ما إن سمع جلدجامش هذه الكلمات ، حتى ربط أحجاراً

ثقيلة في قدميه وغطس في قاع البحر حيث رأى النبتة . هل فهمت ؟

ثم كرر :

- ربط أحجاراً ثقيلة في قدميه .  
حاول ياكين أن يضع سبابته على شفتي شاكروماش لإسكاته ،  
إلا أن حركته بقيت معلقة .  
لقد تلبّس قناع الموت وجه صديقه .

## المنامة، البحرين

ثلاثة آلاف عام بعد ذلك، عام ١٩٩٠

قلعة البحرين .

كان پيار لومبار جالساً على حائط أخرجته فريقه في اليوم السابق، وهو يسرح نظره على أنقاض عاصمة دلمون القديمة التي تم الكشف عنها وعلى الحصن البرتغالي القديم، ومنه إلى البحر القريب .

أي أفكار تدور بخلد ابن مقاطعة سافوا الفرنسية ذي الخمسة وثلاثين ربيعاً؟

هل يتساءل عن أغاز هذه الحضارة العجيبة؟  
عن الرجال والنساء الذين عاشوا في هذا الموقع منذ آلاف السنين؟

عن المفاجآت التي تخبئها له الحفريات المقبلة؟  
أم لعله يسترجع الطريق الطويل الذي اجتازه منذ أن كان تلميذاً في ليسيه فوجيلاس في شامبيري؟  
كم هو مدهش أن يتقرر مصير امرئ أحياناً من خلال لقاءاته، وقراءاته، وحتى كلمة .

في حالة بيار كان المدرسون هم الذين أحيوا فيه ولعه بالعصور القديمة. حدث ذلك ذات صباح من عام ١٩٦٨ وكان لا يزال في الصف الثاني المتوسط حيث كان هو ورفاقه يضحجون في ملعب الاستراحة. يومها أقبل مدرسان إليهم عارضين اقتراحاً غريباً: «لقد قررنا إنشاء ناد لعلم الآثار هل ترغبون في الانضمام إليه؟». وافق التلاميذ بحماسة، وفي الأسابيع التالية بدأ هؤلاء الآثريون بالقوة أولى حفرياتهم في فيلا غالية - رومانية، في كونين، قرب شامبيري. ولم يمر إنشاء هذا النادي مرور الكرام لأن خمسة من أعضائه، من بينهم بيار، سوف يصبحون علماء آثار محترمين.

سرعان ما تبوأ دراسة الآثار الشرقية مرتبة متقدمة ضمن إهتماماته وبدأ تلك الدراسة في جامعة ليون. وعندما حانت لحظة تحديد موضوع شهادة الماجستير، في عام ١٩٧٦، لم تجذبه أيّ من مقترحات أستاذه. ليس تعنتاً ولكن لأنه لاحظ أن الباب فُتح لدراسات أثرية في منطقة الإمارات في الخليج العربي فضلاً عن البحرين فاعتبرها دعوة من القدر موجهة له وأيقن فوراً أن هناك عالماً مفعماً بالوعود. وهكذا، اختار هذه الدراسة موضوع رسالته لنيل الماجستير.

هنا تدخل القدر مرة أخرى. فبعد أن أنثي أستاذه على رجاحة اختياره اعترف له، آسفاً أنه لن يتمكن من مساعدته، لأن دراسة آثار منطقة الخليج العربي مجهولة تماماً بالنسبة له.

إلا أنه نصحه بقاء أحد زملائه، الأستاذ جان ديهي، وهو عالم آثار مرموق يُدرس في جامعة السوربون. ويستطيع أن يقدم له الدعم المناسب، ولاسيما أنه - الصدفة أيضاً - كان بصدد الإعداد لبعثة أثرية إلى أبو ظبي.

لم يكن على الطالب أن ينتقل إلى باريس فبعد أسبوعين جاء الأستاذ ديهي إلى ليون زائراً. وحُدّد موعد للقاء معه حيث أطلعه بيار على مشروعه للماجستير.

لم يكن رد فعل الأستاذ مجرد إقراره بأهمية الدراسة، بل دعاه للانضمام إلى البعثة المتجهة إلى أبو ظبي، وكانت أول بعثة تقصد هذه المنطقة، إلا أن تلك الإمارة لم تكن مجهولة تماماً للشباب الذي وصل إليها في عام ١٩٧٧، فمنذ أن بَلَغَ السابعة عشرة من عمره، وبفضل مجموعة منح، كان قد أمضى معظم إجازاته الصيفية، حاملاً جرابه على ظهره، متجولاً في لبنان وسوريا وأفغانستان بل والخليج. وكلها أسفار أذكت شغفه بدراسة الآثار.

لكن عند هذه النقطة المفضّلية من سردنا يتحتم علينا التوقف لحظة، للاطلاع على مفارقة حقيقية ما كان لروائي أن يتخيلها. تقع الأحداث حوالي عام ١٩٧٢.

يقرر بيار، الذي بلغ لتوه السابعة عشرة، أن يحضر محاضرة تنظمها مؤسسة أنشأها كامي كيسجن عام ١٩٤٥ تدعى «معرفة العالم». حيث طرأت على كامي فكرة، أن ينظم في «صالة بلبيل» في باريس، ثم في المحافظات، مجموعة من المحاضرات يقوم خلالها كبار المستكشفين بالتعليق على الأفلام التي سجّلوها خلال رحلاتهم البعيدة.

هذه الليلة، في شامبيري، كان المحاضر يدعى آلان سانت إيلير، وهو مستكشف بالمعنى الأصيل للكلمة، شغوف، فضولي، مستمع جيد لمحدثيه ويحترم ثقافتهم. وكقصاص بارع كان يعرف جيداً كيف يسيطر على جمهوره وهو يسرد تفاصيل أسفاره وما قابله خلالها من طرائف. عُرض على هامش المحاضرة فيلم عنوانه:

«ممالك شبه الجزيرة العربية الرائعة»، وخلال العرض أعلن المحاضر «الآن سوف أستدعي حضارة لم يسمع عنها أحد: حضارة دلمون!» ونطق الاسم بذات اللكنة التي ينطق بها أهل الخليج، فسمع لومبار الجالس في آخر الصالة دي ألمون. بينما كانت تظهر على الشاشة، ضمن صور أخرى، لقطات لقلعة البحرين.

غادر لومبار القاعة متحيراً. دي ألمون؟ ما هي، يا ترى، تلك الحضارة الغربية؟

ما إن عاد إلى داره حتى هرع إلى قواميسه محاولاً معرفة المزيد. كان يبحث تحت حرف الهمزة وبطبيعة الحال لم يجد ضالته.

تطلب الأمر سنوات طويلاً. فبينما كان يعمل في إحدى المكتبات الباريسية، لتأمين قوت يومه، سمع أن دار نشر كالماني ليثي تعزم إصدار كتاب عنوانه: «دلمون، إكتشاف أقدم حضارة»، تأليف جيفري بيبي، فسارع إلى طلب الكتاب من دون أن يربط ذلك مع دي ألمون التي ذكرها سانت إيلير. وما إن وصله الكتاب حتى انكب على قراءته، وهنا فقط اكتشف أن ألمون ما هي إلا دلمون!

في عام ١٩٧٩ تعرّف لأول مرة على أرض دلمون. وعند وصوله إليها، مع مجموعة من رفاقه الفرنسيين، شاهد تلك القباب المشهورة وبدأ التنقيب. وبعد إقامة دامت عدة أشهر رجع إلى فرنسا ليعاود في كانون الأول / ديسمبر عام ١٩٨٠ السفر إلى البحرين، مع فريق من الأثريين من مدينة «ليون»، لتفقد تلال جنوسان الشهيرة، ذات التلال التي مر بها الرائد دوران منذ قرن من الزمان.

في كانون الثاني / يناير عام ١٩٨٨، وكان مرة أخرى في البحرين، تعرف على مونيك كيرفران، الإخصائية ذات الشهرة في

الآثار ما قبل الإسلامية، والتي شكَّلت منذ عشر سنوات فريقها البحثي للعمل في موقع قلعة البحرين.

عرضت عليه كيرفران أن يعمل معها لعلها أنه تفقّد الموقع خلال دراسته لنيل درجة الدكتوراه التي ناقشها عام ١٩٨٥، والتي ركزت على المقارنة بين ثقافات العصر الحديدي (القرن الأول قبل الميلاد) السائدة في الإمارات، وعمان والبحرين.

ولدهشته الشديدة لم تكتف كيرفران بالموافقة بل أسرت له بأنها تنوي أن تترك حفرياتها في قلعة البحرين لكي تذهب للعمل في باكستان، وأخبرته أنها مطالبة، بتقديم اسم خليفتها إلى وزارة الخارجية البحرينية.

وسألته: «هل توافق على أن تقوم مقامي؟». سعد بيار بالمفاجأة ولم يتردد وقبل العرض فوراً. وبذلك وجد نفسه، مع بداية عام ١٩٨٩، على رأس البعثة الفرنسية، وهي وظيفة ما زال يشغلها حتى اليوم.

سرعان ما كشف موقع القلعة عن ثراء بالغ فيما يتعلق بالحقبة الممتدة بين ١٠٠٠ و ٣٠٠ قبل الميلاد، وهي الحقبة ذاتها موضوع رسالة الدكتوراه التي أعدها لومبار.

وكلما تقدمت الحفريات التي يجريها مع فريقه الوفي كان يتمكن من الرجوع إلى مراحل أقدم توصف بأنها دلمون الوسطى مقارنة بدلمون القديمة.

اليوم، لو سألتهم بيار لومبار عن الاكتشافات التي وجدها في البحرين لكان رده: «ما زلنا في البداية».

ماذا كانت ديانة الدلمونيين؟ ما هي طقوسهم؟ سيكون العثور على آثار لسكن الأهالي أمراً جوهرياً في المستقبل. في موقع سار،

بين مواقع أخرى، الذي هجره سكانه إبان انحدار دلمون نحو ١٧٠٠ - ١٧٥٠ ق.م والتي لم تُسكن بعد ذلك أبداً، إن رفعت الرمال عن هذا المكان فليس من غير المعقول أن نتخيل إمكان الكشف عن بقايا مدينة.

يبقى أيضاً فك لغز الكتابة، أو بتعبير أدق، لغز غياب الكتابة! كيف لنا أن نُفسر أن الدلمونيين، الذين كانوا دون شك قوماً مستنيرين، ومقاولين كباراً أمسكوا بحسابات، وأبرموا عقوداً، ويعيشون في مركز تجاري يمكننا - مع مراعاة النسب - مقارنته مع السيتي قلب لندن، كيف لنا أن نفسر أنهم لم يتركوا أية كتابة وأية علامة؟

هذا لغز كبير.

ليس من المستحيل أن يمنحنا ييار وربما من يخلفه، في يوم ما، مَنْ يدري؟، ربما غداً، حلاً له.



## آتارك

تحت نظرات آنام وأوسر القلقة، أدخل ياكين ملعقة خشبية صغيرة بين شفتي ميلا الصغيرة وطلب منها:

- افتحي فمك. لن شعري بوجع.

أذعنت الفتاة رغم توجسها.

بعد لحظات، شخّص الطبيب:

- جدار الحنجرة ملتهب، لكنه التهاب بسيط.

أنصح بأن تسقوها كل صباح ومساءً نقيع الريحان، وسيعود كل

شيء إلى مجراه.

- ليتبارك إنكي، قالت المرأة، أشكرك.

وقال أوسر مبتسماً:

- أتدري ماذا كان يقول أبي عن الأطباء؟ «الطبيب شخص

يلهيك بينما الطبيعة تشفيك».

- لم يكن مخطئاً تماماً، فالطبيعة أحياناً هي التي تلهي

المريض، وفي هذه الحالة قد يصبح للطبيب فائدة.

أعاد ياكين الملعقة الطيبة إلى محفظته واستعد للرحيل.

سألت آنام في خجل :

- كيف حال إيشا؟

- ما زالت تتنفس. إتضح أن علمي كله عاجز. لن أعرف أبداً طبيعة هذا المرض الغريب الذي يخطفها مني<sup>(١)</sup>.

تجاسر أوسر بمداخلة أخرى.

- أبي كان يقول أيضاً: «ما من شيء مجمّد في الحياة». إيشا يمكن أن تشفى.

أحسّ ياكين بأنه منهك بحيث امتنع عن التعليق.

- أنا ذاهبٌ، قال الفتى متجهاً نحو باب الدار. إنه أول يوم لي في العمل، لا يجب أن أصل متأخراً.

- كن حذراً! أرجوك، ناشدته آنام ضامة يديها.

- إلى أين ذاهب؟ سأل الطيب.

- للعمل! أجاب الفتى. تعلم جيداً أن كل صيادي اللؤلؤ يموتون مديونين، ووالدي، مع الأسف، لم يشدّ عن القاعدة. لحسن الحظ، وافق قبطان المركب على توظيفي.

- أهنتك على شجاعتك يا أوسر. كان تسورا ليفخر بك.

وضع يده على كتف الفتى :

---

(١) لم يكن ياكين يعلم طبيعة المرض، إلا أن الباحثين لاحظوا أن عيون المياه التي كانت تنساب في دلمون في هذا التاريخ كانت مشبعةً «بالفلور»، وهو الأمر الذي قد يسبب «الفليوروز»، و شكلها الأكثر حدةً «الفليوروز العظمية المُقعدة». في حالاتها الأكثر خطورة، تؤدي إلى تيبس في المفاصل، أو الشلل، أو فقدان القدرة على التحكم في العضلات. فضلاً عن مشاكل عصبية راجعة لانضغاط الحبل الشوكي. هذا هو المرض الذي كان قد أصاب «إيشا».

- سارافلك. فعليّ أن أعود مريضاً يقطنُ على بعد خطوات من وجهتك.

غادرا المنزل، واتجها نحو الميناء.

كانت السماء فوق رأسيهما شاحبة، كامدة تعتمد على لون البحر الفيروزي الخفيف، وكانت ريح لطيفة تداعب الأشرعة المصنوعة من جلد الماعز.

وعلى طول الميناء كانت حركة الصيادين والتُّجَّار ذهاباً وإياباً كالمعتاد.

كان هذا المشهد يتعارض مع الرعب الذي كان قد سيطر على ياكين لدى رؤيته الهياكل العظمية والمدن المهجورة، فأحس بانفعالات شديدة رغماً عنه.

- ها هو مركبي! قال أوسر بفخر.

ثم أخذ بيد الطبيب ومضى معه نحو المركب.

- إلى أين تأخذني؟ إعترض الطبيب.

- إلى متن المركب. أريد أن أقدمك للقبطان.

- لكنّ هناك مريض ينتظرنني! فضلاً عن أنني أعاني من دوار

البحر.

- لن نبحرا! ولن تتأخر. أرجوك، تعال.

أذعن الآسو.

تسلق السياج الصغير يتقدمه أوسر ليصل إلى سطح المركب الذي لا يزيد عن ٦ أمتا، وعندما شاهده البحّارة تدافعوا لعناقه، فمعظمهم، إن لم يكن كلهم، لجأوا إلى رعايته في يوم أو آخر.

- مرحباً أيها الآسو، هتف القبطان، عاري الصدر، ونصفه

الأسفل مغطى بوزرة. هل قررت أن تنضم إلينا؟

- لا هذه فكرة بعيدة عني! هو... .

فجأة، وقع نظر ياكين على مجموعة من الأحجار والحبال  
مكومة عند مؤخرة المركب. اجتاحه تيار جارف من الأحاسيس،  
غمره، أغرق روحه وقلبه، وكل كيانه وخال أن الشمس هوت فوق  
سطح المركب مشعلة النار فيه، وفي الطاقم، بل في أتارك كلها.

لاحظ القبطان اضطرابه فسأله، قَلْبًا:

- هل أنت بخير أيها الآسو؟

عجز ياكين عن نطق حرف.

ترددت في رأسه آخر كلمات شاكروماش، مدوية.

«عندما سمع جلعامش هذه الكلمات، ربط أحجاراً ثقيلة في

قدميه وغاص إلى قاع البحر حيث رأى النبتة».

هل فهمت؟

ربط أحجاراً ثقيلة في قدميه.

- ماذا يجري؟ سأل أوسر قلقاً بدوره.

نتيجة للدوار الذي أصابه، اضطر الطبيب لأن يرتكن إلى سياج

المركب كي لا يقع.

هل هذا ممكن؟

مرة أخرى، دوى صوت شاكروماش في طبلة أذنه.

«أعرف أين توجد النبتة. أعرف... هي هنا، في مياه الميناء.

في دلمون. هي هنا!»

تمكن أخيراً من السؤال متلعثماً، بينما كان متأكدًا من الإجابة

التي سوف يحصل عليها:

- أنتم... أنتم تربطون حجراً في قدمكم... للغوص تحت

البحر؟

- طبعاً، رد أوسر مبتسماً، هل نسيت؟

كان التعبير الذي ارتسم على وجه ياكين مؤثراً لدرجة أنه أسكت الجميع. حدّقا في الطيب كمن يحدّق في رجل عائد من المياه المُرّة.

ألقي بنظرة دائرية حوله، وتوقف عند القبطان.

- هل يستطيع أحدكم أن يفحص هنا، الآن؟

- الغوص هنا؟ لكن، ما من لؤلؤ في هذا المكان.

- لا أبحث عن لؤلؤ. بل أبحث عن نبتة.

علت الدهشة وجه القبطان.

- هل أنت في كامل قواك العقلية أيها الأسو؟ نبتة؟ أي نبتة؟

يوجد آلاف النباتات في قاع البحر.

- هي نبتة تلدغ أصابع من يحاول خلعها.

- لست جاداً!

- أرجوك، أرسل غوّاصاً. إني على استعداد لأن أدفع لك عشر

حصص من الشعير أو القمح. كل ما تريد.

قطّب القبطان جبينه، في حيرة، وهو متردد.

وضع صوت أوسر حدّاً لارتبائه.

- أنا! أنا، مستعد للغوص!

دون انتظار موافقة، استفسر من ياكين:

- هل تستطيع أن تخبرني المزيد عن هذه النبتة؟ ما لونها؟ ما

حجمها؟

هزّ الطيب رأسه، آسفاً.

- لا أعرف شيئاً، سوى أنها تلدغ كأشواك الورود.

- شمس دلمون أحرقت عقلك! صاح القبطان. لا معنى لهذه القصة.

- أنا ذاهب! أعلن أوسر.  
أخذ نفساً طويلاً، مثني وثلاثاً كما علّمه والده، ثم غاص في الماء.

لم تكن المياه عميقة في هذا الموقع. لا تزيد عن «جار»<sup>(١)</sup>. كانت المياه صافية لدرجة تتيح الرؤية إلى ما لانهاية. احتشدت أسماك متعددة الألوان وراحت تدور حول الفتى كأنها تحييه، في مجموعات، من مختلف جوانب جسده. إن تموج أوسر تموجت معه. تفحص بعناية المساحة حوله، حيث بعض الصخور، والرمال، ولا شيء آخر. تنقل في دوائر واسعة لكنه لم ير شيئاً يشبه النبتة. استمر في حركته لفترة طويلة، حتى إنه اضطر، فاقدماً النفس، أن يصعد إلى سطح البحر. أخذ نفساً عميقاً وغاص مجدداً. أعاد الكرّة، مرتين، ثلاثاً، دون جدوى.

من فوق المركب، ظلت عينا ياكين مركزتين على المياه، وبدا مضطرباً، وقلبه يدق بعنف. لم يكن وحده في هذه الحالة. فجميع الغواصين، رغم عدم إدراكهم لما يبحث عنه الفتى، كانوا معنيين. بعد فترة، قال القبطان نافد الصبر.

- يجب على الفتى أن يصعد. لا أستطيع أن أمكث اليوم كله في المرفأ!

- أرجوك، استحلفه ياكين، مزيداً من الوقت، دعه لمزيد من الوقت.

---

(١) أقل من خمسة أمتار.

غمغم القبطان، بكلمات غير مفهومة، ثم قال جازماً:  
- متى بلغت الشمس ذروتها، سوف نرفع المرساة. ما من لحظة  
بعد ذلك.

رفع الطبيب نظره إلى أعلى. لم يتبق وقت طويل، فالشمس  
كادت أن تصل إلى ذروتها.

تحت المياه، استمر أوسر في تفقد القاع بعناد. وغير قادر على  
تحديد السبب، كان صوت أبيه يهمس في أذنه:

«يوماً ما، سوف تقهر المحيطات، سوف تتحدى العواصف،  
وستعود بالمجد والفخار إلى دلمون».

فجأة، جذبت نقطة مضيئة انتباهه، خالها في البداية هلوسة،  
سراباً بحرياً.

سارع نحو الموقع.

بلى! هذا ضوء فعلاً، كأنها نجمة تتألأ. سبح بسرعة أكبر،  
ضاعف السرعة.

ثم، تحجراً!

إنها شُعْبَةٌ مرجانية حمراء.

لكنها شُعْبَةٌ مرجانية كما لم يُر مثلها من قبل. كانت تتألق! يخال  
لك أن ناراً تحترق بداخلها. كانت مثبتة على صخرة.

وأغرب ما في الأمر أنها كانت الزهرة، زهرة بيضاء وحمراء  
تقوم مربوطة بفرع من فروع الشعبة المرجانية.

لم يساور أوسر أي شك. ليست إلا النبتة التي يبحث عنها  
ياكين. يستحيل وجود نبتة أخرى مثلها.

أطبق أصابعه بحرص على الشُعْبَةِ المرجانية، وانتفض مبتعداً  
مجفلاً.

كانت الأشواك حادة لدرجة أنها وخزته وأسالت دمه .  
ضغط على أسنانه، وأعاد الكرّة، وبعد مجهود عنيد متكرر،  
نجح في خلع الشعبة المرجانية من الصخرة. ثم ضرب القاع بكعبه  
وظفا إلى السطح.

- وجدتها أيها الآسوا وجدتها!

هتف رافعاً النبتة وزهرتها إلى أقصى إرتفاع.

ومستعملاً يداً واحدة في العوم تقدّم نحو المركب.

سحبوه خارج الماء .

حالما وصل إلى سطح المركب سلّم بهيئة المنتصر الشعبة  
المرجانية الحمراء الغربية إلى ياكين الذي تسلمها مرتجفاً . بهره  
البريق الصادر عن المادة . بريق خارق . لم يشهد أحد مثله من قبل .  
وهذه الزهرة، هذه الزهرة البيضاء - الحمراء . هي التي تمنح الحياة  
الأبدية! لا مجال للشك .

بلغ به التأثير حدّ البكاء، ضم النبتة إلى صدره، وتحت نظرات  
العواصين المنبهة، غادر المركب متوجهاً نحو داره، نحو إيشا .

عندما اقترب من زوجته جثا على ركبتيه وقطف الزهرة بلطف من  
الشعبة المرجانية .

- سوف تعيشين، قال مقرباً الزهرة من شفتي المرأة .

سوف تعيشين يا حبيبتى .

ما إن نطق بهذه الكلمات حتى انطفأ الضوء الساكن داخل النبتة،  
إنطفأ كما ينطفئ النهار .

كما تذبذب سنين عمرنا .

لم يحاول ياكين فهم السبب .



أدخل الزهرة برفق في فم إيشا .

بدت منها حركة رفض .

- لا ! توَسَّلْ يا كين ، لا ترفضها .

أطاعته شبه فاقدة للوعي .

وضع ياكين الشعبة المرجانية الميتة بجواره على الأرض ، وتمدد

بجوار زوجته .

سأله وارك وكان قد اقترب منهما :

- ماذا يجري يا أبي؟ ألم تتحسن حالة أمي؟

- علينا أن نصبر ، ستشفى قريباً .

علينا أن نصبر .

عندئذ ، تمدد الفتى هو أيضاً بجوار والده .

أغلق عينيه . وصبر .



## الخاتمة

انتظر يا كين حتى يضع حفّارو القبور البلاطة فوق الغرفة  
الجنائزية وينصرفوا .

حالما غادروا، قبض على يد وارك وبقى كلاهما واقفاً، بلا  
حرك في ضوء الشفق .

ريح آتية من عرض البحر غلّقتهم بعدوبتها .

ما من دمعة في عيني يا كين .

ولم يكن وارك يبكي .

كانا ينصتان للصوت .

ينصتان متبهين للصوت المتصاعد من القبر الذي ترقد فيه إيشا .

صوت حنون، صوت صديق، يقول:

- نعم، الموت قاس ولا يرحم، لكن من منا يبني منازل غير

قابلة للهدم؟

من منا يبرم عقوداً أبدية؟

الأخوة يرثون، يقتسمون .

أي ميراث دائم؟

هل يرتفع النهر ويأتي الفيضان دائماً؟

الفراشة حالما تخرج إلى النور ترى الشمس وتبلغ نهايتها .

منذ قديم الأزل، للأسف، ما من شيء يدوم.  
مَنْ يستطيع، بعد الموت، أن يفرّق بين السيد والخادم؟  
لقد ورّع الآلهة الحياة والموت. يفصحون عن أيام الحياة، لكن  
عن الموت لا يفصحون.

عندما خلق كبار الآلهة الإنسان جعلوا مصيرهم الموت  
واحتفظوا لأنفسهم بالحياة الأبدية. امرحوا ليل نهار، ارقصوا  
والعبوا، وليكن كل يوم من حياتكم حافلاً بالفرح والملذات،  
والمُتَع.

لتكن ملابسكم نظيفة وجميلة.

أحبوا،

أحبوا الزوجة، أحبوا الزوج.

أحبوا، أحبوا، أحبوا،

هذه هي الحقوق الوحيدة التي يمتلكها الإنسان.

## دلمون

بدأ الهبوط الاقتصادي والاستراتيجي لدلمون اعتباراً من عام ١٧٥٠ قبل الميلاد نتيجة لمجموعة من الأحداث، من ضمنها اندثار حضارة الإندوس، والانحسار الاقتصادي لجنوب بلاد ما بين النهرين، وظهور منافسين تجاريين جدد.

وكما يشرح بيار لومبار في كتابه «البحرين، حضارة بحرين»: <sup>(١)</sup> «المؤرخ، شأنه شأن الأثري، يستطيع أن يقيس مثل هذا الهبوط الحضاري بسهولة، فمن جانب يختفي اسم دلمون لمدة تزيد على قرنين من النصوص التاريخية والاقتصادية لبلاد ما بين النهرين؛ ومن جانب آخر نلاحظ الهجر التدريجي، وإن كان نهائياً، للعديد من المواقع الممثلة لذروة ثقافة دلمون».

عندما عاد ذكر الجزيرة للظهور نحو منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، كانت قلعة البحرين، وغالباً سائر البلاد، محتلة من قبل شعب أتى من بلاد ما بين النهرين : الكاسيت أو الكاسوس .  
في عام ٥٤٤ قبل العصر الحديث، سقط الأرخبيل تحت السيطرة الأخمينية .

---

(١) معهد العالم العربي، باريس، ١٩٩٩ .

ما بين عامي ٣٠٠ و ١٠٠ تفقد الإسكندر الأكبر، في طريق عودته من الهند، ساحل الخليج العربي، ووصل أحد قاداته أندروستين إلى أرض الجزيرة ، لتتخذ حينذاك المسمى الإغريقي «تيلوس»؛ وهو الاسم الذي احتفظت به حتى القرن الثاني بعد الميلاد.

في عام ١٢، أتى دور البارثيين للتدخل في شأن الجزيرة. ولتقع تيلوس تحت سيطرة الساسانيين الذين يطلقون عليها اسم أوّال. في عام ٦٢٩، أي قبل وفاة النبي محمد بثلاث سنوات، احتل العرب الأرخييل.

في عام ١٧٨٣، فرضت عائلة آل خليفة، المنحدرة من تحالف العُتوب المرموق، سيطرتها على البلاد.

اعتباراً من عام ١٨٦١، فرضت بريطانيا العظمى «الحماية» على البلاد، ولكنها امتنعت عن التدخل في شؤونها الخاصة.

في عام ١٩٧١، ألغيت «الحماية»، وفي ١٥ آب / أغسطس من نفس العام، أعلن الأمير عيسى بن سلمان استقلال البلاد.

حالياً، ومنذ عام ٢٠٠٢، يحكم البلاد الملك حمد بن عيسى آل خليفة.



## هذا الكتاب

قد يُفاجأ القارئ بأن دلمون بلاد حقيقية وليست من نسج الخيال. ورد ذكرها منذ العام ٣٠٠٠ ق.م. في نصوص بلاد ما بين النهرين القديمة وحتى منتصف الألفية الأولى ق.م.

دلمون في الحقبة التي نتحدث عنها لم تكن صحراء جرداء، بل على العكس كانت تُروى بالمئات من ينابيع المياه العذبة والآبار الأرتوازية وكانت أراضيها شديدة الخضرة، محققة بذلك معجزة في منطقة من العالم مشهورة بجفافها.

في دلمون تتلاقى الأساطير مع الواقع، والحياة الأبدية مع الموت، والتاريخ العظيم مع حكايات الحقب. كل ذلك يُختصر في كلمة واحدة: الحلم.

ISBN 978-9933354237



9 789933 354237

